الجزء ١ — المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق : كانون الثاني سنة ١٩٢٧ م الموافق رجب سنة ١٣٤٥ هـ)

المجمع العلمي العربي

« في سنة ١٩٢٦ »

الرئيس : السيد محمد كرد علي

« الاعضاء »

	السادة :	محل الاقامة
١	اسعد الحكيم	دمشق
٢	انيس سلوم (عامل)	〃
٣	بهجة البيطار	〃
٤	خليل مردم بك	〃
٥	رشيد بقدونس	〃
٦	سليم البخاري	〃
٧	سليم الجندي	〃
٨	سليم عنحوري	〃
٩	شفيق جبري	〃
١٠	عارف النكدي	〃
١١	عبد القادر المبارك	〃
١٢	عبد القادر المغربي (عامل)	〃

« الاعضاء »

	السادة	محل الاقامة
١٣	عبد الله رعد	دمشق
١٤	فارس الخوري	〃
١٥	مرشد خاطر	〃
١٦	مسعود الكواكبي	〃
١٧	مصطفى الشهابي	〃
١٨	ابراهيم منذر	بيروت
١٩	امين الريحاني	〃
٢٠	بولس الخولي	〃
٢١	جبر ضومط	〃
٢٢	شكيب أرسلان	〃
٢٣	عبد الباسط فتح الله	〃

	«الاعضاء»	محل الاقامة		«الاعضاء»	محل الاقامة
٢٤	عبد الرحمن سلام	بيروت	٤٥	سعيد الكرمي	طول كرم
٢٥	عبد الله البستاني	«	٤٦	رضا الشبيبي	النجف الاشرف
٢٦	فيليب حتي	«	٤٧	امين المعلوف	بغداد
٢٧	فيليب طرازي	«	٤٨	انستاس الكرملي	«
٢٨	لويس شيخو	«	٤٩	جميل صدقي الزهاوي	«
٢٩	عيسى اسكندر المعلوف	زحلة	٥٠	عز الدين علم الدين	«
٣٠	احمد رضا	النبطية	٥١	كاظم الدجيلي	«
٣١	جرجي يني	طرابلس الشام	٥٢	معروف الرصافي	«
٣٢	سليمان احمد	اللاذقية	٥٣	احمد الاسكندري	القاهرة
٣٣	ادوارد مرقص	«	٥٤	احمد تيمور	«
٣٤	محمد زين العابدين	انطاكية	٥٥	احمد زكي	«
٣٥	بدر الدين النعساني	حلب	٥٦	احمد عيسى	«
٣٦	جرجس شلحت	«	٥٧	اسعد خليل داغر	«
٣٧	جرجس منش	«	٥٨	رشيد رضا	«
٣٨	راغب الطباخ	«	٥٩	عباس محمود العقاد	«
٣٩	عبد الحميد الجابري	«	٦٠	محمد الخضر حسين	«
٤٠	عبد الحميد الكيالي	«	٦١	يعقوب صروف	«
٤١	قسطاكي الحمصي	«	٦٢	زكي مغامز	الاستانة
٤٢	كامل الغزي	«	٦٣	حسن حسني عبد الوهاب	تونس
٤٣	ميخائيل الصقال	«	٦٤	محمد بن ابي شنب	الجزائر
٤٤	اسعاف النشاشيبي	القدس	٦٥	محمد أجمل خان	الهند

***

« الاعضاء »		محل الاقامة
٦٦ مارسية	Marçais	تونس
٦٧ ماسه	Massé	الجزائر
٦٨ كي	Guy	ازمير
٦٩ ميشو بلير	Michaux-Bellaire	طنجة
٧٠ هوار	Huart	باريز
٧١ فرّان	Ferrand	«
٧٢ دوسو	Dussaud	«
٧٣ ماسينيون	Massignon	«
٧٤ بوفا	Bouvat	«
٧٥ جويدي	Guidi	ايطاليا
٧٦ نالينو	Nallino	«
٧٧ آسين	Asin	اسبانيا
٧٨ لوبس	Lopès	البرتقال
٧٩ مونته	Montet	سويسرا
٨٠ هيس	Hess	«
٨١ سنوك هورغرن	Snouck-Hurgronje	هولانده
٨٢ هوتسما	Houtsma	«
٨٣ ارانددونك	Arendonk	«
٨٤ مرجليوث	Margoliouth	انكلترا
٨٥ بفن	Bevan	«
٨٦ هومل	Hommel	المانيا
٨٧ ساخاو	Sachau	«
٨٨ بروكلمن	Brockelmann	«
٨٩ هوروفيتز	Horovitz	«

	«الاعضاء»	محل الاقامة
٩٠ هرزفلد	Herzfeld	المانيا
٩١ هارتمان	Hartmann	«
٩٢ ميتفوخ	Mittwoch	«
٩٣ سترستن	Zettersteen	السويد
٩٤ اوستروب	Oestrup	الدانيمارك
٩٥ بول	Buhl	«
٩٦ بدرسن	Pedersen	«
٩٧ موجيك	Mzik	النمسا
٩٨ ماهلر	Mahler	المجر
٩٩ كوفالسكي	Kowalski	بولونيا
١٠٠ كراتشقوفسكي	Kratchkovsky	روسيا
١٠١ موزل	Musil	تشيكوسلوفانيا
١٠٢ ماكدونالد	Macdonald	اميركا
١٠٣ كرسيكو	Karsikko	فنلاندا (١)

(١) والاعضاء الذين فقدهم المجمع هم المرحومون : الشيخ طاهر الجزائري في دمشق · والسيد نجله زويق في القدس · والسيد اغناطيوس غولدصهير في بودابست والسيد مرتين هارتمان في برلين · والسيد رينه باسه في الجزائر · واحمد كمال باشا والسيد مصطفى لطفي المنفلوطي في القاهرة · والسيد محمود شكري الالوسي في بغداد · والسيد غريفيني والسيد رفيق العظم في القاهرة · والسيد حسن بيهم في بيروت · والدكتور صالح قنباز في حماة · والسيد مالنجو والسيد الياس القدسي في دمشق · والسيد براون في كمبريج · أجزل الله ثوابهم ·

سهل بن هرون (١)

« منبته ونسبه » : — ولد سهل بن هرون (٢) في مدينة ميسان بين واسط والبصرة وفي رواية في دستميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الاول من القرن الثاني تقديراً ، ولا يعرف من نسبه الا انه سهل بن هرون بن راهبون (راهيون) وكنيته ابو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي اوخوزي المولد ، عراقي المنشأ ، تحول الى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة اذ ذاك مدينة العلم في الدولة الاسلامية ، بل مدينة العلم في العالم كله ، او كما قيل فيها « قبة الاسلام وخزانة العرب » ، حوت من حصائل العلم الانساني اصوله وفروعه ، ومن القائمين على تغيته مصاقعه وفحوله ، تغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار عقله بما اقتبسه من نور معارفها ، فتخرج بعلمائها ، ولا شك انهم كانوا طبقة عالية جداً ، في كل مطلب من مطالب الآداب .

وكانت البصرة بل المملكة الاسلامية أخذت في تلك الحقبة ، تمازج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند ، وبدأت المذاهب الفلسفية تتسرب في المجتمع الاسلامي ، وعلماء الامة بمعاورهم الجزر والمد على شاطىء بحر الحكمة القديمة ، شأن

---

(١) محاضرة السيد محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي ألقاها في ردهة المجمع يوم ٣ كانون الاول سنة ١٩٢٦ . (٢) لم يترجم لسهل بن هارون القفطي في اخبار الحكماء ، ولا ابن خلكان في وفيات الاعيان ، ولا البيهقي في حكماء الاسلام ، ولا السمعاني في الانساب ، ولا ابن الانباري في طبقات الادباء . وترجم له تراجم موجزة كل من الصفدي في الوافي بالوفيات والصلاح الكتبي في فوات الوفيات وفي عيون التواريخ ، وابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون وابن بدرون ، في شرح قصيدة ابن عبدون ، والثعالبي في المضاف والمنسوب . وترجم له كرامر الهولاندي من علماء المشرقيات في المجلة الاسلامية ، واقتصر على ماقاله المترجمون فيه وفاته انه كان من رجال الرشيد وقال انه لم يجتمع بالجاحظ مع ان الجاحظ يروي عنه كثيراً في كتبه المطبوعة .

مدينة البصرة مع خليجها ، بمد ماؤها ويجزر على الدوام ، وما زالوا هذا حالهم يغوصون في بحار الافكار حتى أخرجت عقولهم درراً غريبة ، كما يخرج بحرهم الجواهر واللآلي الثمينة النادرة . وكانت النفوس حريصة على الدين الذي دوّن وحرر ، راغبة كل الرغبة في الاخذ مما لا عهد لها به من علوم الامم السالفة . وفي هذا المحيط انبعث عقل سهل بن هرون لاول امره ، في ارض صالحة لانماء العقل واطلاقه من قيوده ، ولم يُعرف اذا كان سهل رحل الى الروم وفارس والشام ومصر ، والغالب انه لم تتعد تنقلاته مدينة الرقة قصبة ديار مضر ، والرصافة رصافة هشام في اول تخوم الشام ، واكتفى بالبصرة وبغداد . وجميع هذه المدن الاربع الرُّصافة والرَّقة وبغداد والبصرة هي من بناء العرب . وكانت بغداد أجمل مدن الارض في ذلك العصر ، وفيها كل شيء جديد سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها ، او في عقول اهلها ونبوغ علمائها ، يُحمل اليها من الآفاق بدائع ماصنع البشر ونتجت عقولهم . والدول سوق يحمل اليها مايروج فيها .

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل ، ولا مظهره ومذهبه ، ولا أصل أم سهل وتربيتها ، ولا معلميه في بلده ، ولا أساتيذه في البصرة ، ولا أترابه ولداته في صباه ، ولا غير ذلك من العوامل التي لها الشأن الاكبر في تربية الملكات ، وتلقين الاخلاق والعادات . ينشأ عليها الفتى فتطبع حياته بطابع خاص ، نتعذر في عقود العمر الآخرة إحالتها واستحالتها . بيد انه من المعقول ان يكون قانون الوراثة اورثه جراثيم دم الفرس وحكمتها ونظامها وأدبها ، وضم اليها الثقافة العربية فجاءت منازعه خليطاً نافعاً ، ومداركه متينة رصينة .

أضف الى هذا ان مملكة بني العباس كانت سيدة الممالك ، على ما كانت البصرة سيدة البلاد بصفائها وهنائها ، وقوتها وعزتها ، وربما كان العصر الذي نشأ فيه سهل ابن هرون أجمل عصور التاريخ ، والمُلك موحَّد من المغرب في شمالي افريقية الى حدود الشرق ، وليس في الارض حكومة اسلامية غير الاندلس بيد بني مروان : لا غوائل ولا فتن في الداخل والخارج ، يشتمل الناس على السلامة ، ويغتبطون بما أوتوا في سلطان بني هاشم ، وكلما نجم ناجم من العلويين او غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضي عليه لساعته ، فضعف المنازعون الى منازعة الخوالف حبلَ السلطة .

وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس في رضا خليفة العرب ، والملك من ملوك آسيا واوربا اذا تيسر لقاصده او سفيره ان يتشرف بالحضرة حضرة بني العباس ، يسعد ويمتاز في سلطانه ، وعدّ ذلك نعمة حازها دون أقرانه .

« مذهبه وأخلاقه » : — قيل ان سهل بن هرون كان شيعياً ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الاطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه ان تنقص احداً من الصحابة الكرام ، بلى عرف بالاعتدال مع الأموات اعتداله مع الاحياء ، وما أثر عنه انه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها اذذاك ، ولا سيما في البصرة ودار السلام بغداد . واتهموه بانه كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلاً ، واذا صحت هذه التهمة فمن الصعب التوفيق بين مذهب من يقول بالشعوبية ومن يقول بالتشيع ، على المعنى الذي فُسر به بعد قرون .

والشعوبي منسوب الى قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . ونشأ مذهب الشعوبية على الأرجح بُعيد عصر الخلفاء ، باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين أرباب العصبيات ، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذي جاء الاسلام بابطاله ، ولو كان للجنس يفضل المرء في الامة ، ما نزل سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي من الرسول تلك المنزلة العالية . والدين لا يفاضل الا بالتقوى . على ان أعظم من كانوا يكيدون للعرب بالشعوبية السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى ، لا أشراف العجم وذوو الاخطار واهل الديانة ، على ما رأى ابن قتيبة . اذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية ، غير خائف ولا متلجلج ، فاعتداله يمنعه الا ان يقدر لكل عنصر خصائصه ، وهو لم يعدّ رجلاً مذكوراً الا بالاسلام ، والأخذ عن علماء العرب ، ورقي في مظاهر الدنيا حتى وصل الى أعظم خلفاء العباسيين هرون الرشيد وعبدالله المأمون . وكان يفضل العلم احد أئمة البيان والحكمة في الامة العربية ، ودعي لحكمته وعقله بُزرجمهر الاسلام . وبُزرجمهر وزير انو شروان العادل ، من ملوك آل ساسان ، اشتهر بالعدل والحكمة .

وصفه الجاحظ فقال : كان سهل سهلاً في نفسه ، عتيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيداً من الفدامة ، (العي) معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضي له بالحكمة ،

قبل الخبرة ، وبرقة الذهن ، قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب ، قبل الامتحان، وبالنبل ، قبل التكشف (الظهور) . وكان الجاحظ مازجه وثاقفه . وقيل للحراني ولعله ابراهيم ابن ذكوان كاتب الهادي ووزيره : بينك وبين سهل بن هرون صداقة فانعته لنا كي نعرف فقال : هو كالخير ، وأزن العلم ، واسع الحلم ، ان جودث لم يكذب ، وان موزح لم يغضب ، كالغيث اين وقع ، نفع ، وكالشمس حيث أولت ، أحيت ، وكالارض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور للمتمسه ، وناقع لغلة من أحرّ اليه ، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التي يعيش بها المقرور ، وكالسماء التي قد حسنت باصناف النور اهـ . صورتان جميلتان في وصف سهل صورهما مصوران مبدعان ، عاشا بقربه وفتنهما بخلقه وخُلُقه .

واتهموا سهل بن هرون بالبخل وأوردوا له قصصاً ونوادر ، وعده الجاحظ من « متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء » قال : ما علمت ان احداً جرد في البخل كتاباً الا سهل بن هرون وابا عبد الرحمن الثوري . والبخل في الفرس غالب في الجملة ، غلبة الكرم على طبائع العرب . فاقتضى ذاك التفريط الذي رآه سهل في تبذير العرب ، ان يدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك . وما شوهد قط تفريط الا والى جانبه إفراط . وربما كان اتهامه بالبخل مبالغاً فيه تراد به النكتة والنادرة .

حكى الجاحظ قال لقي رجل سهل بن هرون فقال : هب لي ما لا ضرر به عليك فقال : وما هو يا اخي . قال : درهم . قال : لقد هوّنت الدرهم وهو طابع الله في ارضه لا يعصى ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة ، والمئة عشر الالف ، والالف دية المسلم ، ألا ترى الى اين انتهى الدرهم الذي هوّنته . وهل بيوت الاموال الا درهم على درهم . فانصرف الرجل ولولا انصرافه لم يسكت .

وحكى دعبل الخزاعي الشاعر قال : أقمنا يوماً عند سهل بن هرون ، وأطلنا الحديث حتى أضرّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فأتي بصحفة فيها مرق تحته ديك هرم ، فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة ، فلم يجد رأس الديك ، فبقي مطرقاً ثم قال للغلام : اين الرأس قال : رميت به قال : ولِمَ قال : لم أظنك تأكله قال : ولِمَ ظننت ذلك فوالله اني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه ، ولو لم أكره ما صنعت الا للطيرة

والفأل لكرهته ، اما علمت ان الرأس رئيس ينفاءل به وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أريد ، وفيه فرقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بصفائها المثل فيقال شراب كعين الديك ، ودماغه عجب لوضع الكلية ، ولم أر عظماً قط أهش تحت الاسنان منه ، وان كان بلغ من نُبلك انك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، او ما علمت انه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق؟ انظر اين رميته ، فقال : والله ما أدري قال : انا والله أدري انك رميت به والله في بطنك فالله حسيبك .

ولما صنف سهل كتابه في البخل أهداه للحسن بن سهل واستماحه فكتب اليه الحسن : قد مدحت ما ذمه الله ، وقبحت ما قبحه الله ، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك ، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما نعطيك شيئاً . والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسياً ايضاً ، ولكنه في الجود آية الآيات . والطبائع ارثية وللنشأ والعادة دخل كبير فيها ، ومع كل هذا فقد صح من شعر سهل قوله :

وما العيش الا ان تجود بنائل والا لقاء الاخ بالخلق العالي

ومن يقول هذا الشعر ، و يقصد هذا المعنى ، لا يكون من البخل على ماوصفوا ، ومن أفاد مالاً فادخره الى الايام السود ، كان في احتياطه على مثال ابناء البلاد الباردة الذين قد يدخرون مؤونتهم سنتين وثلاثاً اما اهل البلاد الحارة فلا يفكرون الا في اليوم الذي هم فيه على الاعم الأغلب من حالاتهم . وقال غولدصهير المجري : ان تمدح ابن هرون بالبخل ، نزغة من نزغات الشعوبية ، أراد بمدحه الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية .

« طريقته في الكتابة وتآليفه » :— ان رجلاً يفضله الجاحظ و يصف براعته وحصافته ، ويحكي عنه في كتبه ، و يظهر إعجابه به اذا ذكر ، و يروي حديثه ومجالسه ، هو ولا شك المثل الاعلى في صنوف العلم والآداب ، بلغ الذروة فيما تفرد به واشتهر بمعرفته ، وكان اهل عصره مجمعين على الاقرار بفضله ، قلما يداخلهم الحسد له ، فكان منقطع القرين في فنه ، نابغة في العلم الذي يمت به ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ وهو في البلاغة يجري مع سهل كفرسي رهان ، وفي العلم والعقل المثل

المضروب ، كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني ، الحسن النظم ، فينسبه الى نفسه فلا يرى الاسماع تصغي اليه ، ولا الارادات تيمم نحوه ، ثم يؤلف كما قال عن نفسه ، ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ، فينحله عبد الله بن المقفع او سهل بن هرون او غيرهما من المتقدمين ، ومن طارت اسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كتبها و يسارعون الى نسخها · وطريقة سهل في كتابته طريقة امير المؤمنين علي بن ابي طالب لا يتكلف لكلامه فلا يشاهد فيه الناقد اثر التعمد ، بل لا يكلف بغير ارسال النفس على سجيتها فهو وابن المقفع والجاحظ من غرار واحد · وقيل ان سهلاً كاتب سلاطين والجاحظ مؤلف دواوين · وكان كلامه نغمة موسيقية تعرف انتهاء جملته من رنتها ، بعد ان ملكت عليك مشاعرك ، وأدخلت السرور على نفسك ، لا يحفل بالاسجاع الا اذا جاءت عفو الخاطر ، شأن بلغاء الصدر الاول · ولا يتعمد الجزالة الا اذا اقتضى الموضوع ذلك ، وقلما خلا قوله من نكتة تحمدله وتحمل عنه · وكأنك في انشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ ، وما تنفع القوالب اذا لم يكن علم الكاتب على الظاهر والدساتير مستملية · ففي أسلوبه تقرأ لتتعلم ، وفي غيره تقرأ الفاظاً جميلة وقوالب محكمة ، وفي كلام الطيب تقع على إشباع المعاني ، وتقطيع الجمل ، والابلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع ، وتفعل البلاغة فعلها في نفسه من طريق الاقناع والبرهان لا من مجرى التقفية والزخرف ، وتوازن الكلمات ورنة الفقرات ·

كان سهل يقول الشعر ، وأكثر شعره مما أملاه قلبه ، في غرض خاص من أغراض المجتمع ، وعده الجاحظ من الخطباء والشعراء الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والاخبار المدونة · ولقبه مرة بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب في شرفه أكبر من عالم · وذكره ابن النديم في البلغاء وقال انه شاعر مقل ، وعده في الشعراء الكتاب وقال انه كان ممن يعمل الاسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم هو وعبدالله ابن المقفع وعلي بن داود كاتب زبيدة · وشعره خمسون ورقة · امالدهشة في تآليفه فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب اسباسيوس (اسانرس) في اتخاذ الاخوان ، كتاب اسد بن اسد ، كتاب مجرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ،

كتاب الى عيسى بن ابان في القضاء ، كتاب الفرس ، كتاب الغزالين ، كتاب ندود وودود ولدود ، كتاب الرياض ، كتاب ثعلة وعفراء (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة قلده في أبوابه وأمثاله وقال المسعودي يزيد عليه اي على كليلة ودمنة في حسن نظمه وقد صنفه للمأمون - ومن تآليفه كتاب المخزومي والهذلية ، كتاب الوامق والعذراء الى غير ذلك من المصنفات التي لم تبق الايام و يا للأسف على واحد منها فيما علمنا ، ومنها ما عارض به كتب الاوائل و جمعت الى الحكمة الفائقة البلاغة السرية الغريبة .

ولا تعجب اذا رأيت بضعة من تآليف سهل في القصص والاسمار ، فان من الناس من يتعلم بالاحتيال عليه ، وصعب عليك ان تلقنه الثقافة العالية والاخلاق الفاضلة ، الا في قالب يميل اليه بجملته ، ظاهره هزل وإحماض ، و باطنه تعليم وإرشاد ، ومن أجل هذا كان هذا اللون من الأدب ، مما يلذ المطالع ويفيده علماً ، ويلقي عليه حكمة بالغة على نحو ما يفعل كبار القصصيين من اهل المدنية الحديثة . وكان حظ ابن المقفع في هذا الباب أجزل ، لان كتابه كليلة ودمنة الذي عربه من البهلوية اشتهر اكثر من اشتهار ثعلة وعفرة ، او غير ذلك من الاوراق التي كسرها على القصص ، ولا تدل اسماء كتبه على انه كتب في موضوع أشبه بدبني اللهم الا كتابه في القضاء ، اما كتابه في تدبير الملك والسياسة فدليل على انه قرن العلم بالعمل في هذا الفن السهل الصعب .

« حياته السياسية » : — لم نهتد الى زمن انتقال سهل من البصرة الى بغداد ، وسكت التاريخ عن عهد رحيله من مسقط رأسه ، وعن سنة ولادته ، وغاية ما ذكر في ترجمته انه كان مختصاً بالفضل بن سهل اخي الحسن بن سهل وزيري المأمون وان الفضل قدمه للمأمون ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول ان سهلاً كان من رجال الرشيد ، وانه دخل عليه وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وأبسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من ايامه مربياً على امسه ، مقصراً عن غده . فقال الرشيد : يا سهل من روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه

وأوضحه ، اذا رامَ ان يقول لا يعجزه القول . فقال سهل : يا امير المؤمنين ما ظننت ان احداً تقدمني الى هذا المعنى . قال : بل أعشى همْدان حيث يقول :

رأيتك امس خير بني أُؤَيٍّ . وانت اليوم خيرٌ منك امس
وانت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على ان سهلاً اتصل بالرشيد ، والمأمون حدث صغير . وان سهلاً كان معروفاً برواية الشعر والحديث ايضاً . وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ وحدث نيما كان عليه يحيى وجعفر من البلاغة فقال ان سجاعي الخطب ومحبري القريض عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى ولو كان كلام يتصور دراً ، و يحيله المنطق السري جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما . ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه ، فدمين عيين ، وجاهلين أميين . ولقد عمّرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين في ايامهم ، وهم يرون ان البلاغة لم تستكمل الا فيهم ، ولم تكن مقصورة الا عليهم ، ولا انقادت الا لهم ، وانهم محض الانام ولباب الكرام ، وملح الايام : عتق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل ايامهم ، والمأثور من خصالهم ، كثير ايام من سواهم ، من لدن آدم ابيهم ، الى النفخ في الصور وانبعاث اهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين واهل وحيه المرسلين ، لما باهت الا بهم ولا عولت في الفخر الا عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم وتهذيب أغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم الى ملء الارض مثلهم ، في جنب محاسن المأمون كالنفثة (التفلة) في البحر ، والخردلة في المهمه القفر » .

وهذا الكلام على ما فيه من حق في وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مصانعة ، وفيه مبالغة فارسية لم تكد تعرفها العرب على هذا الوجه ، ومن الصعب ان يتجرد المرء عن كل أخلاقه ، و يخرج عن دمه الذي ورثه مهما عولج بالتعليم والتربية .

شهد سهل هذه المأساة مأساة مقتل بني برمك وقال : ان الرشيد لما قتل جعفراً بعث اليه وكان معه في الرقة يحصل أرزاق العامة مع يحيى بن خالد — والرقة كانت

مصطاف الرشيد وكان يقول الدنيا اربعة منازل دمشق والرقة والري وسمرقند — ولما حمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدي يحيى يكتب توقيعات في أسفل كتبه لطلاب الحوائج اليه قد كلفه إكمال معانيها باقامة الوزن فيها فلبس ثياب أحزانه لانه كان على صلة دائمة بالبرامكة قال : فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديه عرف الذعر في تجريض ريقي ، والتبايد في طريقي ، وشخوصي الى السيف المشهور ببصري فقال : إيها يا سهل من غمط نعمتي ، واعتدى وصيتي ، وجانب موافقتي ، أعجلته عقوبتي » قال : فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : « ليفرخ روعك ، وليسكن جأشك ، وتطيب نفسك ، وتطمئن حواسك . فان الحاجة اليك قربت منك وابقت عليك ، بما يبسط منقبضك ، ويطلق معقولك ، فاقتصر على الاشارة دون اللسان ، فانه الحاكم الفاصل ، والحسام الباصل ، وأشار الى مصرع جعفر وهو يقول :

من لم يؤدبه الجميل ففي عقوبته صلاحه

قال سهل : « فوالله ما أعلمني عييت بجواب احد قط غير جواب الرشيد يومئذ ، فما عولت في شكره والثناء عليه الا على تقبيل يديه وباطن رجليه » . ثم قال لي : « اذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد ووهبتك ما ضمنته أبنيته وحوى سرادقه ، فاقبض الدواوين واحص حباءه وحباء جعفر ، لنأمرك بقبضه ان شاء الله . قال سهل : فكنت كمن نشر عن كفن ، واخرج من حبس ، فأحصيت حباءهما فوجدت عشرين الف الف دينار .

وبذلك تبينت منزلة سهل وكيف أصبح بعد يحيى البرمكي صاحب دواوين الرشيد ومع ما كان له من الإجلال في الصدور خاف يوم النازلة بالبرامكة وكانت البرامكة كما قال ابن خلدون من محاسن العالم ، ودولتهم من أعظم الدول ، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها — ان تفنن القافة لصحبته لهم وامتزاجه بهم . وناهيك به يومئذ من موقف صعب ، ولكن عقل الرشيد لا تعبث به الأهواء ، وبضن بعظيم من رجاله لأسباب تافهة فأبقى على سهل بن هرون لانه من مفاخر الملة والدولة . لا جرم ان سهل بن هرون كان في سياسته من حزب الحكومة او الحزب المعتدل ،

تعزب فطرته عن التطرف ، و يرى المصلحة في التآلف ، ويعد الخروج عن سبيل الجماعة خروجاً عن الطاعة .

والغالب ان عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة ١٩٣ . ولم يجر له ذكر في عهد الأمين مدة اربع سنين وثمانية اشهر وكسر فالتزم على ما يظهر بيته ، واعتزل الفتنة بين الامين والمأمون ، حتى اذا كانت الخلافة للمأمون أصبح سهل ابن هرون من خاصته كما كان من خاصة ابيه الرشيد من قبل . وروى بعض الرواة ان المأمون كان استثقل سهل بن هرون . وقد دخل عليه يوماً الناس على مراتبهم فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب ، فلما فرغ من اومه أقبل سهل ابن هارون على الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تعون ، وتشاهدون ولا تفقهون ، وتفهمون ولا تعجبون ، وتعجبون ولا تنصفون ؟ والله انه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم وعجمكم كعبيدكم ، ولكن كيف يعرف بالدواء من لا يشعر بالداء . فرجع المأمون فيه الى الرأي الاول . وفي ذلك ايضاً من حسن المأتى ولطف المدخل والمخرج ، ما يعرفه المبتلي بعشرة الملوك والعظماء ، ولا سبيل الى الدخول على اكثرهم الا بهذه الطرق من التلطف والتزلف ، وان لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون . وهما ما هما في العقل والعلم والعدل . وأخرى وهو ان سهلاً بكلامه هذا ، ضرب الحاضرين في مجلس المأمون في الصميم وأنزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية ، فنسبهم الى السكوت في مواطن القول والى القصور في ميدان الاستحسان والاستهجان ؛ ومن قعدت به القريحة عن الانبعاث حين الحاجة كان حرياً ان لا يباشر تلك الطبقة من الخلفاء وهذا من دهائه الكسروي .

رجع المأمون عن رأيه في سهل ، وعرف انه الرجل كل الرجل في صورته وعقله ومفاكهته وغنائه وأدبه ، فقربه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده وكان سهل قد أسن بالطبع ، ويعرف المأمون مذ كان طفلاً عند الخليفة والده . ولكن المأمون يحترم الكبير وهو جد في جماع اموره . بيد انه لم يقبل باصطفائه الا بعد

اختباره . وعندما وقع عنده على امور انفرد بها وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرته من العلماء وهم عشرة اختيروا له من مئة .

« حياته العلمية » : — كان المأمون مولعاً بكتب القدماء والفلاسفة وعُدَّ ذلك من آكد أعماله في إنهاض مستوى العقل العربي فأنشأ داراً جمع فيها كل ما طالت يده اليه من كتب العلم باللغات المختلفة .

وكانت جزيرة قبرس في ذاك العهد تشغب كثيراً على الخلافة وقد سبى عمال الرشيد اهلها مرة حتى اذا أفضت الخلافة الى المأمون هادن صاحب قبرس وارسل اليه يطلب خزائن كتب اليونان وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه احد ابداً فيما قيل ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته وذوي الرأي في بلده واستشارهم في حمل الخزانة الى المأمون فكلهم أشاروا بعدم الموافقة الا مطراناً واحداً فانه قال : الرأي ان تعجل بانفاذها اليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية الا افسدتها وأوقعت بين علمائها . فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون . ثم صالح هذا الخليفة العالم صاحب الروم ميخائيل الثالث على ان يدفع اليه ما عنده من كتب القدماء وأرسل بعوثاً من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يتأتى للملك الروم إخراجه من الكتب فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة فوق ما حمل اليه من الشرق والغرب وجعل سهل بن هرون خازناً لها وسماها بيت الحكمة فاشتغل بها سهل وكثرت مادته من العلم وجعل معه عالماً اسمه سلم كما جعل شريكاً له سعيد بن هارون ولعله اخوه او ابن عمه .

ولا شك ان سهلاً تهيأت له أسباب البحث والنظر في بيت الحكمة التي أصبح ناظرها بما لم يتهيأ لغيره الوصول اليه . خصوصاً وهمة الخليفة منصرفة اي انصراف الى ترجمة كتب الفلسفة والعلوم والصناعات من اللغات الرومية والسريانية والفارسية والهندية . لا يهنأ له بال حتى تمسي المكتبة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا على ما هي تامة في علوم الدين ، وقد كان شرع بالنقل عن اللغات الاخرى الأمويان العظيمان خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز في دمشق خلال القرن الاول وثنى بذلك في بغداد الخليفتان العباسيان المنصور والمأمون في القرن الثاني .

اتسع الأفق أمام عقل سهل واستكملت أمامه عامة أدوات النبوغ ولم تقف

به الهمة عند الاخذ من كتب الفرس والفارسية لغته الاصلية بل تعدتها الى الاخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف البشرية خصوصاً وانتقاله الى بغداد بعد البصرة جاء متمماً له بغيته وكان اختلاطه برجال الخلافة وكانوا من كل صنف ونحلة وجنس معواناً له على الكمال وظهور جوهر نفسه . وقد يستفيد المرء بالمعاشرة والتلقي ما يستفيد من النظر في الكتب وتصفح دواوين العلم وصاحف الفضائل .

وذكر الصفدي ان سهل بن هرون تولى خزانة المأمون وتولى خزانة الحكمة له . اي انه كان له منصبان الاشراف على خزانة المأمون اي خزانة كتبه الخاصة والنظر على دار الكتب التي سميت دار الحكمة او بيت الحكمة . وكلا العملين عظيم في بابه ولكنهما من نمط واحد . وفي ذلك ما يشعر بان المأمون لم يكن يصبر عليه في قصره ولا يشبعه منه انصرافه الى المصالح العامة فقط او انه لم يرَ الكفاءة المطلوبة في غيره ليتولى هذين العملين .

« نثره وشعره » : — ان النزر القليل الذي وصل الينا من كلام سهل بن هرون يهيئ لنا السبيل الى الحكم عليه في بلاغته ورجاحته وعلمه وكلام المرء عنوانه ومرآته به تعلم ميوله ومنازعه وتستخرج دفائن نفسه . ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ، قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فان تقديم النافلة مع الابطاء في أداء الفريضة ، شاهد على وهن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومضر بالتدبير ومخلّ بالاختيار ، وليس في نفع تحمد به عوضاً عن فساد المروءة ، ولزوم النقيصة . » وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عدو تلاد المال فيما ينوبه منوعٌ اذا ما منعه كان أحزما
مذال نفس قد أبت غيران ترى مكاره ما تأتي من العيش مغنما

وكتب الى صديق له أبلّ من ضعف : « بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها والشكاة في حلولها وارتحالها فكاد يشغل القلق بأوله عن السكون لآخره وتذهل الحيرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعاً للاولى وارتياحاً للأخرى » .

ومن كلامه يعزّي : التهنئة بآجل الثواب ، اولى من التعزية على عاجل المصيبة . وقال في المعنى : مصيبة في غيرك لك ثوابها ، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها . وقال : حق كل ذي مقالة ان يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بديء بالنعمة قبل استحقاقها . وقال : تعلموا العلم فلأن يُذم الزمان لكم ، خير من ان يذم بكم . ومن كلامه : العفو الذي يقوم مقام العتق ماسلم من تعداد السقطات ، وخلص من تذكار الزلات . وكتب الى جعفر بن يحيى :

اذا ما اتى يوم يفرق بيننـا   بموت فكن انت الذي يتأخر

وقال : الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يحتسب له ، اي لا يعتدُّ به ، وقال : من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيهـا ، ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها .

وقال محمد بن زياد الزيادي البصري : وَجَدت على سهل بن هرون في بعض الامر اشجبوته فكتب اليّ : « اما بعد فالسلام على عهدك ، وداعَ ذي ظنٍ بك ، في غير مقلية لك ، ولاسلوة عنك ، بل استسلام للبلوى في امرك ، واقرار بالعجزة عن استعطافك ، الى اوان بيأتك ، او يجعل الله لنا دولة من رجعتك والسلام » . وكتب في أسفل الكتاب :

ان كنت أخطأت اوأسأت في   عفوك مأوى للفضل والمنن
اتيت ما استحق من خطأ   فجد بما تستحق من حسن

وهذا من أعظم مكارم الأخلاق . يُحيي وهو يسترضي هاجية .

ومن محاسن تعريضات سهل انه خاطب بعض الامراء فقال له : كذبت فقال : أيها الامير ان وجه الكذاب لا يقابلك يعني الامير بذلك لان وجه الانسان لا يقابله . ورويت هذه النكتة لغيره . وحكى الجاحظ ان ابا الهذيل العلاف المتكلم سأله رقعة يكتب بها الى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته فكتب رقعة وختمها ودفعها اليه فأوصلها الى الحسن فلما رآها ضحك وأوقف عليها ابا الهذيل واذا فيها مكتوب :

ان الضمير اذا سألتك حاجة   لابي الهذيل خلافُ ماأبدي

فامنحه رَوْح اليأس ثم امدد له حبل الرجاء بخلف الوعد
وألن له كنفاً ليحسن ظنه في غير منفعة ولا رِفد
حتى اذا طالت شقاوة جده وعنائه فاجبهه بالرد
وان استطعت له المضرة فاجتهد فيما يضر بابلغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعته وقّع فيها: « هذه لك الويل صفتك لا صفتي » وامر لابي الهذيل بالف دينار فعاد اليه فعاتبه فقال سهل: تُرى اين عَزب عنك الفهم اما سمعت قولي ان الضمير خلاف ما أُبدي فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا. قال الجاحظ: هذه من مغالطات سهل وبلاغته.

وروى الثعالبي قال: « حاجة ابي الهذيل » يضرب مثلاً للحاجة يسألها الانسان لغيره ويضمر ضد ما يظهر ولا يحب قضاءها إما بخلاً بجاهه واما لحاجة أُخرى في نفسه. قال وكان ابو الهذيل سار الى سهل بن هرون الكاتب وكان خاصاً بالحسن ابن سهل يسأله الكلام في امره ويستعينه على ضائقة دفع اليها فسار سهل الى الحسن فكلمه وقال له: قد عرفت أيها الامير حال ابي الهذيل ومحله وقدره في الاسلام وانه متكلم قومه والراد على أهل الإلحاد وقد فزع اليك لإضافة هو فيها فوعده ان ينظر له ما يصلح حاله. وربما كانت أبيات سهل منبعثة من كونه لاحظ بعد ان كلم الحسن بن سهل بشأن ابي الهذيل شيئاً من الفتور فلما أُريد على الشفاعة بابي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الابيات ومع هذا ما خلت من نكتة جميلة.

وابو الهذيل هذا هو شيخ المأمون وكان يقول فيه « أُطلّ ابو الهذيل على الكلام كاطلال الغمام على الانام » وكان يأخذ من السلطان في كل سنة ستين الف درهم ويفرقها على أصحابه.

وأنشد الجاحظ لسهل يهجو رجلا:

من كان يعمر ما شادت أوائله فانت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق ان تأبى نعالهم وانت تحوي من الميراث ما تركوا

وأجمل بهذا الهجو الذي اقتصر فيه على الموعظة الحسنة وهو القائل:

اذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي من ان يراني غنياً عنه باليأس

فلا يراني اذا لم يرع آمرتي مستمر يا دروراً منه بابساس
لا أطلب المال كي أغنى بفضلته ما كان مطلبه فقراً الى الناس

ومن شعره :

أعان طرفي على جسمي واعضائي بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غراً بما تجني عليَّ يدي لا علم لي ان بعضي بعض اعدائي

هذا هو الشعر الذي يسميه الافرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) واكثر شعر العرب منه وهو مرآة شعور صاحبه وما يمليه عليه قلبه و يزينه له طبعه ·

ومن بدائع سهل : القلم لسان الضمير اذا رعف اغلق اسراره وابان آثاره ·

وكان يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد لا يكادان يجتمعان في واحد واعسر من ذلك ان تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم ·

وقال : لا يُقدم على الخطبة الا اثنان فائق او مائق اما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث التخجل والانقطاع واما المائق فانه لا يبالي اخطأ ام اصاب ·

وقال : لو ان رجلين خطبا او تحدثا او احتجا او وصفا وكان احدهما جليلاً بهياً ولبيباً نبيلاً وذا حسب شريفاً وكان الآخر قليلاً قميئاً (صغيراً ذليلاً) و باذ الهيأة (رثها) دمياً وخامل الذكر مجهولاً · ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة وفي وزن واحد من الصواب لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم وللباذ الهيئة على ذي الهيئة ولشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه له ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ولكان الاكثار في شأنه علة للاكثار في مدحه لان النفوس كانت له احقر ومن بيانه ايأس ومن حسده ابعد فاذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه وظهر منه خلاف ما قدروه تضاعف حسن كلامه في صدورهم وكبر في عيونهم لان الشيء من غير معدنه اغرب وكلما كان اغرب كان ابعد في الوهم وكلما كان ابعد في الوهم كان اظرف وكلما كان اظرف كان اعجب وكلما كان اعجب كان ابدع وانما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين فان ضحك السامعين من ذلك اشد وتعجبهم منه اكثر ·

والناس موكلون بتعظيم الغريب واستطراف البعيد وليس لهم في الموجود الراهن

وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ وكل ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم والاصحاب في الفائدة من صاحبهم وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم ويرحلون الى النازح عنهم ويتركون من هو أعظم نفعاً واكثر في وجوه العلم تصرفاً وأخف مؤنة واكثر فائدة ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق والطارف على التليد .

الى ان قال : فاذا كان الحب يعمي عن المساوي فالبغض ايضاً يعمي عن المحاسن وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ومحصول حدود لطائف الامور . الا عالم حكيم ومعتدل الأخلاط عليم وإلا قوي المنّة الوثيق العقدة والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم والسواد الاكثر .

وقال سهل يوماً وهو عند المأمون : من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال . قال المأمون : قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم فان كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا ولو قلت : ان العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ولا تبلغ غايته ولا تستقصى أصنافه ولا يضبط آخره فالامر على ما قلت فاذا كان الامر كذلك فابدأوا بالاهم فالاهم وابدأوا بالفرض قبل النفل فاذا فعلتم ذلك كان عدلاً وقولاً صدقاً .

ويقال على الجملة ان من الندرة ان يتم لانسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل فهو من عنصر قوي ذي مدنية قديمة راسخة ثقفته المحيط العربي في ارقى بيئة عهدت في التاريخ الاسلامي وجاء في عصر زاهر بجملته وتفصيله ودخل في أمة قوية فتية فرفعه عقله وفضله الى اعلى مقامات الفضل والنبل وهيأ له من أسباب النبوغ ما لم يكتب لغير بضعة من رجال الادب العربي وساعده على ذلك طول اجله . اذ لو فرضنا انه يوم دخل على الرشيد كان ابن ثلاثين وقد قبض سهل الى ربه في سنة اربع وثلاثين ومائتين . والرشيد تولى الخلافة سنة احدى وسبعين ومائة . واذا فرضنا انه اتصل بالرشيد في منتصف عهده فلا يكون سهل عُمّرَ أقل من تسعين سنة او ما يقرب من عمر صاحبه الجاحظ خمس وتسعون . ومن بورك له بايام حياته يجيء منه في العلم ما لم يجئ من المتبطّ كهلاً او شاباً .

« أثره الباقي » : — ومن امثل ما أثر لسهل بن هرون من الكتب بل كتابه الوحيد الذي ما زال أهل الأدب يتناقلونه خلفاً عن سلف كتابه الى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل وتتبعوا كلامه في الكتب قال في فاتحته يحاجّهم : « بسم الله الرحمن الرحيم : أصلح الله أمركم وجمع شملكم وعلمكم الخير وجعلكم من اهله . قال الاحنف بن قيس : يامعشر بني تميم لا تسرعوا الى الفتنة فان اسرع الناس الى القتال أقلهم حياء من الفرار وقد كانوا يقولون : اذا اردت ان ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً فانه انما يعيب بفضل ما فيه من عيب . واول العيب ان تعيب ما ليس بعيب وقبيح ان تنهي مرشداً او تغري بشفق .

وما اردنا بما قلنا الا هدايتكم وتقويمكم وصلاح فاسدكم وابقاء النعمة عليكم . ولئن أخطأنا سبيل ارشادكم فما اخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون انا ما اوصيناكم الا بما قد اخترناه لانفسنا قبلكم وشهرنا به في الآفاق دونكم . ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : (وما أريد ان أخالفكم الى ما انهاكم عنه ان أريد الا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب) . فما كان احقكم في كريم حرمتنا بكم ان ترعوا حق قصدنا بذلك اليكم على ما رعيناه من واجب حقكم فلا العذر المبسوط بلغتم ولا بواجب الحرمة قمتم . ولو كان ذكر العيوب براً وفضلاً لرأينا في انفسنا عن ذلك شغلاً وان من اعظم الشقوة وابعد من السعادة الا يزال يتذكر زلل المعلمين و يتناسى سوء استماع المتعلمين و يستعظم غلط العاذلين ولا يحفل بتعمد المعذولين » .

فبدأ كما ترون في تقريع اهله او السابقين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم في ايثار كزازة اليدين على بسطها وانه اراد بارادتهم على الخير تعليمهم وحفظ فضل اموالهم وانهم اخطأوا في سوء فهم مراميه ولم يرعوا له حرمة ولا ذماماً . وذكرهم بحكمة جميلة وهو ان الناس يتذكرون خطيئات المعلمين ولا يذكرون جهل المتعلمين وعبر عنه بسوء الاستماع وهو من ارق التعابير . وذكرهم بالآية الكريمة التي جاءت في العبد الصالح . وبعد أن بلغ من قوله هذا الحد و بسط المسألة بينه وبين عاذليه على بخله ودعوة الناس الى طريقته وابان انه اشتهر بها في العالم وانها مما لا يعده

لمة في الشرف بل فضيلة من فضائل النفس · بعد هذا اخذ يخاطبهم و يورد لهم الامثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيره فعدها عبرة فقال :

« عبتموني بقولي لخادمي : اجيدي عجنه خميراً كما اجدته فطيراً ليكون اطيب لطعمه وازيد في ريعه وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورحمه لاهله : أملكوا العجين (شددوا عجنه) فانه احد الريعين · وعبتم عليّ قولي من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي · فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية واشف من الكفاية فلما صرت الى تفريق اجزائه على الأعضاء والى التوفير عليها من وظيفة الماء وجدت في الاعضاء فضلاً على الماء فعلمت ان لو كنت مكنت الاقتصاد في اوائله ورغبت عن التهاون به في ابتدائه لخرج اوله على كفاية آخره ولكان نصيب العضو الاول كنصيب الآخر · فعبتموني بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه وقد قال الحسن : وذكر السرف : انه ليكون في الماء و تين الماء والكلاء فلم يرض بذلك الماء حتى اردفه بالكلاء » ·

و بذلك رأينا انه بسط قاعدته في البخل بسطاً بديعاً وبدأها بما وقع له في الماء ثم ثنى في الجملة التالية بما يأتيه من الاحتياط في حفظ الفاكهة والمأكولات محاولاً إقناع مخاطبيه بان الناس طبقات وليس من الانصاف ان يأكل السيد كالمولى فان إطعام الموالي والعبيد اطعمة او ثماراً لذيذة قد يمكنهم الاستغناء عنها ولكن ساداتهم لا يصبرون عليها اذا انقطعت عنهم بسبب إسرافهم واشار الى نهم الاولاد وسوء ادارة النساء الى ان قال :

« وعبتموني حين ختمت على سل عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ومن رطبة غريبة على عبد نهم وصبي جشم وأمة لكعاء وزوجة خرقاء وليس من اصل الادب ولا في ترتيب الحكم ولا في عادات القادة ولا في تدبير السادة — ان يستوي في نفيس المأكول وغريب المشروب وثمين الملبوس وخطير المركوب والناعم من كل فن واللباب من كل شكل — التابع والمتبوع والسيد والمسود كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ومواقع اسمائهم في العنوانات وما يستقبلون به من التحيات · وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ولا يكترثون له اكتراث العارف ومن شاء اطعم كلبه الدجاج المسمن وعلف حماره السمسم المقشر · فعبتموني بالختم وقد ختم بعض الائمة على مزود

سويق وختم على كيس فارغ . وقال : طينة خير من ظنة فأمسكتم عمن ختم على لا شيء وعبتم من ختم على شيء » .

ثم تحول في كلامه الى ذكر امور جوهرية في الحياة ، ذات شأن خطير في تدبير المنزل ، كالطعام واللباس مستشهداً على صحة قضيته بهدي الرسول ، وايراد أمثلة ممن يقتدى بهم في هذا الباب من الناس . فقال :

« وعبتموني حين قلت للغلام ، اذا زدت في المرق فزد في الانضاج ، لتجمع بين التأدم باللحم والمرق ، ولتجمع مع الارتفاق بالمرق الطيب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : (اذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء ، فان لم يصب احدكم لحماً اصاب مرقاً) » .

وعبتموني بخصف النعل (خرزها) ، وبتصدير القميص ، وحين زعمت ان المخصوفة ابقى واوطأ واوقى وانفى للكبر واشبه بالنسك وان الترقيع من الحزم والتفريق من التضييع والاجتماع مع الحفظ . وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ويرقع ثوبه ويلطع اصبعه ويقول : لو دعيت الى كراع لأجبت ولو أهدي الي كراع او ذراع لقبلت . ولقد لفقت سعدى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش وهو طلحة الفياض . وكان في ثوب عمر رقاع أدم . وقال : من لم يستح من الحلال خفت مؤنته وقل كبره . وقالوا : لا جديد لمن لا يلبس الخلق .

« وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدثاً واشترط على الرائد ان يكون عاقلاً مسدداً . فأتاه به موافقاً فقال : أكنت ذا معرفة به قال : لا ولا رأيته قبل ساعته . قال : افناقلته الكلام وفاتحته الامور قبل ان توصله الي قال : لا قال : فلم اخترته على جميع من رأيته قال : يومنا يوم قائظ ولم ازل اتعرف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم ورأيت ثياب الناس جدداً وثيابه لبساً فظننت به الحزم . وقد علمنا ان الجديد في موضعه دون الخلق . وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدراً وبوأ له موضعاً كما جعل لكل دهر رجالاً ولكل مقام مقالاً وقد احيى بالسم وامات بالغذاء واغص بالماء وقتل بالدواء . فترقيع الثوب يجمع مع الاصلاح التواضع وخلاف ذلك يجمع مع الاسراف التكبر . وقد زعموا ان الاصلاح احد الكسبين كما زعموا ان قلة العيال احد اليسارين . وقد جبر الأحنف يد عنز وامر

بذلك النعمان وقال عمر : من اكل بيضة فقد اكل دجاجة . وقال رجل لبعض السادة : أهدي اليك دجاجة وقال : ان كان لابد فاجعلها بياضة . وعد ابوالدرداء العراق (بقايا الحمض) "جزر البهيمة " .

صفحة جميلة من تدبير المعاش والاقتصاد اراد بها تعليم المنتقصين له درساً نافعاً في الترتيب والنظام والقى عليهم مثلاً حسناً لا يسع حتى المسرف ان ينقضه وقد شفع كلامه بامثلة ليس في مقدور احد انكارها ولا تبلغ به الحال مهما بلغ من السرف والترف ان يقول ان من ذكرهم ليسوا قدوة صالحة . وبعد ذلك التفت التفاتة أخرى ، وبين لخصومه فضيلة الامساك في المال والحرص عليه لما يجلب الاستهتار من العوز فقال :

« وعبتموني حين قلت : لا يغترن احد بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه ووهن قوته ان يري أكرومته ولا يخرجه ذلك الى اخراج ماله من يديه وتحويله الى ملك غيره والى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه فلعله ان يكون معمراً وهو لا يدري وممدوداً له في السن وهو لا يشعر ولعله ان يرزق الولد على اليأس ويحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال ولا تدركه العقول فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى الى من لا يرحمه اضعف ما كان من الطلب واقبح ما يكون به الكسب . فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص : إعمل لدنياك عمل من يعيش ابداً واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً .

« وعبتموني حين زعمت ان التبذير الى مال القمار ومال الميراث والى مال الالتقاط وحباء الملوك اسرع وان الحفظ الى المال المكتسب والغنى المجتلب والى ما يُعرض فيه لذهاب الدين واهتضام العرض ، ونصب البدن واهتمام القلب اسرع وان من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله ومن لم يحسب الدخل فقد اضاع الاصل وان من لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر وطاب نفساً بالذل . وعبتموني بان زعمت ان كسب الحلال مضمّن بالانفاق في الحلال وان الخبيث ينزع الى الخبيث وان الطيب يدعو الى الطيب وان الانفاق في الهوى حجاب دون الحقوق وان الانفاق في الحقوق حجاز دون الهوى فعبتم عليّ هذا القول وقد قال معاوية : لم ارَ

تبذيراً قط الا والى جانبه حق مضيّع . وقد قال الحسن : اذا اردتم ان تعرفوا من اين اصاب الرجل ماله فانظروا في اي شيء ينفقه فان الخبيث انما ينفق في السرف .

« وقلت لكم بالشفقة عليكم و بحسن النظر مني لكم و بحفظكم لآبائكم ولما يجب في جواركم وفي مماالحتكم وملابستكم وانتم في دار الآفات والجوائح غير مأمونات ، فان احاطت بمال احدكم جائحة لم يرجع الى بقية فاحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة ، فان البلية لا تجري في الجميع الا مع موت الجميع . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة وفي ملك الشاة والبعير وفي الشيء الحقير اليسير : فرقوا بين المنايا . واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون باموالكم قال : نفرقها في السفن فان عطب بعض سلم بعض ولولا ان السلامة أكثر لما حملنا اموالنا في البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء وهي صناع (حاذقة) . »

وبعد هذا الكلام الممتع مثّل سهل صورة جديدة في الاخلاق العارضة على من استغنى وحذر من الوقوع فيها لئلا تؤدي الى الفقر وهو أبشع ضروب المظاهر وبين العلة في قوله ان المال مقدم على العلم لان بالمال يكتسب العلم ويعرف قدر العلم فقال :

« وقلت لكم عند إشفاقي عليكم ان للغنى سكراً وان للمال لنزوة فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة ليس احد أقصر عقلاً من غني أمِنَ الفقر وسكر الغنى أشد من سكر الخمر . وقلتم قد لزم الحث على الحقوق والتزهيد في الفضول حتى صار يستعمل ذلك في اشعاره بعد رسائله وفي خطبه بعد سائر كلامه فمن ذلك قوله في يحيى بن خالد :

عدو تلاد المال فيما ينوبه   منوع اذا ما منعه كان احزما

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد :

وخليقتان تقى وفضل تحرم   وإهانة في حقه للمال

« وعبتموني حين زعمت اني أقدم المال على العلم لان المال به يغاث العالم وبه تقوم النفوس قبل ان تعرف فضيلة العلم وان الاصل أحق بالتفضيل من الفرع واني قلت وان كنا نستبين الامور بالنفوس فانا بالكفاية نستبين وبالخلة نعمى وقلتم كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ومقدم الادباء العلماء أفضل ام الاغنياء ؟ قال بل

العلماء. قيل فما بال العلماء يأتون ابواب الاغنياء اكثر مما يأتي الاغنياء ابواب العلماء قال لمعرفة العلماء بفضل الغنى وجهل الاغنياء بفضل العلم · فقلت حالها هي القاضية بينهما وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع اليه وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض ·

« وعبتموني حين قلت ان فضل الغنى على القوت انما هو كفضل الآلة تكون في الدار ان احتيج اليها استعملت وان استغني عنها كانت عدة · وقد قال الحصين بن المنذر وددت ان لي مثل أحد ذهباً لا انتفع منه بشيء قيل فما ينفعك من ذلك قال لكثرة من يخدمني عليه · وقال ايضاً عليك بطلب الغنى فلو لم يكن لك فيه الا انه عزّ في قلبك وشبهة في قلب غيرك لكان الحظ فيه جسيماً والنفع به عظيماً ·

وختم كتابه في انه لن يبدل من خلقه في الشح وفي الدعوة الى تزيينه للناس وأورد جملاً لجماعة من المشهورين بالعقل وذكَّر جماعته في ختام حديثه بما يجب عليهم قبل ان يذكروا ما لهم وذلك بقوله :

« ولسنا ندع سيرة الانبياء وتعليم الخلفاء وتأديب الحكماء لاصحاب الاهواء · كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الاغنياء باتخاذ الغنم والفقراء باتخاذ الدجاج · وقال درهمك لمعاشك ودينك لمعادك فقسموا الامور كلها على الدين والدنيا ثم اجعلوا احد قسمي الجميع الدرهم · وقال ابو بكر الصديق رحمه الله اني لأبغض اهل البيت ينفقون رزق الايام في اليوم الواحد · وكانوا يبغضون اهل البيت اللحمين (Les carnivores) (الذين يكثرون اكل اللحم) · وكان هشام يقول ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً · ونهى ابو الاسود الدؤلي وكان حكيماً اديباً وداهياً اريباً عن جود كم هذا المولّد وعن كرمكم هذا المستحدث فقال لابنه اذا بسط الله لك في الرزق فابسط واذا قبض فاقبض ولا تجاود الله فان الله أجود منك · وقال درهم من حلّ يخرج في حق خير من عشرة آلاف قبضاً · وتلقّط عرّزنداً [1] من ترتيم فقال تضيعون مثل هذا وهو قوت امرىء مسلم

(١) لعل العبارة محرفة ولعلها « عرماً من ترتم » العَرْمُ بقية القدر والترتم كقنفذ ما فضل من الطعام والإدام في الاناء والقصعة اوما نسميه باللغة الشامية القحاطة ·

يوماً الى الليل . وتلقط ابوالدرداء حبات حنطة فنهاه بعض المسرفين فقال (إيه ابن العبسية ان مرفقة المرء رفقه في معيشته).

فلستم عليّ تردين ولا رأيي تفندين. فقدموا النظر قبل العزم وتذكروا ماعليكم قبل ان تذكروا مالكم والسلام اه » .

« خاتمة » == وبعد فهذه صفات سهل بن هرون وهذا انشاؤه ونثره بل هذا فكره وعقله وما أوردنا الا مثالاً ضئيلاً مما كتب ووصل الينا وقدانق عليه بعداحد عشر قرناً فتعرفنا على الجملة طريقته وحقيقته وكان علينا ان ننسج على غراره في بيانه ونعلم كيف يبالغ في انتقاء ألفاظه حتى لا يتخير منها الوحشي النافر ولاالمكرر الساقط بتنوق كرائمها و يسلكها في سلكه و يرصعها في عقوده و يلبسها حلة من حلل قلبه فتجيء جزالة من دون تعمد وسلاسة من غير ما تبذل ونمطاً عالياً من السهل الممتنع يتدفق حكمة و يسيل بياناً تتناوله الأذهان وتتشربه الانفس عفواً صفواً فاذا أراد المقلد ان يحذو حذوه فهناك تفاضل العقول والقرائح - سهل بن هرون احد افراد قلائل زانوا بما صاغوا من الكلم الطيب تاريخ أدب العرب واختطوا لمن بعدهم خطط التفكير والتصوير على النمط الفارسي العربي وكلامه في بابه لباب البلاغة ومثال الفصاحة لاتبلى جدته على وجه الايام ولا يحتاج في الحكم عليه الى محكمة نقض وإبرام .

طرابلس وآثارها(١)

طرابلس ولا ازيدكم علماً لفظة محرفة عن (Tripolis) اليونانية ومعناها المدن الثلاث . وقد أطلقها المكدونيون الذين قادهم الاسكندر الكبير الى سورية على بلدة مثلثة . فعرفت بها من يومئذ . اما اسمها الفينيقي الذي وسمت به قبل اليونان فمجهول . لان التاريخ لم يبح به . ولا غرو فان التاريخ عودنا الصمت في مواضع شتى فكاد الدهر يطمس على كثير من الحقائق لولا ان الآثار والرقم (Les Inscriptions) لساناً صيره العلم بليغاً . فهل يرجى الآثار السورية ان تظهر للملا مكنوناتها كما أظهرت بلاد النهرين .

ومن الغني عن البيان ان آثار بين النهرين قد جلت شيئاً عن أحوال سورية في بعض ازمنتها . فان كان القدماء من سكان سورية على شيء من مماثلة الكلدان والاشوريين والبابليين وغيرهم من اهل بين النهرين او وادي النيل في عاداتهم اذن لاستبشرنا الآن في طيات تربتنا الملأى بالخرائب والانقاض الشيء الكثير من تاريخ البلاد . على ان الفاتحين لم يقصدوا بكتاباتهم على الحجر او الآجر او الهياكل الا تخليد أعمالهم والمفاخرة ببطشهم فظهرت الرقم لعهدنا هذا مملوءة بالفوائد . ولذلك لسنا نعلق آمالاً كباراً على وجود رقم ذات شأن لانه لم يقم في سورية دولة غازية .

ومما يؤخذ من قول الفاتح الاشوري اسورناتسربال في الفقرات ٨٤ و٨٥ و٨٦ مانصه : يومئذ احتللت منحدرات لبنان ونزلت الى بحر فينيقية الكبير وهنالك عند البحر علقت سلاحي وقدمت الذبائح للأرباب (واخذت) الجزية من ملوك ساحل البحر الصوريين والصيدونيين والجبليين والمحالاتيين والمايزيين والكايزيين الفينيقيين واهل ارواد الخ . ولتجدن مترجم هذا الرقيم العلامة سايس الانكليزي ينقل عن العلامة ديالترش الالماني انه يحسب المدن الثلاث محالات ومايز وكايز هن التي تألفت من اجتماعهن مدينة طرابلس .

(١) مقالة للاستاذ المؤرخ السيد جرجي يني احد أعضاء المجمع تليت على أعضاء المجمع بدمشق بمناسبة قبوله عضواً فيه سنة ١٩٢٢ م .

وكأني بدالترش يحسب الفاتح قد اخترق لبنان عرضاً فنزل في موضع طرابلس او على مقربة منها · وان فيها اقتبل وفود الفينيقيين الذين جاؤه لعرض الطاعة واذ ذكرهم ابتداء بسرد اسمائهم من الجنوب حتى انتهى الى الشمال · واذ ذكر المدن الثلاث بين جبيل وارواد خيل للعلامة انها طرابلس ·

ولكن هذه الرواية على علو سندها لا تدعم الا الظن بان البقعة التي قامت فيها طرابلس لم تكن في الزمن الفينيقي بلقعاً بل مأهولة بفريق منهم · وهذا ما ذهب اليه العلامة رولنسون وهو الثقة الذي لا ينازع في التاريخ ·

والمعروف من صفات الفينيقيين وأخلاقهم وعاداتهم انهم يسكنون المدن قرب البحر يحملنا على قبول رأي دالترش بانهم سكنوا ثلاث مدن هي محالات ونايز وكايز ·

وان صح ذلك وجدنا سبيلاً لقبول رواية مؤرخي اليونان وفي صدرهم ديودورس ومؤدى الرواية ان الفينيقيين وان كانوا أمة واحدة فانهم لم يجتمعوا على ولاء دولة واحدة منهم · بل كانوا دولاً شتى تستقل كل منها في شؤونها الداخلية · واشهرهن صور وصيدا وأرواد · الا انهن كن يجتمعن في الأزمات و يتألفن حلفاً لدفع الطوارئ · وان هذا أفضى بهن لعقد ديوان عام يتولى النظر والتدبير وانهن اخترن موقعاً متحايداً وان حب الاستقلال الداخلي دفع كلاً منهن الى الاحتفاظ بشأنها فبنى نواب كل من الدول الثلاث حياً مخصوصاً لسكناه يبعد عن مثيله نحو ستاديا وأقام المئة نائب عن كل من المدن الثلاث بنسائهم واولادهم وخدامهم في الحي المنسوب اليهم تسودهم شرائعهم وأحكامهم ·

فما أدرانا ان كل فئة من اولئك النواب اختارت لسكناها حياً او بليدة من المدن التي ذكرها اسورناتسربال حتى اذا جاء اليونان رأوا المدينة مثلثة فسموها المدن الثلاث :

ثم كرت الايام وتوالت الحروب والزلازل فلم تبق للمدينة المثلثة من أثر · ولذلك اختلف الرواة في مواقعها فقالوا — وقد تابعتهم اونقلت عنهم ماقالوا في تاريخ سورية المطبوع — ان احد الاحياء كان في السرفتانية والثاني في موقع البلدة اوفي الخصاص والثالث في موضع الميناء · اما الآن فاني أنبذ القول بذلك لان البعد بين الأحياء هو

ستاديا واحدة كما قال سترابو والستاديا ٦٠٦ من الاقدام الانكليزية وبعض أجزاء القدم والحال ان المسافة بين المواقع المذكورة لاتنقص عن ميلين خطاً مستقيماً . وان موقع البلدة الحالي لم يكن عامراً قبل الزمن الصليبي . وان الفينيقيين كانوا بحارة وتجاراً فلا يرتاحون للسكنى بعيداً عن البحر . ولهذا كله ارجح الظن بان الاحياء الثلاثة كانت على سيف البحر ممتدة من موقع الميناء الحالي حتى البحصاص او ما يدنو منه .

مضى ذلك الزمن الفينيقي ولم يخلف لنا اثراً . وأعقبه الزمن السلوقي ولم تذكر فيه طرابلس الا قليلاً . على ان علم السكة المضروبة (Numismatique) يدل على ان في أخريات ذلك العهد تراخت قبضة السلوقيين فكان في طرابلس طاغيتها المستبد .

وكان بنو فيطور من بني اسماعيل قد دخلوا سورية وألفوا دولة عربية في جهات الجيدور وحوران ورسخت أقدام اصحابها ولكنهم مع عروبتهم اكتسبوا من مجاوريهم في سورية وفلسطين ظواهر الحضارة اليونانيــة وانتحلوا الاسماء اليونانيــة حتى اوشك الانتحال ان يطمس على أصلهم .

فهذه الدولة المعروفة بالايطورية تقدمت الى البقاع فامتلكت شالسيس (عين جر) واتخذتها عاصمة ثم علت قنن لبنان وانحدرت منها الى ساحل البحر فامتلكت طرابلس وجعلتها عاصمتها الثانية .

ومع اننا لا نجد لتلك الايام أثراً فان في جوارنا من أعالي لبنان قرية يقال لها ايطو تقع على طريق الانحدار من الجبل الى السهل فلعلها تخلد باسمها ذلك العهد .

وعندما فتح الرومانيون سورية وجدوا الطاغية الأخير من الايطوريين في طرابلس وله في جوارها حتى البترون معاقل وحصون فغلبوه عليها ودكوها .

وجاء بعد ذلك الزمنان الروماني والبزنطي وليس لطرابلس فيهما ما يذكر ومثلهما كان العهد الاسلامي الاول . ولم تخلف تلك الايام لنا أثراً لانها طمست على الماضي ولم تبق لنا من المدن الثلاث الا بلدة واحدة هي القائمة في موقع الميناء .

ومما يروى ان طرابلس أدركت في القرن الحادي عشر مقاماً مذكوراً . وذلك انها تقدمت في تجارتها وصناعتها وعلومها وآدابها . حتى وجد الصليبيون فيها اربعة

آلاف نول ودار علم فخمة ومكتبة عامرة بالوف الكتب التي كان قد جمعها صاحبها القاضي ابو الحسن بن عمار ·

فلما جاء الصليبيون ونزلوا على عرقا وهي لصاحب طرابلس فخر الملك محمد بن عمار بعث هذا فاسترضى الغزاة وفسح لهم ان يتجاوزوا الموضعين من غير ان يسوهما بضر ·

ولكن ما تم ان ظفر الصليبيون بفتح القدس وهي ضالتهم المنشودة فرجع منهم فريق بزعامة ريمون دوسان جيل كونت دو طولوز المعروف في تواريخ العرب باسم صنجيل ·

فنزل على ما يظهر حوالى موقع القلعة بدليل ان الافرنج أطلقوا على الهضبة اسم تل الغرباء او الحجاج (Des pèlerins) كما كانوا يسمون انفسهم · واظنهم اختاروا هذا المنزل لبعده عن البلدة نحو ميلين ولقربه من نهر ابي علي (قاديشا) ولاشرافه على السهل الموصل الى المدينة · اما السهل فكان يزرع و يدرّ على اصحابه ريعاً وافراً ·

وقد أثر البحاثة الالماني روهخت عن الراهب اكاهارد قوله ان ريمون هاجم البلدة سنة ٤٩٣ ﻫ فلم ينل منهـا أرباً غير ان المؤرخين لم يذكروا تلك الهجمة بل ذكروا انه لما ظفر ريمون بجناح الدولة صاحب حمص سنة ٤٩٥ خطر على باله ان يحصر طرابلس ثم اكتفى باخذ الجزية ·

فريمون لم ينزل جوار طرابلس و يقضي السنين الطوال وهو يأوي مع رجاله الى الخيام بل في اثناء الفترة بنى له حصناً يسمى حصن صنجيل وشاد من حول الحصن على منحدر الهضبة بيوتاً لأصحابه ·

وفي تلك السنة أنجدت دمشق طرابلس فتشدد ابن عمار ورد عنه هجوم ريمون · فسكن هذا عن الهجوم ولكنه أفرط في اعنات البلد ثم استعان بسفائن جنوة وحصرها براً و بحراً من غير ان ينال أرباً لان الامراء الوطنيين كانوا يرسلون النجدات للبلد · واولئك ينضمون الى الحماة و يدافعون عن طرابلس بملء الحمية ·

وفي ذات مرة خرج ابن عمار برجاله وبيّت الافرنج في منازلهم وأضرم النار في الحصن فأحرقه غير ان الفرنج هبوا للدفاع فاسترجعوا مواقفهم وردوا الطرابلسيين على أعقابهم · وكان ريمون قد صعد الى سطح حصنه ليشرف على القتال غير مبالٍ بالنار

المستعرة فسقط السقف ووقع الامير ثم مات متأثراً . وكان ابنه غائباً في فرنسا فتولى ابن اخيه الإمرة .

اما الحصن المحروق فقد زعم بعض الآثاريين انه ذهب في الغابرين كما ذهب بانيه . ولكن الحقيقة التي تدل عليها التواريخ وتؤيدها المشاهدة انالافرنج بنوا القلعة على أطلال الحصن المحروق . وان الجدران التي تنم عن غير البناء الصلبي انما شيدت ترميماً لما تداعى من الاصل . كما يتضح ذلك لمن يرى اركان البناء الداخلي ولمن ينظر الى السكة الطرابلسية وقد رسمت عليها القلعة بتمامها . وعندي منها قطعة مضروبة على عهد الأمير بونط .

فالقلعة بناء صلبي الاصل ولكنها ترممت مراراً جمة بعد خروج الصليبيين وظل حماتها يصلحون فاسدها حتى زماننا فلا غرو ان يطمس الترميم على الاصل حتى كاد يغلب عليه . بل أفضى الى قول بعض الناظرين اليها نظراً سطحياً انها من بناء غير الصليبيين . ولتجدن البيوت التي بناها الفرنج تحت كنف القلعة ما زالت ماثلة ولئن طرأ على بعضها الترميم والتبديل . ولهذا نحسب المباني القديمة اذا عرضت لفحص الآثاريين تظهر شأنها . ولا يمكن للدور المشيدة على منحدر الهضبة وفي السويقة وسوق حراج وأمثالها إلا ان تظهر للباحث تاريخها القديم . لا سيما تلك التي رسمت على أبوابها بعض شعائر المسيحية وما برحت آثارها بادية .

ومما روى علماء الآثار أخذاً عن مؤرخي العهد الصلبي ان طرابلس كانت تحوي كثيراً من الكنائس والاديار والملاجئ والمستشفيات . وقد حاول بعضهم تحقيق مواقعها ولكني لا احسب ذلك مستطاعاً لخلو الوطاب من سند صحيح وانه ليظل مجهولاً حتى تقوم على كشفه بعثة علمية صالحة للعمل .

اما جسر السويقة فوق نهر ابي علي فالظاهر انه من بناء الصليبيين ايضاً . غير اني لا اعني ان الجسر الحجري القائم اليوم هو هو المبني منذ ثمانمائة سنة بل انه شيد هنالك جسر ورد اسمه جسر الحجاج نسبة للهضبة التي شيدت القلعة عليها .

اما الماء الجاري الى طرابلس فله تاريخه الخاص . اذ لا يعقل انالمدن الثلاث تبنى بعيدة عن الماء المشروب . فالنهر بعيد عن مواقع المدن وجدول البحصاص

لا يجري الا زمن الشتاء . فالضرورة تقضي بجر الماء في القني . وآثار تلك القني وجدت منذ عشرات السنين قرب الميناء فحسبها الناس كانت لجر ماء النهر . ثم ظهرت قني أخرى عند قرية مجدليا فدلت على ان طرابلس القديمة كانت تستقي ماءها من الضنية .

وربما اعتاض الاهلون ولاسيما في الميناء بحفر الآبار والصهاريج اما في البلدة التي عمرها الصليبيون فان في جوار النهر لهم غنى . وكأني بهم شعروا بعد حين بالحاجة الى ماء أصح من ماء النهر وانقى . فجروه من نبع رشعين (رأس العين) وانا ولئن عرفنا ان جر الماء عمل صليبي فالحديث المنقول بالتسلسل لا يكفي . انما يدلنا على صدقه ان القناة تمر على قناطر شيدت فوق نهر ابي علي إسمها قناطر البرنس . والبرنس كلمة افرنجية ومع ذلك ما برحت على ألسنة الناس .

لكن من هو البرنس ؟ نجيب ان الامراء الذين سادوا في طرابلس وما اليها (من حد بلاد المرقب حتى المعاملتين قرب جونيه) كان واحدهم يلقب كونت وتسمى امارتهم كونتيه . فحدث ان اولئك الكونتات أصهروا الى امراء انطاكية الذين يلقبون بالبرنس .

وفي سنة ١١٨٩ توفي كونت طرابلس فاستولى برنس انطاكية صهره على بلاده وجعل ابنه كونتاً عليها . فظل يحكمها الى سنة ١٢٠١ حين توفي ابوه البرنس وانتهت إمارة انطاكية للابن الكونت فصار برنساً وهو بيوموند الرابع صاحب طرابلس . الذي جمع بين الإمارتين وآثر لقب برنس فيهما جميعاً . وظل على إمارته حتى مات سنة ١٢٤٣ فخلفه ابنه ثم أحفاده ولكن آجال إمارتهم كانت قصيرة وايامهم لم يغلب فيها الصفو والهناء . ولذلك نرجح ان بيوموند الرابع هو الشارع في جر الماء وبناء القناطر . الا ان الماء المذكور على ما قال النويري توزع في أرجاء طرابلس ودخل بيوتها على عهد سيف الدين بلبان الطباخي نائب الفتوحات اي بعدما استرجع المسلمون البلد .

واني لأخشى ان يكون المؤرخ من الناسجين على منوال سائر مؤرخي تلك العصور في إلقائه الكلام من غير تثبت وتحقيق وانما ابتغاء اظهار فضل قومه . ولا أقول هذا الا لاني قرأت له رواية تخالف شهادة الآثار البادية للعيان فقد قال عن الميناء بعد فتحها وهدمت المدينة ... ثم عمر المسلمون مدينة مجاورة للنهر واختلفوا فيها (اليها)

وعمروا فيها حمامات وقياسر ومساجد ومدارس للعلم الخ · وكلامه هذا يدل على ان المدينة الحاضرة كلها من بناء المسلمين مع ان آثار الهندسة الفرنجية ظاهرة في كثير من مبانيها · فتجد البجانة سو برنهام بوثر عن برشم قوله ان طرابلس ما برحت محافظة على شكل مدينة من مدن العهد الصليبي لما فيها من الأقواس (القناطر) التي تجعل الأزقة كالأقبية · وثمة ثلاثة قناطر غططية (gothique) ربما كان شكلها مأخوذاً عن المباني المسيحية القديمة · فاحداها قنطرة الباب في حمام عز الدين الذي بناه عز الدين ايبك والثانية على باب الجامع الكبير وهي ممتازة بكمالها في شكلها والثالثة على باب البلدية · وهنالك ايضاً قنطرة على الطرز البزنطي قائمة فوق مدخل من أبواب الجامع الكبير الخ ·

اما الميناء فان الدهر قد طمس على آثار الصليبيين فيها لان الفاتحين دكوها الى الارض لكن بقي عند طرفها الجنوبي على طريق فوق الريح قطعة من السور العتيق تنم عن الحد الذي بلغته البلدة يومئذٍ · اما الابراج القائمة على سيف البحر فقد كانت عدتها سبعاً بدليل قول الشاعر: (وابراجها عدّ الكواكب سبعة) الخ ·

وان البرج الواقع قرب مصب النهر يسميه العامة برج السبيع وليس برج السباع كما ترجمه بعض الفرنج الى لغاتهم ·

ويغلب على الظن ان هذه الابراج لم تكن من بناء الفرنج بل من بناء المسلمين بعد الصليبيين · لان شكل البناء ليس بافرنجي · ولان طرابلس في الزمن الصليبي لم تكن تخشى غزاة البحر وانما صارت تحاذرهم لما استفحل امر القرصان ولا سيما من اهل قبرس وفيها مقر الملوك من آل لوزنيان الذين كانت لهم مملكة القدس بالاسم ·

والنهر الجاري في طرابلس يعرف عند منبعه حتى اليوم بنهرقاديشا اي المقدسين ويجري فتضاف اليه بعض الجداول وقد ذكره الشيخ عبد الغني النابلسي في رحلته الطرابلسية باسم الغضوب او الغضبان إشارة الى شدة حمولته ويعرف الآن باسم نهر ابي عليّ · ولا ندري كيف اطلق عليه هذا الاسم ولكن قد يمكن ان يكون وضع له اشارة الى الغلظة والشدة لان في الاحاديث الموضعية حكاية يتوارثها الابناء عن الآباء انه كان في البيمارستان القائم قرب جسر السويقة عريف شديد الغلظة اسمه

ابو علي · وقد درج على ألسنة الناس قولان كادا يذهبان مثلين احدهما اذا عُيّر انسان بالغلطة يكنى بابيعلي فيحسبها المكنى سبة ، وثانيهما قولهم ابو علي ثقل حديده كناية عن استفحال جنون المحكى عنه · ولعل تسمية النهر مستفادة من ذلك ·

وللاسماء شأن خطير في الدلالة على الاصل · فالهضبة التي بنيت القلعة عليها لم تبق موسومة بهضبة الغرباء اوالحجاج كما سماها الصليبيون انما تعرف البقعة الواقعة في قنتها بمار يوحنا والارجح انها اكتسبت هذا الاسم من مستشفى القديس يوحنا الذي كان على الهضبة على ما يؤخذ من كلام العلامة راي ·

وفي جوار طرابلس عند طرف البحصاص الجنوبي موضع يقال له ابوحلقة وهذا الاسم كان حيرة بعض المؤرخين من قومنا وانما حاروا لانهم لم يفهموا المعنى فكان قوم يقولون الحلفة الطرابلسية بالفاء او بالقاف ناقلين ما قيل عن حوادثها في بعض التواريخ القديمة من غير تحقيق عن اصلها ·

انما الحلقة عند سلاطين مصر من المماليك عبارة عن الجند المرابط · ومتى عرف هذا الاسم اتضحت روايات غم فهمها ·

والمكان الذي قرب طرابلس واقع على سيف البحر وفيه الطريق اليها فليس بعيداً ان يكون ولاة الامر في ذلك الحين قد جعلوا على الطريق العام مخفراً او مقراً لرجال من الحلقة الطرابلسية وكرت الايام فسماه الناس ابا حلقة ·

فيا سادتي الاعلام : حسبي الآن ما ذكرت · لاني أخشى ان ازيدكم تطويلاً فأفضي بكم الى السآمة والضجر على ان في طرابلس آثاراً أخرى ما برحت ماثلة وقد سبق لي فأتيت على ذكر بعضها في مقالة عنوانها (آثار الاسلام في طرابلس الشام) نشرتها مجلة المباحث قبل الحرب فاذا لم تجدوا في تكرار التحدث عنها بأساً أعدت الكرة على كتابتها ·

والله المسؤول ان يأخذ بايديكم وان يزيدكم نشاطاً لاتمام عملكم المبرور و يثيبكم خيراً جز يلاً بمنه و كرمه ·

قانون البلاغة

« رسالة مخطوطة »

كنا ظفرنا بين الرسائل المخطوطة في دار الكتب بدمشق برسالة في فن البيان (عدد ٢٣ من قسم المعاني والبيان) وقد كتب على ظهر الرسالة ان مؤلفها هو (فخر الدين ابو طاهر محمد بن حيدر البغدادي) ولم نظفر باسم المؤلف في كتب التراجم لنعلم في اي عصر كان. ولما تصفحنا الرسالة وجدناها ذات قيمة أدبية من حيث أسلوبها وبلاغة عبارتها. نعم ان المباحث التي كتب فيها المؤلف هي في البيان والبديع وأنواعه ولم يجودها المؤلف كما جودها من اتى بعده من المؤلفين ولا سيما تجويد ابي الهلال العسكري في كتابه الصناعتين — لكن اطلاع علماء الأدب على هذا الكتاب يعيّ لهم مادة في موضوع الفن وتاريخه وتطوراته منذ اول عهده. ولذلك حرصنا على تصحيح نسختنا فوفقنا الى تصحيح كثير من أغلاطها. وقد أعيانا امر التصحيح في مواطن كثيرة. ثم أعلنا المرة بعد المرة: نسأل رجال الأدب والفضل عن هذه الرسالة ومؤلفها، ان كان لديهم خبر عنها فلم يلب احد طلبنا ولم يرشدنا الى مؤلف الرسالة في اي عصر كان، وراجعنا ايضاً فهارس المكاتب الكبرى في الشرق والغرب فلم نقع على ذكر لهذه الرسالة. وفي آخر الامر رأينا عجباً: رأينا العلامة شمس الدين سامي يذكر مؤلف الكتاب في كتابه التركي المسمى (قاموس الأعلام) وقد قال عن المؤلف ما ترجمته: « ابو طاهر محمد ابن حيدر كان من الشعراء وتوفي في سنة ٥١٧ هـ ومن جملة أشعاره هذه القطعة في وصف الخمرة.

(مرحباً بالتي بها قُتِل الهـ ـمّ وعاشت مكارم الاخلاق)
(وهي في رقة الصبابة والشو ق وفي قسوة الجفا والفراق)
(لست أدري أمن خدود الغواني عصروها ام من دم المشاق) »

هذا كل ما ذكره شمس الدين سامي عنه، ولم يتعرض لذكر مصنفاته ولا للفن الذي نطس فيه، ويظهر من شعره هذا انه متمكن من فنون الأدب العربي

وذو سليقة شعرية صحيحة . وقد عزمنا الآن على نشر الرسالة في مجلة المجمع مع العود الى العناية بتصحيح عبارتها والتعليق عليها ، ولا غرو اذا بقي فيها بعض الاغلاط فنحيل امر تصحيحها الى قراء مجلتنا الفضلاء فاذا اهتدى احدهم الى شيء من ذلك فليكتب الينا لنعلن تصحيحه بعد تمام طبع الرسالة وكذلك اذا اهتدى احد القراء الى شيء من خبر المؤلف او عرف لهذه الرسالة نسخة او نسخًا فليهدنا اليها لنقابل نسختنا عليها .

المجمع العلمي

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

« رب أنعمت فزد »

سألت أطال الله مدتك ، وأدام نعمتك ، وحرس دولتك ، عن البلاغة . والبلاغة ليست ألفاظاً فقط ، ولا معاني فحسب ، بل هي ألفاظ يعبر بها عن معان ، ولكن ليس كما اتفق ، ولا كيفما وقع ، لان ذلك لو جرى هذا المجرى ، لكان اكثر الناس بليغًا ، اذ كان اكثرهم يؤدي عن المعاني التي يؤدّيها بألفاظ تدل عليها ، لكنهم يخرجون عن طريق البلاغة ، ومنهاج الكتابة من وجهين ، احدهما ان تكون الألفاظ مستكرهة مستوخمة ، غير مرصوفة ولا منتظمة . والثاني ان تكون كثيرة يغني عنها بعضها ، ويمكن ان يعبر عن المعنى الدال عليها بأقل منها .

على انه ذهب قوم الى ان لتكثر الألفاظ المرصوفة في بعض المواضع دخلاً في البلاغة ، وذلك اذا كان موضع يحتاج فيه الى الخطابة في العامة ، ومن لا يسبق خاطره الى تصور المعنى في اول وهلة ، اما لبعده عن الذكاء والفطنة ، او لأن الموقف حافل ، يكثر فيه اللغط والضجة ، فيحتاج الى إشباع المعنى وتوكيده وتكريره ، لمن لم يمكنه السبق الى تحصيله ، الا بالالفاظ المترادفة . وهي التي يدل الكثير منها على معنى واحد بعينه ، مثل ان يقال في وصف السيف : الحسام الباتر ، الجراز القاطع . وفي وصف الشجاع : البطل الفاتك ، النجد الباسل . وفي وصف

الجواد : الخِرق[١] الباذل ، الجم النائل ، الكثير الفواضل ، الغزير النوافل ، وفي سائر الأوصاف على ذلك ·

وهذا يقع في باب المكاتبات بالفتوح والعهود ، والصكوك والعقود ، وما جرى هذا المجرى · ولهذا السبب قال بعضهم في وصف كاتب بليغ : ان اخذ شبراً كفاه ، وان تناول طوماراً[٢] أملاه · يذهب بهذا القول الى ان البليغ يحتاج في موضع الى الإطالة والإسهاب ، كما يحتاج في آخر الى الاختصار والايجاز ، الا ان اكثر ما عليه الناس في البلاغة انها الاختصار ، وتقريب المعنى بالألفاظ القصار · حتى انه سُئل بعض الناس عن البلاغة فقال : هي لمحة دالة · وهذا مذهب العرب وعادتهم في العبارة ، فانهم يشيرون الى المعاني باوحى[٣] إشارة ، ويستحبون ان تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة ·

فأما ما يصلح للكتاب ، ويليق بذوي الالباب ، ان تكون ألفاظهم غير ناقصة عن المعاني ، ولا زائدة عليها · كما وصف بعض الكتاب واصف فقال : كأن ألفاظه قوالب لمعانيه · يريد انها مطابقة لها ، غير زائدة عليها ، ولا ناقصة عنها · وهذا المذهب هو الذي يجب ان يستعمله الكتاب ، اذا لم يكن موضع يحتاج فيه الى الاسهاب ·

فانه يحكى عن جعفر بن يحيى البرمكي وكان قريع دهره ، ووحيد عصره بلاغة في المكاتبة ، وجودة لسان في المخاطبة ، انه قال : اذا كان الايجاز كافياً ، كان التطويل عيّاً ، واذا كان التطويل واجباً ، كان التقصير عجزاً · وقال ابن الاعرابي : قال لي المفضل : قلت لاعرابي ما البلاغة فقال : الإيجاز من غير عجز ، والإطناب من غير خطل ·

و ينبغي ان تعلم ان البلاغة لما كانت احدى الصناعات ، كان لها ما لكل صناعة من المبادئ والموضوعات والأدوات ، وانه ليس واجباً على كل متعلم لصناعة ان ينظر في مبادئها وموضوعاتها ، ولا ان يعلم أدواتها ، وهذا عام لجميع الصناعات المهنة التي يباشرها

(١) الخرق (بكسر الخاء) كالخريق بمعنى السخي او الفتى الحسن الكريم الخليقة ·
(٢) الطومار الصحيفة المستطيلة تكتب وتطوى طيّاً اسطوانياً · (٣) أعجل وأسرع ·

الصانع باعضائه العقلية التي يستعمل فيها فكره ، فان في الصناعات المهنة الصياغة ، وموضوعها الذهب والفضة . وليس يجب ان يعلم مع تعلمها ، كيف يستخرج هذان الجوهران من معدنهما ، ولا ان ينظر في شيء من امرهما ، غير إقامة الصور فيهما . وكذلك لا يعلم ايضاً كيف يعمل شيء من آلا تعلم مثل المبرد والمطرقة والسندان وغيرها ، بل تؤخذ أخذاً مسلماً ، على ان عملها مفوض الى الحداد . وكذلك صناعة الطب فانها تنقسم جزئين علمي وعملي ، وكلا هذين الجزئين هذه حاله ، فانه ليس يتعلم « صنع [(١)] » المكوى ، ولا كيف يصنع المبضع ، ولا غيرهما من الآلات ، بل يتولى ذلك أهل صناعة أخرى . ولا في الجزء العلمي ايضاً يؤخذ في مبادئه ، بل يؤخذ اخذاً مسلماً فيه ، مثل انه ليس يُبحث عن الحرارة والبرودة لِمَ كانتا فاعلتين ، والرطوبة واليبوسة لِمَ صارا منفعلتين .

كذلك من أراد ان يتعلم البلاغة لم يلزمه مع تعلمها ان يتعلم أدواتها التي لا تتم الا بها ، ولا ان يبحث عن معانيها وموضوعاتها التي يحتاج الى ضرورة فيها ، كما لا يلزم غيرها من الصناعات التي ذكرنا . فانه لو لزمنا البحث عن موضوعات البلاغة ، وتعلم أدواتها لاحتجنا الى النظر [(٢)] في اللغة والنحو ، وتعلم القياس والجدال مع تعلمها ، فطال ذلك وأدخلنا في الصناعة ما ليس منها فنقول الآن .

انا لما قلنا فيما مضى من المقدمة عند تعريفنا ما البلاغة ، انها ليست الفاظاً مجردة ،

---

(١) الكلمات الموضوعة بين هلالين صغيرين هي من زياداتنا لفهم المعنى .

(٢) وجد في هامش الاصل ما يأتي : اقول هـذا موضع النظر لان النظر في اللغة واجب حتى يستعمل ما كان أدور « على اللسان » فيقع فصيحاً ، وكذلك النحو لانه لو أهمل امر النحو فلا يكون التركيب مستقيماً ، وكيف لا والبلاغة شرطها معرفة هذه الأحوال مع أشياء أخر » . وهامشة أخرى في المعنى ذاته : «انظر الى قوله لاحتجنا الى النظر فان فيه نظراً لانه يصرح بعد في بحث الاستعارة بقوله : ومن عيوبها ان تكون ملحونة خارجة على غير أسلوب الاعراب فكيف يكون عيباً وهو شرط عدم معرفته اللهم الا ان يريد بالاحتياج الاحتياج التام فتأمل اه .

ولا معاني قائمة في النفس مفردة ، بل أقوالاً يعبر بها عن المعاني — وجب ان يكون الاضطرار دائماً الى التوسع في اللغة التي مجراها مجرى الموضوع لصناعة البلاغة (لتعذر للبليغ[1] اللفظ ، و يحدث عند الحاجة) ما يستعمله في البيان عن المعاني ، على سبيل الناظم للجواهر المرصع بها ما يقصد الى ترصيعه ان يكون معه جميع أصنافها ، وكذلك سبيل البليغ في حاجته الى الألفاظ .

فاما المعاني فالاضطرار اليها في البلاغة أشد منه الى الألفاظ ، وذلك ان المعاني هي الأغراض المقصودة للعبارة بالألفاظ ، والألفاظ مرتبة في مراتبها[2] لان المعاني اربعة مراتب : احداها أعيان الامور ، وذوات الاشياء التي توجد تلك المعاني فيها ، ثم بعد هذه المرتبة المعقولة التي تقوّم معاني الموجودات في تصورها ، ثم الألفاظ التي تعبر عن تلك المعاني المتصورة في العقل بها ، ثم الحروف الموصوفة للخط الذي يكتب تلك الألفاظ بتأليفها .

فالبليغ الكامل هو الذي تكون الألفاظ عنده عتيدة غزيرة ، والمعاني في نفسه جمة كثيرة ، فانه مع ذلك يجيش بحره ، و يسهل الكلام والكتاب عليه .

والذي يجب على البليغ في استعمال الألفاظ ان تكون سمحة سهلة ، لها حلاوة وطلاوة ، وعليها رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة ، فلا يكون متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً عامياً ، ومن نعوتها تصير الاجزاء متناسبة الوضع ، متقاسمة[3] النظم ، متعادلة الوزن ، متوخى في كل جزئين منها ان تكون مقاطعها[4] على حرف واحد في التسجيع ، او حرفين متقاربي المخرجين من الفم ، فان انضاف الى ذلك ألفاظ الجزئين المتزاوجة مسجوعة كان أحسن ، مثل ما قال ابو علي البصير في بعض كلامه : حتى عاد تعريضك تصريحاً ، وتمريضك تصحيحاً ، فأتى بجزئين متقاربين ، متوازيين ومسجوعين بالحرف نفسه ، وهو الحاء من غير استكراه ولا تعسف ومتزاوجي الألفاظ مسجوعيها حيث

(١) جعلنا العبارة التي تعذر ايرادها على وجه مفهوم صحيح بين هلالين كبيرين .
(٢) في الاصل المركب بدل المرتبة والمراكب بدل المراتب ولعل الصواب ما صححناه .
(٣) لعله متناسقة . (٤) خ مقطعاتها .

جعل بازاء التعريض من الجزء الاول التمريض من الجزء الثاني ، وذلك سجع بحرف الضاد و بازاء التصريح التصحيح بحرف الحاء ، فان لم تتوجه هذه المنزلة وهي أحسن المنازل فما دونها وهو السجع بالحرف نفسه فيما ضارعه وخرج قريباً من مخرجه كما كتب بعض الكتاب :

« اذا كنتَ لاتؤتى من نقص كرم ، وكنتُ لا أوتى من ضعف سبب ، فكيف أخاف منك خيبة أمل ، اوعدولاً عن اغتفار زلل ، اوفتوراً عن لمّ شعث واصلاح خلل » .

فوضع نقص بازاء ضعف ، وكرم بازاء سبب ، وعدول بازاء فتور ، مناسبة في وضع الالفاظ ، وموازنة بينها ، والا فقد كان يمكن ان يقال مثلاً : مكان نقص قلة ، ومكان سبب شكر ، ومكان فتور تقصير . فلم تكن الألفاظ حينئذٍ تتوازن ، وان لم يتسهل ايضاً ان يكون الجزآن متوازنين في القدر ، فليكن الجزء الأخير أطول ، فان تعدى حتى تكون الألفاظ مضرّسة [1] ، والأجزاء مجتمعة ، وأواخرها غير مسجوعة لابحرف واحد بعينه ، ولابحروف متضارعة ، فذلك خروج عن حد البلاغة .

ورأيت قوماً يذهبون الى كراهة [2] السجع والازدواج في الكلام ، من غير أن عرفت لهم في ذلك حجة ، فعلمت انهم ذموا مارامو‌ه فلم يصلوا اليه ، وتعاطوه فلم يقدروا عليه ، والا .فهذا القرآن وكلام الرسول وهما مسجوعان ، فاما الذي في القرآن فاكثر من ان يحاط ، اذ كان مبناه عليه . واما كلام الرسول فكقوله في عوذة سبطته : أعيذك من الهامة والسامة ، وكل عين لامة . ألا ترى انه في أصل اللغة ملمة ، فرام المقاربة فقال لامة : وقال: خير المال مُهْرة مأمورة [3] ، وسكة مأبورة . وهو في اصل اللغة

---

(١) هل يريد بأُترى بقوله المضرسة ماورد في اللغة من ان المضرّس نوع من الوشي فيه أشكال أضراس . (٢) في هامش الاصل : لعل قول من قال بكراهتها محمول على انه اذا كان لايحصلان الا بتكلف لامطلقاً فان علماء البيان قالوا : انما يقبل اذا كانت سجية . وحجة هذا انه بالتكلف يخرج عن السلاسة والفصاحة كما لا يخفى .
(٣) أمر الرجل كثرت ماشيته والاصل مؤمرة على مُفعلة ومعناها كثيرة النتاج والنسل .

مُؤْتَمِرة . فعدل عنها الى مأمورة وقال : ارجعن مأزورات[1] من الواو الى الهمزة ، لانه من الوزر كما كان مأجورات بالهمزة .

ومن نعوت الألفاظ الاشتقاق والمضارعة ، فالمشتق مثل ما قال خالد بن صفوان للعبدي : هشمتك هاشم ، وأمتك أمية ، وخزمتك مخزوم ، فأنت ابن عبد دارها ، ومنتهى عارها ، تفتح لها الأبواب اذا أقبلت ، وتغلقها اذا أدبرت .

فمثل هذا في الكلام الموزون ، بازاء هذا المنثور كثير ، و يسمى التجانس[2] . وقد شرحت حاله في كتاب الشعر .

فاما المضارعة : فكالذي جاء في الاثر إياكم والمشارة فانها تميت الغرة ، وتحيي العُرَّة . وكقول محبٍّ لمن قال : خصصتك ماخصصتني ، بل انما خسستني . وكقول الآخر عولت لدي على مالي وآمالي .

ومن نعوت الألفاظ التبديل[3] وهو ان يُقدم في الكلام جزء ألفاظه منظومة نظاماً تاماً ، فيجعل ما كان مقدماً في الاول ، متأخراً في الثاني ، مثل قول من قال : اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم على من شكرك . وكقول[4] الآخر : اسودٌ مني ما كنت أحب ان يبيضّ ، وابيضّ مني ما كنت أحب ان يسودّ ، واشتد مني ما كنت أحب ان يلين ، ولان مني ما كنت أحب ان يشتدّ » . وكقول الآخر : اللهم أغنني بالفقر اليك ، ولا تفقرني بالاستغناء عنك .

ومن نعوت الالفاظ الاستعارة وهي كقول القائل : مازال يفتل في الذروة والغارب[5]

---

(١) في الكلام نقص وهو ارجعن مأزورات غير مأجورات فعدل عن الواو الى الهمزة . (٢) يعني المجانسة كذا في هامش الأصل . (٣) و يسمى طرداً وعكساً — كذا في هامش الأصل . (٤) وهو قول معن في مسائله معاوية كذا في هامش الاصل .

(٥) ومن المجاز قولهم ما زال من فلان في الذروة والغارب اي يدور من وراء خديعته . قال الصغاني : الفتل فيه اي في المثل بفعله خاطم الصعب من الابل يختله بذلك فجعله مثلاً للمخادعة والازالة عن الرأي . والذروة أعلى الشيء والغارب ما بين سنام البعير وعنقه .

حتى لفته عن رأيه . وكقول الآخر : النبيذ قيد الحديث [١] وكقول الآخر : فلان أملس ، ليس فيه مستقر لخير ولا شر . وكقول الآخر : لا تخدش وجه رضاك بالتوبيخ [٢] . وفي نعت القلم لعبدالله بن المعتز : يخدم الارادة ، ولا يمل الاستزادة ، يسكت واقفاً ، وينطق سائراً ، على ارض بياضها [٣] مظلم ، وسوادها مضيء [٤] :

ومن عيوب الألفاظ ان تكون الحزونة جارية على غير الإعراب والسبيل المبني عليه الكلام ، ثم ان تكون بشعة مستوخمة ، مضادة لما تقدم من نعوتها ، ثم ان تكون ذات تعقيد . وفي وصية بشر بن المعتمر : إياك والتوعر ، فانه يستهلك معانيك ، ويمنعك من مراميك .

ومن عيوب الألفاظ التجميع ، وهو ان يكون مقطع الجزء الاول من الجزئين المتاليين على وزن ما ، فيؤتى بالتالي له على وزنه ، ومنافراً في النظم له . مثل قول حميد بن سعيد في اول كتاب من كتبه : فوصل به ما يستعبد الحر ، وان كان قديم العبودية ، ويستغرق الشكر ، وان كان سالف فضلك لم يبق شيئاً منه » . فالمقطع على العبودية منافر للمقطع على منه .

ومن عيوبه ان يؤتى بالجزء الاول طويلاً ، فيحتاج الى إطالة التالي له ضرورة ، فيصيره اما مثله في القدر ، اوزائداً عليه ، فيضطرب حينئذ ويظهر عليه سيماء التكلف .

ومن عيوبه التكرير وهو ان تعاد الكلمات أنفسها ، او حروف الصلات والرباطات وما جرى مجراها في المدة القريبة . فأما إعادة حروف الصلات والرباطات فمثل له وعليه او منه عليه او به له . فان فصل بين الحرفين بكلمة زال قبحه مثل ان يقال أقمت عليه شهداء به .

ومن عيوبه ان يركب من الوحشي المتروك استعماله ، الثقيل في السمع .

« للبحث صلة »

---

(١) لعل المعنى ان الحديث في مجلس النبيذ سر فكأن النبيذ قيده عن الافشاء .

(٢) في هامش الاصل والأحسن ان تقول لا تخدش وجه رضاك باظفار التوبيخ .

(٣) في هامش الاصل اي بسواد المداد . (٤) في الهامش اي ببياض المعاني .

قبة جامع القيروان الكبير وسقوفه

للسيد جورج مارسه (عضو المجمع العلمي العربي في دمشق) طبع في تونس وباريز ١٩٢٥ ص ٦٠ و٢٨ رسم و٣٣ لوحة مصورة :

Coupole et Plafonds de la Grande Mosquée de Kairouan par Georges Marçais, Tunis et Paris 1925

هذا التأليف هو بحث لسلسلة أبحاث تُعنى بنشرها ادارة الآثار القديمة والفنون الجميلة في تونس وهي ايضاً تبحث في آثار تلك البلاد والمدنيات التي تعاقبت عليها وقد وضع المؤلف تأليفه هذا ليكون احدى حلقات هذه السلسلة وضمنه بحثاً جديداً عن قبة جامع القيروان وسقوفه ذاكراً الأيدي العاملة التي تداولت عليها في أزمنة مختلفة خلال اربعة قرون (اي من القرن الثالث الى السادس هـ) . ومع ندرة الوثائق التاريخية من مطبوعات ومخطوطات وغموضها تمكن المؤلف باقتداره وقوة استنباطه من ايفاء هذا البحث حقه مسترشداً بما بقي في الجامع من آثار تلك العصور من نقوش وزخارف معارضاً بينها وبين ما بقي من أمثالها في العراق ومصر والشام . وأظهر بعد تحقيق وتدقيق ما كان غامضاً وما عسر على غيره ادراكه . فجاء هذا البحث تتمةً لما نشره الاستاذان فلوري (S. Flury) وسادالان (H. Saladin) عن بناء هذا الجامع ومحاسنه .

وبعد ان وصف المؤلف القسم العلوي من المحراب وزخرف عقده المزين برسوم غصون الكرمة وعناقيدها (لوحة ٨) بحث في الزمن الذي رسمت فيه تلك الرسوم مسترشداً بما يماثلها في غير هذا البناء في سائر المدن العربية . ولما لم يهتد لشيء يستعين به على إدراك غايته استدرك ذلك متسائلاً عما اذا لم يكن هنالك بعض الشبه بين رسوم هذه الكرمة (شكل ١) وتلك الأخرى المذهبة التي وصفها مؤرخو العرب وقالوا انه كان يزدان بها جدار قبلة الجامع الأموي في دمشق . وقد اكتفى المؤلف بهذا السؤال اذ لم يجد ما يؤيد به نظريته لان الحرائق التي انتابت جامع دمشق منذ ذاك العهد ذهبت بكرمته وجميع محاسنه حتى لم تبق فيه شيئاً من زخارف ذاك العصر حتى يسترشد بها .

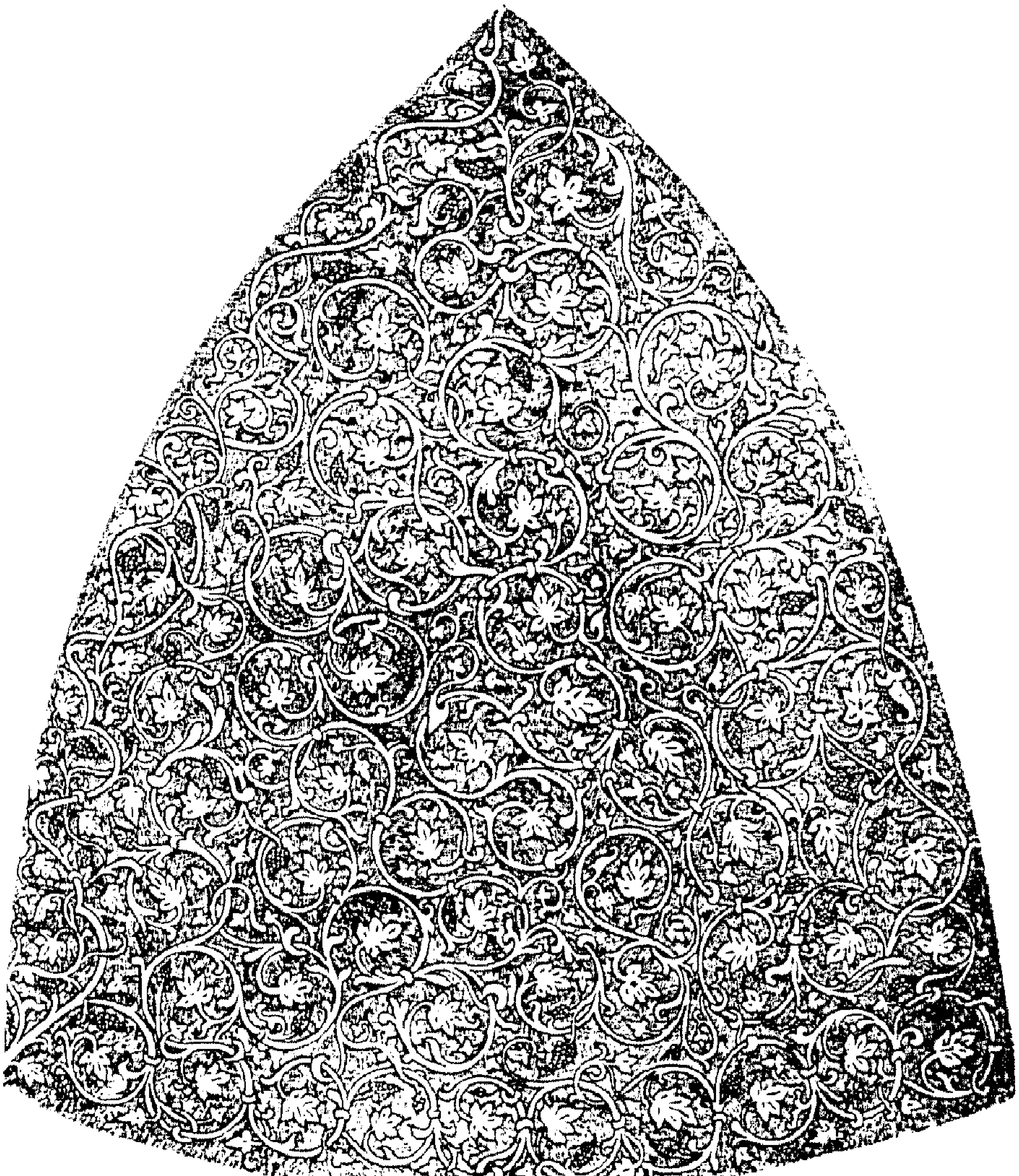

شكل ١ كرمة جامع القيروان

(كايشة المؤلف)

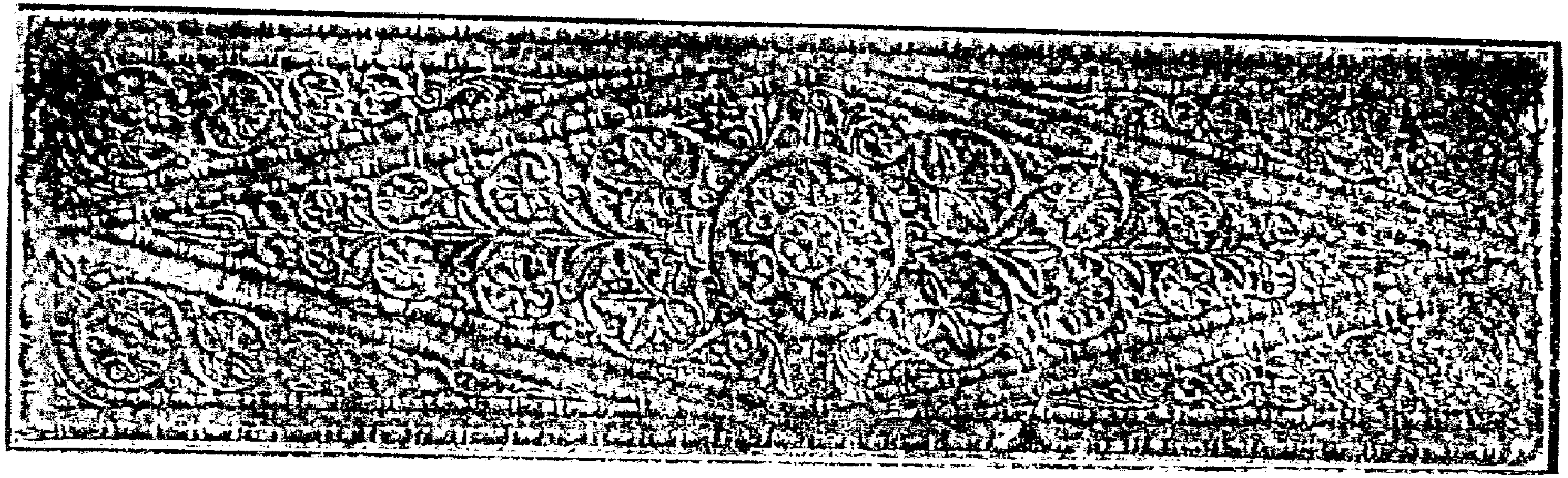

شكل ٢ (لوحة جامع بني امية في دمشق)

(كليشة دار الآثار العربية
في دمشق

كنت افضل ان أمرّ بهذا البحث دون ان أقول كلمة فيه لو لم أجد مستنداً يؤيد نظرية المؤلف . وقد عثرت في دار الآثار العربية في دمشق على لوحة رخام (شكل ٢) عليها نقوش نافرة (رقم ح ٨٨) التقطت من بين أنقاض الجامع الأموي ولعلها من بقايا كرمته الموصوفة ، على الرغم من تأثير الحريق الذي سودها ، فان نقوشها محفوظة واضحة ، وظاهر عليها اثر الذهب المطلية به . و يرى الناظر اليها أغصان الكرمة وعنقودها كالتي في جامع القيروان حتى ليخيل للناظر اليهما كأنهما من صنع صانع واحد ، غير انهما اختلفتا باختلاف سطح الجدار الذي رسمتا عليه . فبينا ترى كرمة القيروان على سطح مقعر ترى كرمة دمشق على سطح مستو ، هذا من جهة ومن جهة أخرى رسمت كرمة القيروان بصباغ على خشب وكرمة دمشق بحفر ناتيء على حجر . و يستفاد من كتابة المؤلف ان الفن المعماري العراقي والمصري والشامي ظاهر في بناء جامع القيروان وهذا يحملنا على الاعتقاد بانه كان بين عمال تونس من هم من تلك البلاد ولا يبعد ان يكون صانع المحراب دمشقياً متأثراً بمنظر كرمة بلده فاتخذها انموذجاً نسج على منواله . ولا ريب بان كرمة دمشق هي الأصل في هذا الباب ، وما كرمة القيروان الا نسخة عنها ، لأن جامع القيروان أنشيء سنة ٢٢١ هـ . وجامع دمشق حوّل الى مسجد في سنة ٨٧ و٨٨ هـ . وجميع من وصفوا كرمة دمشق متفقون على انها من عهد الوليد وهو الذي أنفق عليها سبعين الف دينار كما ذكر ياقوت في معجم البلدان .

ولا يخفى انه لم يطرأ على جامع دمشق تغيير الا بعد حريق سنة ٤٦١ هـ لما دثرت محاسنه وزال ما كان فيه من الصناعات النفيسة ومن جملتها الكرمة المذكورة .

ان اللوحة المحفوظة في دار الآثار هي ولا شك قطعة من هذه الكرمة ، وان صح ذلك فيكون أصلح جواباً للمؤلف . واعتماداً على ما تقدم نقول بلا تردد ان كرمة القيروان هي نسخة من كرمة دمشق ، وهي من أقدم آثار جامع القيروان كما ان كرمتنا من أقدم آثار مسجدنا .

مدير دار الآثار

جعفر الحسني

مطبوعات حديثة

شعراء النصرانية

«بعد الاسلام»

القسم الثالث في شعراء الدولة العباسية تأليف الاب لويس شيخو اليسوعي

طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٧ م

حوى هذا القسم ترجمة اربعة واربعين شاعراً نصرانياً ، او رجح المؤلف انهم نصارى ، معتمداً على أمهات الكتب المطبوعة في الشرق والغرب من كتب العرب في التاريخ والادب . ومما نقل عنه من المخطوطات «جمهرة الاسلام ذات النثر والنظام» لعميد الدين ابن الغنائم مسلم بن محمود الشيرازي و «اخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء» للملك المنصور صاحب حماة» المتوفى سنة ٦١٧ هـ (١٢٢٠ م) وكلاهما من مخطوطات خزانة ليدن . و «دمية القصر وعصرة اهل العصر» لابي الحسن علي الباخرزي ، ومقامات يحيى بن ماري وكلاهما من مخطوطات خزانة الامة في فينا . و «بغية الطلب في تاريخ حلب لكمال الدين الحلبي . وتذكرة العلماء والشعراء للمملوك تاني بك الخزندار وكلاهما من مخطوطات لندرا . الى غير ذلك من المظان المعتبرة . وقد نسق المؤلف الاستاذ كتابه واستقصى في جلب المواد الا اننا لاحظنا عليه انه غمط حق المسلمين في الحرية التي أطلقوها لابناء ذمتهم ولو كان تعصب خصومهم المسلمين كما قال في المقدمة الافرنسية كما زعم وان النصرانية ذلت في الدول الاسلامية لانقرض النصارى من الشام ومصر والعراق لا محالة ، بيد اننا رأينا خلفاء المسلمين وملوكهم وامراءهم وأعيانهم وعلماءهم ولا سيما في عهد العباسيين يفتحون صدورهم وقلوبهم للمسيحيين والاسرائيليين والمجوس ، وما أهين احد لنحلته بل أهين المتطاول الى ماليس من شأنه ، على ما هو الحال في كل دولة وملة وعصر ، ولو كان التعصب الذي يذهب المؤلف الى تأصله في العصر العباسي عند المسلمين أ كان اليوم يستطيع هذا المؤلف ان يدون سيرة اربعة واربعين شاعراً نصرانياً بأخذ كلامهم وتراجمهم من كتب المسلمين ، والمسلمون هم الذين رفعوا من

شأنهم وعاشروهم وأدخلوهم مجالسهم وائتمنوهم على حرمهم . ثم نوهوا بهم في كتبهم كما نوهوا بابناء مذهبهم . وخلدوا ذكرهم ومآثرهم كأنهم ابناء عم لهم ، فأين التعصب الموهوم بعد هذا ؟ ولماذا نرثي للظلوم بزعمنا ولا نسأل عن السبب الذي دعا الى ظلمه . اذا أحببنا الانصاف نذكر المسائل باعيانها ، ولا نرسل الكلام على إطلاقه ، مثال ذلك في كتاب الاب شيخو نفسه فقد ذكر ترجمة ابن بُطلان المسيحي الذي زار بعض مدن الشام في سنة ٤٤٤ هـ ، ونقل ياقوت وابن القفطي طرفاً صالحاً من رحلته واقتبسها المؤلف ، وحذف ماقاله ابن بُطلان في « اللاذقية » وكانت في يد الروم سنة ٤٤٦ هـ وخلاصة ماقال انهم كانوا يتزايدون في حلقة المدينة مدينة اللاذقية على مبيت المومسات عند الغرباء او الراغبين في الخنا ، و يأخذ كل من يريد الغير من المحتسب خاتم المطران حجة معه ، واذا وجد انسان مع خاطئة وليس معه خاتم المطران ألزم خيانة ! فمثل هذه القصة التي عدها ابن بُطلان « أعجوبة » لانه لم يرها في بلاد الاسلام ، هل يمكن ان نتخذها حجة على فساد أمة او على فساد نحلة . الشذوذ موجود في كل مجتمع ، والعبرة بالسواد الاعظم ، والعدل يقضي على المؤرخ بالانصاف على كل حال .

محمد كرد علي

بيروت

« تاريخها وآثارها »

بقلم الاب لويس شيخو اليسوعي طبع في مطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ (ص ١٤٠)

وهذا من التآليف الجديدة التي عني الاستاذ شيخو بوضعها على نسق جديد عامداً الى مصادر مهمة استقى منها ووضعها في قالب مقبول في تاريخ ثغر الشام وآثارها وقد زين كتابه ببضعة رسوم . ومما نلفت نظر المؤلف اليه ان كلامه على عمل الطوائف غير المسيحية في بيروت على عهدها الاخير ناقص قليلاً ، وقد نقل عن الجغرافي اليعقوبي انه كان في عرقة وطرابلس قوم من الفرس وان اهل كور جبيل

وبيروت وصيداء كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن ابي سفيان . وأردف المؤلف هذا القول بقوله : « ولا شك ان المتاولة الشيعيين والنصيرين الذين في سواحل الشام حتى يومنا من ذرية هؤلاء الفرس » . ولعل غيرنا من الباحثين يحقق هذه القضية فان لنا شكاً فيها . ونثني على همة الاستاذ المؤلف لما يعانيه في تآليفه وابحاثه من الجهد والعناية . م . ك

كتب ورسائل مختلفة

(١) التقرير الصحي السنوي لمديرية الصحة العامة في العراق خلال سنة ٢٥ و١٩٢٤ و٢٤ — ١٩٢٣ .

(٢) حكاية ذي القرنين لابي مراثيد الحميري وقصة الصنم والملك وابنته نشرها السيد (امليو غرسيه كومز) مع ترجمتها والتعليق عليها باللغة الاسبانية طبعت في مجريط سنة ١٩٢٦ .

(٣) مملكة جهنم والخمر للفيلسوف تولستوي . نقلها الى العربية عن الروسية السيد سليم قبعين صاحب مجلة الاخاء . والطبعة الثانية في المطبعة التجارية الكبرى في القاهرة (ص ٨٨) .

(٤) « درر الحكام شرح مجلة الاحكام » الجزء الثاني تأليف السيد علي حيدر تعريب المحامي الاستاذ فهمي الحسيني صاحب مجلة الحقوق طبع في مطبعة الحقوق بيافا سنة ١٣٤٥ — ١٩٢٦ .

(٥) « كتاب القراءة » للعلامة كراتشقوفسكي لتعليم اللغة العربية لابناء روسيا طبع في لينينغراد سنة ١٩٢٦ (ص ٤٤) .

الجزء ٣ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : شباط سنة ١٩٢٧ م الموافق شعبان سنة ١٣٤٥ هـ

اسم الآلة

« بين النحاة واللغويين »

دار البحث في بعض جلسات المجمع العلمي حول وضع كلمة عربية تقوم مقام ما يسمى بالتركية (صوبا) فاخترت كلمة (مدفأة) بصيغة اسم الآلة لان الـ (صوبا) آلة لتدفئة البيت وتسخين هوائه . فاعترض بعض الاخوان قائلاً : ان هذا لا يجوز لان النحاة اشترطوا في اسم الآلة أن يكون مشتقاً من الفعل الثلاثي المتعدي وفعل (مدفأة) اما (دفئ) اللازم وإما (أدفأ او دفأ) المزيد على الثلاثي ولا يجوز اشتقاق اسم الآلة منهما كليهما[1] . فقلت له : أما وقد استشهدت بقول النحويين فاني اذكر بجانبه ما يفعله

(١) من مستملح المصادفات انني جئت بمقالي هذا الى دار المجمع العلمي وبحضور رئيسه وبعض اخواننا سلمته الى عامل المطبعة بيدي وتناولت باليد الاخرى جزء آب من مجلة (لغة العرب) لمنشئها العلامة الاب أنستاس الكرملي فتصفحت افتتاحيته فاذا هي تقريظ لكتاب (الفيزيا) الذي ألفه الفاضل السيد عز الدين علم الدين . وقد قرظ الأب الكرملي هذا الكتاب وأثنى عليه لكنه انتقد بعض كلمات جديدة جاءت فيه ، من ذلك كلمة (مدفأة) التي استعملها مؤلفه قائلاً : « المدفأة (بوال Poêle) آلة الدفء وهي من أوضاع الشيخ عبد القادر المغربي » فعلق الأب الكرملي على هذه العبارة قوله : « اما نحن فنقول : لا يمكن ان تكون اللفظة مدفأة وزان مكنسة بل مُدفئة (على صيغة اسم الفاعل) من فعل أدفأ لأن اسم الآلة لا يصاغ من اللازم » اهـ . فلما قرأت قوله استرجعت مقالي

العرب وهو انهم قد يشتقون أسماء آلات من الافعال الثلاثية اللازمة ومن الافعال المزيدة بل ومن الاسماء الجامدة ايضاً ولديّ شواهد كثيرة على ذلك · ففي كلام النحاة إذن نظر · ينبغي ان يحرر · ثم سألني سائل آخر عن كلمة عربية تخلف كلمة (تلسكوب) الافرنجية في معناها · فقلت ان التلسكوب انما هو آلة لادناء البعيد فنسميه (مِدناة) على وزن مرقاة اي آلة الدنو كما ان المرقاة آلة الرقي · فعاد ذلك الفاضل الى اعتراضه قائلاً : وهذا ايضاً لا يجوز لان (الدنو) فعل لازم لا يصاغ منه اسم آلة · فقلت وهذه (المرقاة) اسم آلة وقد صاغها العرب من فعل (الرقي) وهو لازم · ثم أظهرت الارتياب فيما قاله النحاة وسكت على مضض · وأخذت من يومئذ استعرض في نفسي اسماء الآلات الواردة في كلام العرب والشائعة على ألسنة اللغويين فوجدت طائفة كبيرة منها لم تتوفر فيها الشرائط التي اشترطها النحويون : من كون الفعل ثلاثياً وكونه متعدياً · فلم يعجبني تشدد النحويين ولا تحجيرهم الواسع في هذه المسألة · وملت الى رأي اللغويين الذين انما ينقلون الينا متون كلام العرب · فطريقتهم في إثبات اللغة وتحقيقها عملية بخلاف النحويين فان طريقتهم نظرية في معظم مناحيها · فينبغي إذن ان يكون كلام اللغويين هو العمدة في هذا الباب · ولاسيما ان نهضتنا اللغوية الحاضرة تستدعي التسامح والافتاء باقوال الكوفيين ولو كانت ضعيفة شاذة ، فكيف بأمر نقله اللغويون ودونوه في كتبهم · وقديماً ما أحفظ تشدد النحاة وتعصبهم لقواعدهم — قلوب اهل اللغة والأدب والبلاغة حتى قال ابو العلاء المعري وقد ضاق بهم ذرعاً : « لا يسخط عليك الله ولا الملكان اذا كنت لا تدري لما ذا ضُمت تاء المتكلم وفتحت تاء المخاطب » وقال ايضاً :

من بدالمنضدو ألحقت به هذا التعليق لأعجب القراء من هذه المصادفة ولأحقق لهم باني لم اكتب هذا المقال انتصاراً لنفسي ولا تأييداً لقول السيد عز الدين ولا رداً على العلامة الكرملي وانما هو ابن المصادفة المحضة · ولعل في هذا الاتفاق ما يشفع برأيي لدى علامة العراق فيشايعه فيما هو بسبيله من خدمة هذه اللغة العربية الذي هو والحق يقال من اكبر خدامها · العاملين على توسيع نطاقها · ولكن هل رأيه هذا في اسم الآلة مما يوسع النطاق · او هو من قبيل شد الوثاق · وتزليق الحبل على الخناق ؟ ·

(أفهم أخاك اذا نطقت ولا تُبَلْ   يا حارِ قلت بذاك أم يا حارُ)

بل ان شذوذ النحاة أحياناً في بعض ما ارتأوه وخالفوا فيه اللغويين أحرج صدر إمامهم سيبويه نفسه : فقد عقد في مصنفه النفيس الذي أسماه (الكتاب) باباً ترجم له بهذا العنوان « هذا باب استكرهه النحويون وهو قبيح فوضعوا الكلام فيه على غير ما وضعت العرب » ثم ذكر ان النحويين جروا في استعمال (تباً وويحاً) على خلاف ماجرى عليه اهل اللسان . ومما قاله ابن خلدون في صدد بيان تذمره من النحاة هذه العبارة « خرفشة النحاة اهل الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق » ومعنى (الخرفشة) التخليط . ولا يعجلنّ القارئ في لوم ابن خلدون حتى يعلم ما كان من رأي نحاة زمانه فيه فلعلهم كانوا يعيبون تصانيفه وينسبون الخطأ الى أساليبه ويحكمون فيها قواعدهم وآراءهم مع ان ابن خلدون هو الكاتب العبقري الذي أصبح أسلوبه مثالاً يحتذى . وإماماً يقتدى . وسيبقى كذلك على طول المدى .

وما زال يخطر في بالي هذا وامثاله وأقدم رجلاً وأؤخر أخرى في إعلان محاكمة النحويين في مسألة (اسم الآلة) مذ قيدوه بالفعل الثلاثي المتعدي حتى ظفرت وانا أنقب في كناشات المرحوم الشيخ طاهر الجزائري بهذا النص الصريح : « ذكر الفخر الرازي في كتابه (المحصول) في الفصل الذي عقده للكلام على مبادئ اللغة — « ان قول اهل اللغة في المباحث اللغوية راجح على قول غيرهم يعني النحاة اه . » فقلت في نفسي لا جرم ان هذا النص من كلام الرازي يمهد لي العذر في نصب الموازين . ومحاكمة النحويين . والاحتجاج عليهم بقول اللغويين . لا سيما أن مسألتنا (اسم الآلة) مسألة لغوية في كنهها لانها بحث في الصيغة والاشتقاق وليست مسألة نحوية يبحث فيها عن أواخر الكلم العربية . على اننا اذا لم يعجبنا ما قرره النحاة في اشتقاق اسم الآلة فليس معناه أننا ندعو الى التمرد على كل ما قرروه ودوّنوه . كيف وان لأهل كل لغة كتباً في النحو والبيان يرجعون اليها . ويعوّلون في تقويم ألسنتهم عليها . وانما نرى ان النحويين رحمهم الله لفرط إكبابهم على فنهم وتفرغهم له مدة اثني عشر قرناً قد توسعوا فيه بأكثر من قدر الحاجة حتى أصبحنا مضطرين ان نختصر مما قالوا . ونوجز فيما أطالوا . وان نطلق في بعض الاحايين ما قيدوا . ونخفف ما شددوا .

فاعلم اولاً ان اسم الآلة صيغة أراد العرب من وضعها اختصار التركيب الاضافي : فقولهم مثلاً مفتاح انما أرادوا اختصار كلمتي (آلة الفتح) و (منخل) آلة النخل و (مبرد) آلة البرد و (ملعقة) آلة اللعق وهكذا · وأشهر صيغة لاسم الآلة هي ما بدئ بالميم · وله وزنان (مفعل) كمِقود و (مفعلة) كمجمرة وقد جاء اسم الآلة على غير هذين الوزنين : فجاء على وزن فعال بكسر أوله نحو (سداد) آلة السد و(ثقاب) ما يشعل به النار من عيدان ونحوها فهي آلة الاثقاب اي الايقاد و (ثقاف) آلة يُثقف بها صانع الرماح رماحه اي يسوّيها بها و يقوّمها · وما كان من اسم الآلة على وزن (فعال) لم يشترط فيه النحويون ان يكون مشتقاً من فعل ثلاثي متعدٍ : فان (سداد) ان كان اشتق من (سدّ) الثلاثي المتعدي فهذه ثقاف مشتقة من ثقّف الرمح بالتشديد وهو ثلاثي مزيد · و(ثقاب) مشتقة من أثقب النار اذا أوقدها وهو ثلاثي مزيد ايضاً او هي مشتقة من ثقبت النار اتقدت وهو فعل لازم لا متعد · فلم يبق الا ان النحاة اشترطوا كون الفعل ثلاثياً متعدياً في اشتقاق اسم الآلة الذي يكون على وزن (مفعل ومفعلة) وها نحن أولاء نريد ان لا نشترط هذا الشرط فيهما كما لم يشترطوه في ما كان على وزن (فعال) وذلك لتوفر الادلة على عدم لزوم اشتراطه ·

قال النحاة في تعريف اسم الآلة : « هي ما صيغ من المضارع المعلوم لمعالجة الفاعل المفعول به لوصول أثر الفعل اليه ولا تصاغ الا من ثلاثي مجرد » : فقولهم لمعالجة (الفاعل المفعول به) هو تقرير لشرط تعدية الفعل · وقولهم (ولا تصاغ الا من ثلاثي مجرد) تقرير لشرط كونه ثلاثياً مجرداً · هذا ما قالوه في كتب تعليم القواعد النحوية او الصرفية وهو منقوض بالكلمات الكثيرة الدالة على معنى الآلة وليست مشتقة من المتعدي ولا من الثلاثي المجرد بل هو منقوض ايضاً بتصريحات بعض علماء اللغة كما يأتي بيانه · وقد اعتذر لهم بعض الفضلاء فقال : ان النحويين في تأصيلهم القواعد وجمعهم الشوارد كثيراً ما يراعون في هذا الجمع والتأسيس التقريب والتسهيل على الطلاب · فيقتصرون من أحكام اللغة العربية على الأعم الأغلب فيضعون له الأصل و يقررونه في كتبهم على انه قاعدة عامة لجميع الجزئيات و يكون هناك في بعض الأحايين مسائل وجزئيات أخرى تنطوي تحت قاعدة أعم وأشمل من تلك القاعدة

التي وضعها النحاة . كذا قال هذا الفاضل فيكون اساتذة العربية على رأيه فريقين : (فريق النحاة) وهؤلاء اكثر اتصالاً بالناشئين الشادين من الطلاب فهم من أجل ذلك يسارعون في التسهيل عليهم فيضعون لهم من القواعد ما كان مبنيًا على الاستقراء الناقص كما فعلوا في تعريف اسم الآلة . ومن الغريب انهم مع هذا التعريف لم يصرحوا بان كل ماعدا ذلك من أسماء الآلات المشتقة من الأفعال اللازمة والمزيدة — شاذ لا يقاس عليه .

و (فريق اللغويين) وهؤلاء يضعون القواعد المبنية غالبًا على الاستقراء التام فتكون أعم وأشمل مما وضعه النحويون بحيث تصلح ان تكون عمدة لمن أراد التنطس (اي التخصص والإخصاء) في علم اللغة . وتقصّي أسرارها . والتعمق في أغوارها . ونحن اليوم معشر العرب في دور النهوض والاهتمام بتوسيع دائرة التخاطب بلغتنا وتمهيد الطريق بين يديها لتجاري اللغات الحية . فلا يحسن ان نقتصر على ما قرره النحاة مما يؤدي الى الحجر والتضييق وتقليل الانتفاع بالمادة اللغوية او بالارث اللغوي الذي تركه لنا الأسلاف . وانما الواجب ان نستفيد من اقوال اللغويين الذين وسعوا الدائرة بل من أقوال الكوفيين التي لم تشتهر في كتب النحاة ولم يبيحوا العمل بها كما أباحوه بالنسبة لأقوال البصريين .

فكلمة (المدفأة) للصوبا و (المِدناة) للتاسكوب اذا راعينا أقوال النحاة هجرناهما وتخبطنا في اختيار كلمتين سواهما تكونان موافقتين لما اشترطوه في (اسم الآلة) اما اذا راعينا أقوال اللغويين واعتبرنا شواهدهم قبلنا تينك الكلمتين وحملناها على نظائرهما التي سنسردها على القارئ .

فعلماء اللغة يجولون من وضع (اسم الآلة) في دائرة أوسع . ويجرون على طريقة أسهل وأنفع . فهم يجوزون اشتقاقها من الفعل اللازم ومن الفعل المزيد على الثلاثي ومن الاسم الجامد ايضًا . كما انهم يشتقونها من الفعل الثلاثي المتعدي الذي هو والحق يقال اكثر استعمالاً . وأوسع مجالاً .

* *
*

﴿ أقوال اللغويين الدالة على جواز اشتقاق اسم الآلة ﴾
« من اللازم والمزيد والجامد »

جاء في رسالة العلامة الكسائي التي سماها (ماتلحن به العوام) ما نصه :

« وما كان من الآلات مما يوضع و يرفع مما في اوله ميم فاكسر الميم ابداً اذا كان على (مفعل ومفعلة) تقول : هذا مشمل ومثقب ومقود ومنجل ومبرد ومقنعة ومصدغة ومجمرة ومسرحة ومشربة ومرفقة ومخدة ومحسّة ومظلّة فهذا كله مكسور الاول أبداً سوى مُنخُل ومُسعُط ومُدهُن ومُدُقّة ومكحلة فان هذه الأحرف جاءت عن العرب بضم الميم اهـ » . والشاهد في قول الكسائي أنه عدد هذه الكلمات وسماها كلها آلات وهي نحو عشرين كلة نصفها توفر فيه ما اشترطه النحريون في اسم الآلة أعني ان تكون مشتقة من ثلاثي متعدٍ ونصفها لم يتوفر فيه الشرط المذكور .

فالنصف الاول : مثقب مقود منجل (من نجل الشيء اذا رمى به) مبرد مشربة (من شرب الماء) محسّة (من حسّ الدابة وتسمى المحسة الفرجون ايضاً) مُنخُل مُسعُط (من سعطه الدواء) مُدهُن مُدُقّة . والنصف الثاني الذي لم يتوفر فيه الشرط هو : مشمل (نوع من البرود مشتق من الاشتمال المزيد لا من الشمل) مقنعة (من تقنعت المرأة لا من قنعت) مصدغة (مشتقة من الصُدغ الجامد) مجمرة (من الجمر لانه يوضع فيها) مسرحة (هي المشط من سرّح الشعر بالتشديد لا من سرحه الثلاثي) مرفقة (المتكأ و المخدة من ارتفق المزيد لا من رفق الثلاثي) مخدة (من الخدّ الجامد) مظلّة (من الظل الجامد او من ظلّله المزيد) مُكحلة (من الكحل الذي يوضع في المكحلة وليست من فعل كَحَل حتى تكون اسم آلة له وانما آلته تسمى المِكحل والمِكحال وهو الملول ايضاً) فهذه كلها صرّح الكسائي بتسميتها أسماء آلات وهي لم تشتق من الثلاثي ولا من المتعدي كما رأيت .

وقال صاحب التاج بمناسبة ان قوماً من اللغويين ذهبوا الى ان (المحبرة) هي بفتح الميم لا بكسرها بناء على كونها اسم مكان بمعنى موضع الحبر — ما نصه :

« والصحيح انها (اي الفتح والكسر) لغتان أجودهما الفتح ومن كسر الميم قال

انها آلة » فانظر كيف صرح بأن بعضهم يسمي (الحبرة) اسم آلة مع انها مشتقة من (الحبر) الجامد وليست مشتقة من فعل ثلاثي متعد كما قال النحاة .

وقال صاحب التاج ايضاً (المقلمة) (بكسر الميم) وعاء قلم الكتابة . ثم قال « قال شيخنا : وكان المناسب لكونها وعاء الفتح (اي فتح اولها) على انها اسم مكان اذ مقتضى الكسر انها اسم آلة ويمكن ان يقال الوعاء آلة الحفظ اهـ» اي فلا نفتح الميم بل نبقيها مكسورة وان كانت وعاء باعتبار ان الوعاء آلة للحفظ وبهذا الاعتبار يجوز كسر ميمها . وتكون النتيجة ان (المقلمة) اسم آلة يتوصل بها الى حفظ الأقلام من التبدد والتكسر . وهي بلا ريب مشتقة من (القلم) والقلم اسم جامد لا فعل ثلاثي متعد .

وعقد إمام اللغة الثبت الحجة الفيومي صاحب المصباح فصلاً خاصاً باسم الآلة قال فيه :

« فصل : اذا جُعل المفعل مكاناً فتحت الميم فالمقطع اسم للموضع الذي يقطع فيه و (المقص) للموضع الذي يقص فيه و (المفتح) للموضع الذي يفتح فيه . وان جعلت (المفعل) أداةً (اي اسم آلة) كسرت الميم (فالمِقطع) مايقطع به و (المقص) مايقص به . ثم قال : « وكذلك كل اسم آلة فهو مكسور الاول نحو (المخدة) و (الملحفة) و (المقلم) و (المروحة) و (الميثرة) و (المكنسة) و (المقود) وشذ من ذلك أحرف جاءت بالضم ثم عد منها (المسعط) و (المدهن) و (المحرضة) و (المكحلة) و (المنصل) و (المدلاة) وشذ بالفتح (المنارة) انتهى قوله . فانظر كيف سمى هذه الكلمات كلها سواء أكانت مكسورة او مضمومة او مفتوحة أسماء آلات وهي كلها او معظمها مشتقة من أسماء جامدة فلولا ان اللغويين لا يشترطون في اسم الآلة ما اشترطه النحويون لما سموها اسماء آلات بل كانوا يسمونها كما سماها بعض المتكلفين (أشباه آلات) !!

ومعظم الكلمات التي سردها صاحب المصباح مر ذكرها في عبارة الكسائي السابقة وقد بينا اشتقاقها . اما التي لم يذكرها فهي : (الملحفة) اسم آلة من الالتحاف المزيد او من لحفه بمعنى غطاه (المروحة) مشتقة من الريح الجامد وياء الريح اصلها واو كما لا يخفى . (الميثرة) من الوثارة وهي لين الفراش ووطاءته (المكنسة) من كنس الثلاثي المتعدي وهذا كما شرط النحاة . (المحرضة) الوعاء الذي يوضع فيه الحرض

وهو الاشنان . (المُنصل) السيف وهو مشتق من فعل نصل وكل معانيه تدور حول معنى الخروج . وأرى ان لايجعل (المنصل) من اسماء الآلات لأن معنى الآلية فيه غيرظاهر . ومثل المنصل (المُلاءة) اسم للثوب المخصوص ومعنى الآلية غير ظاهر فيها ايضاً .

من هنا في كلام الكسائي وصاحب المصباح اسماء آلات كثيرة لم يتوفر فيها ماشرطه النحاة من كون فعلها ثلاثيّاً متعدياً ومع هذا فقد سمياها (أسماء آلات) مما يثبت انه لا يشترط في اسم الآلة ما اشترطه النحويون . وهاك أمثلة أخرى غير ما تقدم .

أسماء آلات مشتقة من أسماء جامدة

(مملحة) اسم للوعاء الذي يوضع فيه الملح فهي مشتقة من الملح الاسم الجامد . وليس هو (اي لفظ المملحة) اسم مكان لانه مكسور الاول واسم المكان مفتوح الاول وانما هو اسم آلة . ولا ريب ان الوعاء المسمى بالمملحة آلة لحفظ الملح فيه .

(المخصرة) اسم لضرب من العصي تسند به الخاصرة فهي مشتقة من الخصر .

(المئبرة) الوعاء الذي توضع فيه الأبر وهو مشتق من (الابرة) .

(المزود) الوعاء الذي يوضع فيه الزاد وهو مشتق منه ويكتب بالزاي . اما (المذود) بالذال المعجمة فهو (المعلف) اي الموضع الذي يوضع فيه علف الدابة . والظاهر انه مشتق من (الذود) بمعنى الدفع والطرد ولكن لماذا سمي معلف الدابة (مذوداً) واي علاقة بينه وبين معنى الطرد ؟ ؟ .

(المعلف) المكان يوضع به علف الدابة فهو مشتق من (العلف) الجامد وميمه مكسورة . لذلك كان اسم آلة . والمكان آلة لتقديم العلف الى الدابة .

(الممطر) ثوب يتقى به المطر ونسميه اليوم (المشمّع) والممطر مشتق من (المطر) وهو اسم جامد .

فهذه الكلمات أسماء آلات وهي ليست مشتقة من الافعال المتعدية اللازمة فان ادعى مدع ان كلاً من هذه المذكورات اسم مكان لا اسم آلة يصح ادعاؤه فيما ورد مفتوح الميم منها او فيما أمكن ان يكون اسم مكان كالمعلف مثلاً اما الممطر فلم يرد مفتوحاً ولا يصح اعتباره اسم مكان كالايخفى وانما هو اسم آلة محضة .

﴿ اسماء آلات مشتقة من أفعال ثلاثية لازمة ﴾

(المرقاة) السلّم وهي اسم آلة من رقي بمعنى صعد وهو فعل لازم وبعضهم بفتح ميم المرقاة ويجعلها اسم مكان بمعنى انها موضع للرقي لا آلته . ويخيّل اليّ ان العرب لم ينطقوا بالمرقاة ولا بالمحبرة مفتوحتي الميم لتكونا اسم مكان وانما بعض النحاة ادعى هذه الدعوى فيها إطراداً لقاعدتهم التي قرروها من ان اسم الآلة يلزم ان يكون مشتقاً من الفعل المتعدي لا اللازم .

(المعراج) بمعنى السلم ايضاً اسم آلة من عَرَج في السلم او في السماء اذا صعد فيها .

(المصباح) اسم آلة مشتق من فعل (صَبَح) بمعنى لمع وأنار . او هو مشتق من اسم الصُبْح لانه يقوم مقامه في الإنارة وسلخ الظلام ؛

(المدخنة) اسم آلة من فعل (دَخَن) الدخان اذا ارتفع ودَخَنَت النار علا دخانها .

(المنخر) العضو المعروف وهو اسم آلة من نخر نخراً ونخيراً .

(المزراب) اسم آلة من فعل زرب الماء سال .

(المعازف) آلات اللهو وهي جمع (معزف) من فعل عَزَف اللازم .

(الملاهي) جمع (ملهى) بكسر الميم وهو اسم آلة من لها الرجل يلهو .

وكل ما ذكرنا من الكلمات أسماء آلات وهي مشتقة من أفعال لازمة كما سمعت وميماتها مكسورات فلا يسهل ادعاء كونها من أسماء الأمكنة اللهم الا كلمة (منخر) و (مرقاة) وقد قلنا كلمتنا في الأخيرة .

﴿ أسماء آلات مشتقة من أفعال مزيدة على الثلاثي ﴾

(المئزر) اسم آلة وهو مبني من فعل (إئتزر) المزيد على الثلاثي .

(المطهرة) اسم للإناء الذي يتطهر به فهو من تطهر .

(الميضأة) اسم للإناء الذي يتوضأ به من توضأ .

(المسطرة) اسم لما يقع به التسطير من سطّر .

(المحراك) العود الذي تحرك به النار من حرّك .

(المعلاق) ما يعلّق به الشيء من علّق .

(المجداف) العود الطويل الذي يجدّف الملاّح به في سفينته من جدّف .

(المِلَسة) خشبة تُملَّس بها الارض اي تُسوَّى ·

(المِهدى) على وزان مِفعل اسم للوعاء الذي تُهدى فيه الهدية كالطبق من فعل أهدى ·

(المِلواح) البومة تشدّ رجلها ليُصطاد بهـا البازي : وذلك ان يطيّرها الصائد ساعة بعد ساعة فاذا رآها البازي او الصقر وقع عليها فيأخذه · وسميت (ملواحاً) من لوَّح بثوبه اذا رفعه وحركه ليلوح للنـاظر فيراه · فملواح اسماً للبومة المذكورة مشتق من لوَّح المزيد على الثلاثي ·

(المِئذنة) بكسر الميم المنارة التي يؤذن المؤذن من عليهاــ فهي من أذن المزيد على الثلاثي ·

فالكلمات المذكورة مكسورات الاول أسماء آلات وهي مبنيـة من المزيد لا من الثلاثي · وما صح اعتباره منها اسم مكان كالمئذنة بمعنى موضع الأذان فتحت ميمه وقيل (مأذنة) ولعله لم يرد مأذنة بالفتح كما وردت المنارة بالفتح · ومالم يصح اعتبـاره اسم مكان كالبواقي كان اسم آلة قطعاً ·

وقد يخطر في البال ان يقال : كيف يصح اعتبـار (المئذنة) بكسر الميم اسم آلة وهي لا تمسك باليد ولا يعالج المؤذن بها أذانه كما يعالج الخياط صناعته بالمقص والنجار بالمنشـار والكاتب بالمرقم ؟ والجواب على هذا ان المعالجة التي تقع باسم الآلة تختلف باختلاف نوع العمل الذي يعالج بها · على ان جهة النظر في اسم الآلة انما هو ان يقع التوسل بها الى تحصيل غرض خاص سواء أكانت المعالجة بها حقيقية كما اذا قبضنا عليها بكفنا بيدنـا او لا بأن تكون المعالجة اعتبارية · فالمؤذن الذي يريد ان يسمع الناس أذانه لا يقدر على ذلك في ارض الشارع او بين البيوت فيتوسل الى غرضه بالمئذنة فيرتقي عليها فيسمعهم صوته من فوقها · فالمئذنة إذن آلة لانه يتوسل بها الى الغرض وهو إسماع الناس الأذان · وان لم يحصل هذا التوسل بطريق المعالجة الحقيقية كالمعالجة بالمفتاح والمنشار ·

والكلمات التي سردناها على صيغة اسم الآلة ولم يتوفر فيها شرط النحويين انما سنحت لنا سنوحاً من دون تعمّد ولا استقصاء للبحث في المعاجم وكتب اللغة ولو فعلنا لجمعنا من ذلك الشيء الكثير· على ان ماسردناه كاف للدلالة على تخلف شرط النحويين

وانتقاضه وان الحق مع اللغويين الذين يجوزون بناء اسم الآلة من الفعل اللازم والمتعدي ومن الفعل الثلاثي والمزيد ولا أظن ان دعوى النحويين شذوذ ما ذكرنا من الكلمات مسموعة لان الشذوذ عن القاعدة انما يكون بورود كلمة او كلمتين او ثلاث لا بما يكاد يعد بالمئات او اكثر . وكما ان دعوى الشذوذ غير معتبرة ولا مسموعة كذلك يجب ان لا تسمع دعوى كون كل واحدة من هذه الكلمات هي (شبه اسم آلة) لا اسم آلة : فان التسمية لا تحلل حراماً ولا تحرم حلالاً . وبدل ان نكلف الطالب تعقل اسم الآلة بشروطه ثم نكلفه مرة أخرى ان يتعقل شبه اسم الآلة ونتعبه في التفرقة والتمييز بينهما نعمد تواً الى اختصار الطريق عليه ونقرر له ما قاله اللغويون في اسم الآلة وان الآلية تكون حقيقية واعتبارية ثم نورد له الأمثلة الكثيرة على ذلك .

ومما يلتحق بهذا الباب ايضاً ان طائفة أخرى من أسماء الآلات وُصفت بها الأشخاص كقول الشاعر : (شريب خمر مِسعَر لحروب) وقول الآخر :

(جمع الشجاعة والخشوع لربه ما أحسن المحراب في المحراب)

فان كلاً من (مسعر) على وزن منبر و (محراب) على وزن مفتاح اسم آلة وقد خالف النحاة اللغويين في ذلك ولم يريدوا ان يسموهما اسمي آلة ولا ان يطبقوا تعريف اسم الآلة عليهما بل سموهما صيغة مبالغة . وقد اختلف نظر النحاة واللغويين في هذه المسألة شأنهم في مسائل كثيرة : فالنحوي يقول للطالب ان(مفعل) و(مفعال) من صيغ المبالغة : فمسعر حرب معناه البطل المغوار الكثير التسعير لنيران الحروب والمغشم والمحراب والمضياف والمتلاف كذلك هي صيغ مبالغة ومعناها الرجل الشجاع الذي لفرط شجاعته قد يغشم غيره اي يظلمه وهو غير مبال . والرجل الكثير الحروب او الشديد القوة في الحرب . والمضياف الكثير الضيافة للناس . والمتلاف الذي يكثر من إتلاف ماله في سبيل الجود .

اما علماء اللغة فلا يذهبون هذا المذهب في تحليل (المسعر) و(المحراب) وأخواتها وانما يقولون انها أسماء آلات وان المبالغة في وصف الرجل بالشجاعة (في المسعر والمحراب) و بالجود في (المضياف والمتلاف) انما جاءت من صيغة الآلة نفسها : لان

الحكم على شخص بانه آلة لامر من الامور يفهم منه بالضرورة انه متصف بذلك الامر أشد اتصاف ومتمكن من التخلق به فضل تمكن . فالرجل الذي جعلناه آلة سحر وأطلقنا عليه اللفظ الذي يطلق عليها وهو (مسعر) والرجل الآخر الذي جعلناه آلة لإثارة الحروب بين القبائل فأطلقنا عليه اسم الآلة وهو (محراب) — لا يكون هذا الرجل بالضرورة جباناً ولا نكولاً عن الحرب وانما هو بالعكس شجاع لا يهاب الموت . وليس هو شجاعاً فقط بحيث يأتي بنفسه في نار الحرب بل هو آلة لإيقادها وتشجيع غيره من الناس على خوض غمارها . واصطلاء نارها . وقد لاحظ هذا المعنى في صيغة اسم الآلة الشاعر العربي مذ قال : (اذا لم أجن كنت مجن جاني) يقول انه شرير من الطبقة الاولى : فهو اذا لم يباشر عمل الشر بنفسه كان آلة بيد من يريد ان يعمل الشر وهذه مبالغة وإغراق في توصيف نفسه بالشر . فمآل النظرين (نظر النحاة ونظر اللغويين) في تحليل معنى (مسعر) و (محراب) واحد لكن الطريق مختلف .

فتلخص مما تقدم ان اشتراط النحاة في اسم الآلة ان يكون مشتقاً من فعل ثلاثي متعد ينافيه وجود الكلمات الكثيرة من صيغ اسم الآلة الواردة عن العرب والتي نقلها اللغويون وسموها أسماء آلات كما ثبت في تصريح الكسائي والزبيدي والفيومي (صاحب المصباح) فان بعض تلك الاسماء مشتق من اسم جامد . وبعضها من فعل لازم . وبعضها من فعل مزيد على الثلاثي . وهي من الكثرة بحيث تصلح ان تنقض بها قاعدة النحاة المذكورة .

وهنا امور نختم بها مقالنا ولا يحسن إغفالها :

(الاول) ان في العمل بقول اللغويين توسعة وتمكيناً لنا من وضع أسماء للآلات الكثيرة التي لا يحصى عددها في هذا العصر : عصر الآلات والاختراعات بل يظهر انه سوف لا يحصى عددها ولا ينفد مددها في مستقبل الزمان .

(الثاني) أن رأينا في نقد ما قاله النحاة في (اسم الآلة) قد يكون رأياً فطيراً ينكره بعض اخواننا من اهل اللغة جملة واحدة و يراه بعضهم مقبولاً بالجملة لكنه ما زال محتاجاً الى زيادة تثبت وتمحيص . ويوشك ان أكون أنا من اصحاب

الرأي الثاني . فأقترح على هؤلاء الذين يرون في كلامي وميضاً من النور وبصيصاً . ان يزيدوه توضيحاً ويقتلوه تمحيصاً .

(الأمر الثالث) ان التوسعة في هذه المسألة (اي في اشتقاق اسم الآلة من مطلق فعل او مطلق اسم) ينبغي ان تقابل بشيء من التحجير والتضييق بحيث لا يباح لأي كان ان يشتق هذا الاشتقاق بل يرجع الأمر فيه الى المجامع العلمية العربية التي أصبحت او ستصبح كثيرة بحمد الله . والا تعدد الوضع . وأدى ذلك الى الفوضى اللغوية بالطبع .

المغربي

الفيضان في العراق

كفى يا مسقط الوادي اندفاقا … ألا ترعى الجزيرة والعراقا
طغى الوادي كشعب أحرجوه … فما احتمل الهوان ولا أطاقا
ولما قيدوه ليستفيدوا … أبى من قيده الا انطلاقا
بربك أيها الوادي اندنا … وعلّم كيف تفتك الوثاقا
ألسنا أمة ضجرت وملّت … من الباغين رقاً لا انعتاقا
توخيت العمائر باذخات … وجنبت الصغائر والدقاقا
كأنك اذ تخيّرت المباني … هممت بهن قصداً لا اتفاقا
كسا الفيضان ارضنا ثياباً … مصندلةً وأرديةً رشاقا
فآونة مضاعفة غلاظاً … وآونة مهلهلةً رقاقا

بغداد : محمد رضا الشبيبي

تهذيب اللغة للازهري

وملتقطه للزمخشري

« توطئة »

دُفع الناس والحق يقال الى عصر كثير الآفات جمّ الخرافات فقد طغت الآراء وعُبدت الاهواء واوثرت الشهوة على الحكمة والهوى على العقل والفطنة ووطئ الجمهور أعقاب كتبة أغرار كثيري العثار وقلدوا رؤوس الفتن ودعاة البدع ممن يرون من عناوين الارتقاء . عبث الأحفاد بتراث الأجداد ومن شارات الحياة والبقاء رغبة الخالف عن طريقة السلف وذلك في أكثر الأوضاع وجلّ مطالب العمران والاجتماع فها نحن نرى في صميم أقطار الاسلام وسرة بلاد الشرق قوماً مفتونين أبدوا صفحتهم للغة القرآن وعيبة العلم والعرفان داعين الى استبدال أحرفها الهجائية باحرف اللغة اللاتينية او الى الاستعاضة عن الفصحى باللغة العامية . مضمرين من وراء ذلك ما يستعاذ بالله منه : من فساد دخلة وخبث طوية وسوء نية وهيهات يأبى الله ذلك واعلام الملة وأصحاب القبلة وكتب قيّمة وصحف مطهّرة بايدي كرام بررة .

لا نريد بهذا مجرد سرد الأقاويل وايراد الدعوى بلا دليل على غنى لغتنا المباركة وغزارة مادتها لكننا بدلاً من ذلك نتقدم بما يقمع شبهات المبطلين ومفتريات الاعاجم والمستعجمين وسائر من يقرف لغة الكتاب المجيد بضيق عطنها في المفردات والأوضاع الفنية وكل ما هو من شرط الجامع اللغوية فاننا ظفرنا خلال تصفحنا آثار الخزانة الشريفة العلوية في العراق وعثرنا على « ملتقط التهذيب » للامام فخر خوارزم جارالله الزمخشري التقطه من كتاب « تهذيب اللغة » للامام الأزهري والنسخة ظاهرة النفاسة معتنى بضبطها جداً منقولة عن خط الزمخشري بيده عن خط الأزهري كذلك في حجم رسالة لطيفة .

يتألف معظم هذه الرسالة الفذة من ألفاظ خاصة وأوضاع مختارة ومفردات جامعة لاوسع المعاني أحيانا في أوجز العبارات والمباني و يستفاد من درس الفاظهـا

ان الامام الزمخشري رمى في التقاطها الى ما يتوخاه و يرمي اليه فقهاء اللغة العربية وجهابذة المجامع اللغوية و نقدة الاوضاع الفنية قاصداً أسرار الصناعة التي قصدوها رامياً الى تلك الغاية التي رموا اليها من إصلاح المنطق وتحرير اللغة وتهذيب الكلام بطرق عديدة من جملتها انتقاء ألفاظ الخصوص لاستعمالها مكان ألفاظ الشيوع والعموم ونحو ذلك مما لا يُستغرب من امام له في هذه العربية وآدابها غرر معروفة وآثار مشكورة كالفائق والأساس وغير ذلك .

« ملتقط الملتقط »

فيما يلي نبذة التقطناها من ملتقط التهذيب للتدليل على مذهب صاحبها في هذا الباب . غَلِقَ بعض لا يكاد ينفتح . الكَرْمة رأس الفخذ المستدير كأنه جوزة وموضعه التي تدور فيه من الورك . فلان عِدادُه في بني فلان اذا كان ديوانه معهم . هذه الدراهم عديدُ هذه الدراهم اذا كانت بعددها . المعدّيدة الجمّة وجمعها عدايد . العُدَّة البثر يخرج على وجوه الملاح : العرار بهارُ البَرّ الواحدة عرارة . العِداد يوم العطاء ويوم العرض . عُرعُرة القارورة وكاؤها . رجل لذّاعة (مشدّدة) يتكلف الألحان من غير صواب . المائمة (مخففة) المِعْبَرُ وهو عيدان يسند بعضها الى بعض و يعبر عليها . الانطوعة شيء تبعث به الجارية الى صاحبها . المُقطعُ الذي لا ديوان له . رجل مُقعَد الأنف هو الذي في منخريه سعة و قصر . القعدة دابة الركوب خاصة . المِعرق حديدة تبري العراق من اللحم يقال عرقت ما عليه من اللحم بمعرق اي بشفرة . القرع والنّدب والسّبق الخط الذي يسبق عليه . القرّاع طائر له منقار غليظ أعقف يأتي العود اليابس فلا يزال يقرعه حتى يدخل فيه . الرّقيع السماء الدنيا . الملاق مايُملّق عليه الشيء . الأعقاب خزف تجعل بين الآجر في الطي لكي يشتد . المُعقّب الرجلُ يخرج من حانة الخمّار اذا دخلها من هو أعظم قدراً منه . القُبعة طوير أبقع كالعصفور يكون عند جحرة الجرذان فاذا قرع الجحر[١] . المُقمي من الكلام غريب الغريب يقال انه لعالم بعقمي الكلام وهو الغامض الذي لا يعرفه الناس وهو مثل النوادر قال ابو عمرو :

(١) لعل صواب العبارة هكذا : عند جحَرة الجرذان فاذا فزع انجحر . (المجمع)

سألت هذليًا عن حرف غريب فقال هذا كلام عُقمي . الأكرع الدقيق مقدم الساقين .

« المجلدة الثانية »

العِجازة والعظامة ما تُعظّم به امرأة عجيزتها . المساجيل مختصرات الطرق يقال خُذ لكُ معاجيلَ الطرق فانها أقرب . جمل مِعجال وناقة مِعجال اذا وثب قبل استواء الراكب عليه . رجل مِجّاعة يحب الجيع اي التمر في اللبن . العَرش ظهرُ القدم . عرش الثريا كواكب قريبة منها . الاظفر الطويل الاظفار . المِعضاد سيف مع القصابين تقطع به العظام . الباضع في الابل مثل الدلال في الدور . اللحم المُعرض الذي على الجمر فيختلط بالرماد والمملول الذي غيّبته في الجمر والمُغاد الذي شويته فوق الجمر . المصنّعة المدعاة للاخوان . التّصعان المكشوف الرأس ابداً حرارةً . العصائب العمائم الواحدة عِصابة . العزيز ثمن الكلاء مرادية يقولون هل أخذتَ عزيز هذا الحصيد اي هل اخذت ثمن مراعيها لانهم اذا أجدبوا باعوا مراعيها . المنزعة بكسر الميم خشبة عريضة كالملعقة ينزع بها المُشتار النحل من الشهد اذا التصق به . معاطل المرأة مواقع حليها . القُطاعة اللقمة يؤكل نصفها ثم ترد الى الخوان وهو عيب . الناعط السيئ الادب في اكله . العوطب اعمق موضع في البحر والعوطب المطمئن بين موجتين . الطبّاع الذي يأخذ الحديدة فيُسويها سكينًا او سيفًا او سنانًا وحرفته الطباعة . اضرب به على طبع هذا وغراره وصيغته . فلان طيّب الطُعمة وخبيث الطُعمة اذا كان من عادته ان لا يأكل الا حلالاً او حرامًا . في بستان فلان من الشجر المُطعِم كذا اي من الذي يؤكل ثمره . قوس مطعمة يصاد بها كثيراً . امرأة مِطباع تُطمع ولا تمكّن .

« المجلدة الثالثة »

العدّاد الملاّح . العددَ القبيلة الكبيرة . رجل عُدلة وقوم عُدلة وهم الذين يزكون الشهود ويُعدّلونهم . المعابد المساحي والمرور . دُمّاع الكرم ما سال منه ايام الربيع . العَدَلة المدَرةُ الكبيرة تنقلع من الارض اذا أثيرت . رجلٌ تَلِعٌ كثير التلفّت . الثُبنة ما غبنته من قُدام السراويل اي جمعتَه وطويته من مقاديم الحجزة حتى أشمّر . اتخذَ في كرمه عذاراً من الشجر اي سِكّة . العاذور ما يُقطع

من مخفض الجارية · عَذَبة الشِراك المرسلة منه · عَذَبة السوط علاقته · عذّب سوطك اجعل له علاقة · العرَنة شجرة على صورة الدُلب يقطع منها خُشُب القصّارين التي تدفن وجمعُها عُرَن و بايعها العرّان · العراب حمل الخزم وهو شجر تفتل منه الحبال الواحدة عرابة تأكله القرود والناس في المجاعة · العرابةُ واحدة العرابات وهي شُمُل ضروع الغنم والعرّاب التي يعملها · الرَّباع الذي يكثر شرى الرباع أي المنازل · يرابيعُ المتن لحمه · غلام مُعبَّرٌ كَبُرَ ولم يختن · النغانغُ واللغاديد اللحماتُ التي بين الحنك وصفحة العنق · البثمغة خروج الماء من الحوض · البرطمة اكتراء الإبل والحمير للناس · البراغيل أمواهٌ تقرب من البحر · البتّ القطع لما لا رخصة فيه ·

« كلمة عن التهذيب المذكور »

من أجلّ الاصول اللغوية ومن الامهات النادرة او المفقودة كتاب (تهذيب[1] اللغـة) للامام ابي منصور محمد بن احمد بن الازهر الازهري اللغوي المتوفى سنة ٣٧٠ احد أعلام المسلمين الذين رحلوا وطافوا البلاد وتجشموا المشـاق وجدوا واجتهدوا في طلب اللغة وتصحيحها وتحقيقها ، اتفقت له في هذا الباب حكاية تكاد تلحق بالنوادر (راجع إرشاد الأريب ٦ : ٢٩٧) كما ان العنـاية والاهتمام بكتابه بلغا مبلغاً يكاد يدخل ايضاً في جملة الطرائف والحكايات (راجع وفيات الاعيان ٢ : ٢٣٣) و بالجملة فان التهـذيب من الاصول الصحيحة المهمة لا تكاد تجد مرجعاً من المراجع اللغوية المشهورة الجليلة خالياً عن الأخذ عنه والاقتباس منه والاحتجاج باقوال مؤلفه فيه · النجف الاشرف :

محمد رضا الشبيبي
عضو المجمع العلمي العربي

---

(١) راجع مجلة المجمع (ص ٢٧٠ مجلد ١) ترى فيه كلاماً مسهباً عن (تهذيب الأزهري) · (المجمع)

قانون البلاغة

— ٣ —

اما حصر المعاني بقوانين كلية تستوعب أقسامها ، وتستوفي أحكامها ، فعسير لانه يحتاج فيه الى تقديم صناعات كثيرة ، وعلوم شاقة ، الا ان في فطر الناس السليمة اتباع الصواب وقصده . والتّنفار من الخطإ والحياد عنه ، فقد يكتفي من سلم فكره ، ولم يضطرب ذهنه ، بما معه من المعرفة التي يوقع(؟) العبارة عنها . الا ان لهذه الصناعة خاصة أغراضاً من المعاني ، يلزم الكلام فيها ، ومقاصد لا يسع الاخلال بها .

فاما نعوتها فمنها صحة التقسيم ، وهي ان يؤتى بالأقسام مستوفاة ، لم يخلّ بشيء منها ، ومتخلصة لم يدخل بعضها في بعض ، كقول من قال : لم تخلُ فيما بدأتني به من مجد أثلته ، او شكر تعجلته ، او أجر ادخرته ، او متجر اتجرته .

ومنها صحة المقابلات[1] : وهو ان يؤتى بمعانٍ يراد التوفيق بينها وبين معانٍ أخر . والمضادة فيؤتى في الموافق بموافقه ، وفي المضاد بمضاده ، كقول القائل : اهل الرأي والنصح لا يساويهم ذوو الأفن والغش ، وليس من جمع الى الكفاية الامانة ، كمن اضاف الى العجز الخيانة .

فمن تأمل هذه المعاني وجدها في غاية المعادلة ، لانه جعل بازاء الرأي الأفن ، وبازاء النصح الغش ، ومقابل الكفاية العجز ، ومقابل الأمانة الخيانة . فهذا التقابل تعديل في الموافقة والمضادة .

ومن هذا الجنس قول هند بنت النعمان بن المنذر بن ماء السماء الملك للمغيرة بن

---

(١) وجد في هامش الأصل ما يأتي : والمتكلم فيها قوله تعالى : « فأما من أعطى واتقى وصدّق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، واما من بخل واستغنى وكذّب بالحسنى فسنيسره للعسرى » . لما جعل التيسير مشتركاً بين الاعطاء والاتقاء والتصديق ، جعل في مقابلتها التعسير مشتركاً بين المنع والاستغناء والتكذيب فافهم اه .

شعثه بعقب إحسان منه اليها : شكرتك يدٌ نالتها خصاصة بعد نعمة ، وغنيت عن يدٍ نالت ثروة بعد فاقة ٠

ومنها صحة التفسير وهي ان توضع معانٍ تحتاج الى شرح احوالها ، فاذا شرحت أُتي بتلك المعاني من غير عدول عنها ولا زيادة عليها ولا نقصان منها ٠ كقول من قال : وانا اثق من مساءلتك في حال ، بمثل ما اعلمه من مشاركتك في أُخرى ، لانك ان عطفت وجدت لدناً ، وان غمزت الفيت شيئاً ٠

وكقول آخر : واين يُذهب بك ، مع غزير انعامك ، وشديد احكامك ، واليم انتقامك ، ان تكون مشباعاً للضيف ، ومدفاعاً للحيف ، ومناعاً من الخوف ٠

ومن نعوت المعاني التتميم ، وهو ان توجد في المعنى كتابة او خطابة فيوفى بجميع المعاني المتممة لصحته ، المكملة لجودته ، من غير ان يخلّ ببعضها ، ولا ان يغادر شيئاً منها ٠ كقول القائل : لحقت به اسباب الجلالة ، غير مستشعر فيها لنخوة ، وترامت به احوال الصرامة ، غير مستعمل فيها لسطوة ، هذا مع زمانة [1] في غير حصر ، ولين جانب من غير خَوَر ٠ فقد اتى هذا المتكلم بتتميمات المعاني التي جاء بها من غير ان يخلّ بشيء منها ٠

ومن نعوت المعاني المبالغة ، وذلك ان يذكر معنىً بما لو اقتصر عليه لكان كافياً فيما قُصد له ، فلا يقتصر على ذلك حتى يؤكد معانيه ، ويعتمد المبالغة فيه ٠ مثل قول الاعرابي : اللهم ان كان رزقي نائياً فقربه ، او قريباً فيسره ، او ميسراً فعجّله ، او قليلاً فكثّره ، او كثيراً فثمّره ٠ فهذه مبالغات تؤكد المعنى وتزيد فيه ٠

ومن نعوت المعاني التكافؤ وهو ان يتكلم في امر من الامور فيؤتى فيه بمعانٍ متكافئة ، واعني بمتكافئة في هذا الموضع متقاومة اي ان كل اثنين منها متعاند حتى اذا قيل في معنىً ان شيئاً اسود أُتي بآخر ، يقال فيه ان شيئاً ابيض الى غير ذلك من وجوه العناد ٠ مثل قول من قال : كدرُ الجماعة ، خير من صفو الفرقة ، ومثل قول القائل : وكان اعتدادي بك اعتداد من لا ننضب عنه نعمة تغمرك ، ولا يمرّ عليه عيشٌ يحلو لك ٠ فقوله بازاء تنضب ، تغمر ، ويمر ، يحلو ، من التكافؤ ٠

(١) زمت الرجل زمانة وقر ٠

فاما عيوب المعاني فان من كان حافظاً لما قدمناه في باب نعوت المعاني فسيهون عليه تعرف عيوبها • وجماع ذلك ان تكون المعاني معدولاً بها عن الاغراض المنتحاة ، والمقاصد المتوخاة ، الا ان من تفصيل ذلك الاستحالة والامتناع والتناقض :

فاما المستحيل فهو الشيء الذي لا يوجد ، ولا يمكن مع ذلك ان يتصور في الفكر ، مثل الصاعد والنازل في حال واحدة ، فان هذه الحال لا يمكن ان تكون ولا تتصور في الذهن : واما الامتناع فهو الذي وان كان لا يوجد فيمكن ان يُتخيل، ومنزلته دون منزلة المستحيل في الشناعة مثل ان تركب اعضاء حيوان ما ، على جثة حيوان آخر ، فان ذلك جائز في التوهم ، ولكنه معدوم في الوجود •

واما التناقض فبان تجمع بين المقابلة من جهة واحدة •

والمعاني تتقابل على اربعة اوجه : اما على طريق الاضافة ، مثل الاب للابن ، والضعف للنصف ، والمولى للعبد • واما على طريق التضاد ، مثل الأسود للأبيض ، والحار للقار ، والخير للشرير • واما على طريق الملكة [1] والعدم ، مثل البصير للاعمى ، والموسر للفقير ، وذي الوفرة للأصلع •

واما على النفي والاثبات مثل ان يقال : زيد جالس ، زيد ليس بجالس ، فالثلاث المقابلات الاول تكون في المعاني ، والرابعة تكون في اللفظ وحده ، ولكن هذا التقابل الأخير لما كان قد يعتقدا ايضاً ، حتى لعل من يعدم اللفظ ، يشير الى ما في نفسه منه إشارة بغير اللفظ ، كما يشير الأخرس مثلاً بان يحط يده الى أسفل في الايجاب ، او يرفعها الى فوق في النفي ، وماجرى هذا المجرى — أضفنا الكلام فيه الى الكلام في المعاني •

وقولي في جميع هذه المقابلات من جهة واحدة ، انما اردت به هذا هو الشنيع الجاري مجرى العيب • فاما ان يكون مثلاً في باب المضاف انسان ما اباً لزيد ، وابناً لبكر ، ومولىً لفلان وعبداً لآخر ، و يكون عدد ما ، نصفاً لعشرين وضعفاً لخمسة ، وكذلك في التضاد مثل ان يكون الفاتر حاراً عند البارد ، و بارداً عند الحرق ، وفي الملكة والعدم مثل ان يكون انسان بصير القلب ، أعمى العين ،

(١) خ القنية •

او معسراً من عرض ، موسراً من آخر ، وفي الاثبات والنفي مثل ان يكون زيد جالسَ الظُهر ، ليس بجالس العصر ، فجميع ذلك جائز .

فاما المنكر المستبشع الذي اومأنا الى انه اذا وجد في معنىً كان معيباً ، فمثل ان يجعل رجل ما ، اباً لزيدٍ وابناً له ، وعدد ما ضعفاً لخمسةٍ ونصفاً لها ، وشيء ما حاراً عند رجل ، وبارداً عنده بعينه ، وانسان ما ، اعمى القلب بصيره ، و يجعل زيد قائماً في هذا الوقت ، غير قائم فيه نفسه ، فهذا كله فاسد لايجوز ، لان التقابل جُعل فيه من جهة واحدة ، فيصير حينئذ تناقضاً ، وهو من أفحش عيوب المعاني المعبر عنها بالكلام المنثور ، والكلام المنظوم ايضاً .

ومن عيوب المعاني فساد التقسيم وذلك يكون على ثلاثة أوجه : اما بتكرير المعنى ، او بان يؤتى منها ما يكون بعضه داخلاً تحت بعض ، او بان يخل بما يقتضي المتكلم فيه استيفاؤه . فاما التكرير فمثل ما كتب بعضهم الى عامل : ففكرت مرة في عزلك ، وأخرى في صرفك ، وتقليد غيرك . ومثل قول هذا الرجل لهذا العامل : فتارةً تسترق الأموال وتختزلها ، وتارةً تقتطعها وتحتجنها ؛

واما دخول بعض الأقسام في الآخر ، فمثل ما سأل بعض النَّوكى فقال : اخبروني عن علقمة بن عبدة جاهلي هو ام من بني تميم . ومثل قول بعض المترسلين في فتح : فمن بين جريح مضرَّج بدمائه ، وهارب ما يلتفت الى ورائه . فكلا هذين القسمين يدخل في الآخر ، لان الجريح قد يكون هارباً ، والهارب قد يكون جريحاً .

واما الإخلال ببعض الأقسام فمثل قول القائل : انك لا تخلو في هربك من صارفك ، ان تكون قدمت اليه إساءة خفت منه معها ، او خنت في عملك خيانة ، رهبت بكشفه إياك عنها ، فان كنت اسأت فأول راضٍ سنةً من يسيرها ، وان كنت خنت خيانةً ، فلا بد من مطالبتك بها . فكتب العامل تحت هذا ، هذا التوقيع : قد بقي من الأقسام ما لم تذكر : وهو اني خفت ظلمه إياي بالبعد منك ، وتكثيره عليَّ بالباطل عندك ، ووجدت الهرب الى حيث يمكنني فيه دفع ما يتخرصه انفى للظنة عني ، والظلم عمن لا يُؤْمن ظلمه اولى بالاحتياط لنفسي .

ومن عيوب المعاني ، فساد المقابلات ومن كان حافظاً لما ذكرنا من صحة المقابلات

في باب نعوت المعاني ، وقف بسهولة على الوجه في فسادها ، وذلك ان يُذكر معنىً يقتضي الحال ذكر ما يوافقه ويعانده ، فيؤتى بما لا يوافق ولا يشاكل ، او بما لا يقاوم ولا يعادل ، فليس المقول فيه من الناس انه خير على الاطلاق معانداً للمقول منهم انه مارق ولا موافق .

ولهذا لا يحسن في البلاغة ، وكلام اهل الحجى — لم يأتني من الناس أسود ولا أسمر — بل الأجمل ان تقول ولا أبيض ، لان الاسمر ليس يعاند الأسود غاية المعاندة ، ولا يوجد منه في غاية المباعدة . وكذلك لو قال قائل : ماصاحبت في هذا البلد خيّراً ولا شريراً ، كان ذلك أذهب في سبيل السّداد ، من قوله خيّراً ولا سارقاً .

ومن عيوب المعاني فساد التفسير ، ومن كان ذاكراً لما قدمناه من نعت هذا الباب ، عرف الوجه في عيبه . ومن المثالات في ذلك قول بعض المترسلين الى عامل من عمال الأطراف : ومن كان لأمير المؤمنين كما انت له من الذب عن ثغوره ، والمسارعة الى ما يهيب به اليه ، من صغير خطب وكبيره ، كان جديراً بنصح امير المؤمنين في أعماله ، والاجتهاد في تثمير أمواله ، فليس التي قدّم من الحال التي عليها هذا العامل في الذّب عن الثغور ، والمسارعة في الخطوب ، مما سبيله ان يُفسَّر بالنصح في الأعمال ، وتثمير الأموال ، اذ كان الذي قدّمه لا يلزم عنه مافسر به .

ومن نعوت البلاغة : ان البلاغة ثلاثة مذاهب يقصد في استعمالها : المساواة والإشارة والتذييل . فالمساواة ان يكون اللفظ كالقالب للمعنى لا يفضل عليه ، ولا ينقص عنه . والإشارة ان يكون اللفظ مشاراً به الى المعنى كاللمحة الدالة . والتذييل إعادة الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد بعينه . حتى يظهر لمن لم يفهمه ، ويتوكد عند من فهمه ، ولكل مذهب من هذه المذاهب موطن يليق به ، ووقت لا يصلح فيه غيره .

فاما المساواة فأولى المواطن بها اذا كانت المخاطبة للنظراء ، ومن ليست له مآرب تشغله ، ولا شؤون تصرفه ، عن استيفاء المعنى الى آخره .

واما الإشارة فأولى الأوقات بها الوقت الذي يخاطب او يكاتب فيه ذوالمراتب العالية ، والشؤون الكثيرة ، والهمم المنقسمة ، لان من كان في هذه الطبقة احتاج

ان لا يشغل خاطره بمعنى واحد بعينه ، ولا ينفد زمانه اهتمام بغيره ، وكان الوحي[1] عنده أنفق من الإطالة ، والإشارة اليه اولى من تطويل المقالة .

واما التذييل فانما سبيله ان يستعمل في المواطن الجامعة ، والمواقف الحافلة ، وقد قال بشر بن المعتمر : ينبغي للمتكلم ان يعرف أقدار المعاني ، فيوازن بينها وبين أقدار المستمعين ، ويجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكل حال مقاماً ، حتى يقسم اقدار المعاني ، على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين ، على تلك الحالات .

واذ قد ذكرنا من أحوال هذه المذاهب الثلاثة ما أنبأ عن صورة الأمر ، فانا نأتي في كل مذهب منها بمثال مما تقدم استعمال البلغاء إياه في جنسه ، ليزيد ذلك من عمله شرحاً لما وعاه من معانيه ، ويبني من لم يفهمه عن حقيقة الحال فيه ، وابدأ من ذلك بمذهب الإشارة .

قال احمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعّد فيه طرفه ويصوّب ، فلما مرّت على ذلك مدة من زمانه ، التفت اليّ وقال : يا احمد أراك منكراً فيما تراه مني ، قلت : نعم فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة ، زعم ان البلاغة انما هي التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على كثير المعنى ، وما كنت أتوهم ان احداً على ذلك حتى قرأت هذا الكتاب ، ورمى به اليّ وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا . ففككته فاذا فيه :

« كتابي الى امير المؤمنين ومن قبلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الإنقياد والطاعة ، على أحسن ماتكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه امورهم » . فلما قرأته قال : ان استحماني إياه ، بعثني ان امرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة أشهر ، وانا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حل محله في صناعته .

---

(١) الوحي المكتوب والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه كيف كان ثم غلب على وحي الانبياء . وقيل الوحي إعلام في خفاء ، فالمراد هنا اعلام في ايجاز كلام سريع التلقين .

وأمر المأمون عمرو بن مسعدة ان يكتب لرجل به عناية الى بعض العمال في قضاء حقه وان يختصر كتابه ما امكنه ، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد ، لا زيادة عليه ، فكتب عمرو : كتابي كتاب واثق بمن كتبت اليه ، معنى بمن كتبت له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله ·

وكان جعفر بن يحيى[1] يقول لكتابه : ان استطعتم ان يكون كلامكم كله مثل التوقيع فافعلوا · وكتب ابراهيم بن ابي يحيى الى بعض الخلفاء يعزّيه ، ويجري في المذهب الذي نحن بسبيله وشي : اما بعد فان أحق من عرف حق الله عليه ، فيما اخذ منه ، من عظّم حق الله فيما بقّاه له ، واعلم ان الماضي قبلك ، هو الباقي لك ، وان الباقي بعدك ، هو المأجور فيك ، وان أجر الصابرين فيما يصابون به ، أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه ·

ودخل بعض البلغاء على بعض الامراء فقال : السلام عليك ايها الأمير ، سلاماً يتصل أمثاله اسمعك ابداً ما بقيت ، إما من وليك ، بطوع قلبه ، وصادق وده ، وإما من عدوك برغم أنفه ، وذل خده ·

ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى الإرداف : وهو ان يراد للدلالة على معنىً ، فلا يؤتى باللفظ الخاص ، بالدلالة على المعنى نفسه ، بل بلفظ هو ردفه ، وتابع له ضرورة ، ليكون في ذكر التابع ، دلالة على المتبوع ، وهذا المذهب يوجد كثيراً في الاشعار ، وبلاغة الأعراب ، مثل ما قالت أعرابية تصف رجلاً : ولقد كان منهم عمار ، وما عمار ، لم تخمد له قط نار ، طلاّب باوتار · وانما أرادت بقولها لم تخمد له قط نار : كثرة إطعامه الطعام ، فلم تأت باللفظ الدال على هذا المعنى نفسه ، بل ذكرت إيقاده النيران ، لان ذلك تابع لاتخاذ الطعام · ومثل قول أخرى وصفت زوجها فقالت : اخذني من اهل غُنيمة بشق فجعلني في اهل صهيل وأطيط ودائس ومنق · فأرادت انه اخذها من اهلها وهم فقراء لهم غنم قليلة ، فجعلها في قومه ، وهم أغنياء لهم خيل تصهل وإبل تئط اي ترغو ومزدرع يُغَل · فأكثر هذه المعاني التي

(١) زفي الهامش : وهو قريع دهره ونسيج وحده في معرفة البلاغة اه ·

أنت بها ، انما هي أرداف معان أشارت الى الدلالة عليها . وكذلك قول سائر الاعرابيات اللاتي هن في حديث أم زرع وقد ذكرنا صدراً في كتاب نقد الشعر .

ومما جاء في ذلك من بلاغات المحدثين : ما كتب به بعض الكتاب الى صديق له فقال : وكيف لا أتمسك بعهدك ، وأتشبث بعلائق ودّك ، وانت ممن لا تقلى صحبته ، ولا تخشى غيبته ، ولا يكد الصديق عتبه ومعاتبته ، فهذه الألفاظ مجراة مجرى الإرداف . فأراد بقوله لا تقلى صحبته اي لا يسيء الى مصاحبه ، واذا لم يسيء لم يُقلَ ، ولا تخشى غيبته ، انه ليس بشرير ، ولا وقّاعة في الناس ، ولا يكد ذلك انه لا يتجنّى على صديقه فيعاتبه فيما لا اصل له ، ولا يسيء عشرته فيحوجه الى معاتبته .

ومما جاء من ذلك قول من قال حتى اذا ثار النقع ، والتف الجمع بالجمع ، واحمرت الأحداق ، وقامت الحرب على ساق . وكل هذه الاشياء تدل على معركة الحرب .

ومن نعوت إشراك اللفظ والمعنى التمثيل وهو ان يراد الاشارة الى معنى فتوضع ألفاظ تدل على معنى آخر ، وذلك المعنى وتلك الالفاظ ، مثال للمعنى الذي قصدت الاشارة اليه ، والعبارة عنه . واكثر الاستعمال لهذا المذهب انما هو في البلاغة الشعرية . وقد استعملها الكتاب في رسائلهم ، والخطباء في خطبهم ، فيكون ذلك مما يحسن موقعه ، و يبين في البلاغة موضعه .

ومن الأمثلة في ذلك كتاب يزيد بن الوليد الى مروان بن محمد ، وقد بلغه «انه» يتلكؤ في بيعته . اما بعد فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيتهما شئت والسلام . فلو كتب : اذاك أتاك كتابي هذا فبايع لم يكن للفظه من العمل في المعنى ، ما للتمثيل الذي اتي به . «للبحث صلة»

الدكتور صالح قنباز

فجع المجمع العلمي العربي بعضو عامل من جهابذة أعضائه الدكتور صالح قنباز ففقدت الشام بفقده أستاذاً مربياً ، وطبيباً نطاسياً ، وأديباً خطيباً ، ومخلصاً صالحاً في سيره وسيرته . هو صالح بن محمود بن صالح قنباز . ولد في حماة في حجر الطهر ومخافة الله ، من ابوين كريمين في سنة ١٣٠٥ هـ — ١٨٨٧ م نغذاه والده بلبان الفضائل ، وطبعه بطابع التدين ، وأتم دراسته الاولى في بلده ، فظهرت آثار نبوغه ، وجمال أدبه ، وانقلب بعد ذلك الى المدرسة الاميرية في سنة ١٣١٥ هـ فدرس فيها العربية والتركية والفرنسية ومبادئ العلوم . وكان خلال ذلك يدرس علوم الدين واللسان على أساتذة خاصة . ولما أنجز دروسه في هذه المدرسة مُرْبياً بذكائه .ودروسه على عامة أقرانه ، دخل المدرسة الثانوية في دمشق فنفحت كمائم ذكائه وتجلت آثار قواه العقلية ، وتعرف الى الطبقة العلمية العاملة اذ ذاك وكان على رأسها المرحوم الشيخ طاهر الجزائري ولزم مجالسهم واخذ من علمهم وافكارهم ، وامتاز في درس الرياضيات امتيازه في سائر الدروس .

ولما أتم دروسه الثانوية تحوّل الى مدرسة الطب في دمشق ثم ذهب الى الاستانة وعاد بعد مدة لإكمال طبه فأتمه ، وكان اختصاصه بالامراض الباطنية ، ونال شهادته في سنة ١٣٢٨ هـ وعاد الى بلده يطب المرضى ويواسي البائسين ، ويخدم الامة بمعارفه ، ويلقي بعض الدروس في المدارس النظامية ، وأهم ماغلب عليه وعلق باجزاء نفسه علم التربية والتعليم ، لقفه من الكتب ، وثقف أكثره بالتجربة ومعاناة التدريس ، وكان له الرأي الجميع والقول الفصل في جميع ما وصل اليه من امور المعارف ، وما شارك فيه بالرأي في مجالسها ومدارسها ، او كما قال فيه احد المترجمين له : « ولا يعرف الحمويون مشروعاً نافعاً تم في بلدهم ولا حركة مباركة قاموا بها الا كان هو رأسها او التيار الكهربائي في اسلاكها » .

وأدخل الجيش طبيباً في الحرب العامة فطاف الغامر من بلاد الشام وزار المدينة

المنورة . ولما وضعت الحرب أوزارها أسس بمعاونة صديقه السيد نورس الكيلاني مدرسة وطنية دعيت « دار العلم والتربية » فكان منظمها وعميدها ومن أفضل أساتذتها . وهذه المدرسة الوطنية الوحيدة التي غنيت ببنائها واوقافها بما اغدق من المعاونات المالية عليها . وقد تم لها ذلك بفضل بعد نظر عميدها وكثرة مساعيه مع اهل الطبقة المثلى في بلده . وانتخب عضواً في المجمع العلمي في ٤ نيسان سنة ١٩٢٣ وفي تشرين الاول ١٩٢٤ رحل الى باريز للبحث في المكتشفات الطبية الحديثة ومشاهدة دور الآثار والعلم فيها فانتخبته الجمعية الآسياوية في باريز عضواً فيها ، وعاد بعد ان قضى في عاصمة فرنسا نحو سنة وحج قبل ان يعوج بوطنه ، فكان حجه حجاً علمياً وحجاً دينياً .

والقى لدن عودته من الديار الحجازية والاقطار الفرنسية عشر محاضرات في النادي الادبي في حماة ، افاض فيها يجب علينا اخذه من المدنية الغربية ، وما يجب التباعد عنه ، ومثل الحياة الغربية في نظامها وترتيب دورها ومعاهدها واعمالها واقتصادها ومظاهرها ، مما كان له الاثر الطيب في ناشئة بلده . وللفقيد العزيز عدة تآليف لم تمثل بالطبع ، وكان يلقي بعضها على تلامذته منها كتاب الدرس الابتدائي في الفلسفة مع نظريات تاريخها ترجمه عن الافرنسية لمؤلفه اميل بوراك ، والف عدة كتب في العلوم الطبيعية وحفظ الصحة والنباتات ودروس الاشياء والاقتصاد للصفوف الثانوية ، ورسائل في تجويد القراءة وأخرى في تعليم الفبا وثالثة في علم الفرائض ، شفعها ببحث في اصول تقسيم الاراضي بحسب القوانين الموضوعة اخيراً ، هذا عدا عشرات من محاضرات في التاريخ والادب والتربية غذى بها ارواح طلاب الاستفادة . وعشرات من المقالات العلمية والأدبية والسياسة التي فاضت بها قريحته في الصحف والمجلات ، وله مفكرات نفيسة ولا سيما في دور الكتب التي زارها في مصر والشام وفروق وباريز ومكة والمدينة .

وخص الفقيد بطلاقة في لسانه ادمجته في عداد الخطباء العلماء ، يخطب ساعة وساعتين بكلام ملؤه ادب ، وسداه الاخلاص ولحمته حب النهوض ، وله شعر لطيف خصه باغراض عالية من اغراض النفس ، وهاك نموذجاً منه قاله في وصف وادي

النار بين معان والعقبة والفرندل ووصف قاطنيه من عشيرة الحويطات وغيرهم وتعرض فيه لظلم العثمانيين وفساد إدارتهم :

سهول زانها شيح وعشب | وأخرى كل تربتها رمال
واودية تخددها سهول | بها رثم ورمت او سيال (١)
مياه نفحها نفح شحيح | وكم من مثلها غدر وآل
وغابات بوادي العرب قامت | تطل على جوانبها الجبال
تمر الشمس مشرقة عليها | فتحرقها ومغربها « القنال »
وتبدو النجم حيناً فتجري | ثقالاً ثم تغرب والهلال
بها قوم مساكنهم جميعاً | كهوف او خيام او ظلال
سعيديون رهط لابن جاد | حويطات وكلهم قلال
رؤوس ملؤها عقل وجهل | ولم يمنع تقدمها العقال
عراة في اديم من سواد | حفاة الجلد أخمصها نعال
يطوفون الفيافي كالجواري | وهم في عين جارية عيال الخ

وله مقاطيع واناشيد وطنية جميلة اشتهرت في المدن الداخلية في الشام . ولما ثارت الفتنة في حماة يوم ١٧ ربيع الاول ١٣٤٤ (٤ تشرين الاول ١٩٢٥) قام بواجبه الانساني في تضميد جراحات الجرحى ، ومن الغد سمع من داره صوت احد ذوي قرباه فهب لنجدته فأصيب برصاصتين أصابتا منه مقتلاً فاستأثر به مولاه ، حميد الاثر ، مجيد الخطر .

اهم صفات المترجم له التؤدة والدؤوب ، والصبر والجد ، والسعي الى ترقية الامة من طريق التهذيب في هوادة وسكون طائر ، وفي الحق انه لم يفتر حياته عن بث دعوته الاصلاحية ، بالطرق العملية والعلمية ، وكان محبباً الى النفوس ،موقراً في

(١) (الرثم) نبت ابري الورق تطعمه الغنم وقد يصير شجراً و (الرمت) لايطول كثيراً وهو ذو شوك قصير ترعاه الابل و (السيال) نبت ذو شوك ينبت في الارض الرملية و يصير شجراً وورقه رتشي صغير ترعاه الانعام فتسمن به .

الصدور ، قوي الحجة والمارضة ، ولو طالت ايامه لسمع صوت اصلاحه ومبادئه في التعليم والتهذيب في الشام بأسرها ، بل وتعداها الى الاقطار المجاورة .

وان كل من عرف الصديق الراحل ، ليقضي له بالتفرد بين ابناء جيله في علمه وتهذيبه ومراميه العالية في الاصلاح الاجتماعي الذي بدأ به من المدارس الوطنية القائمة على تقوية الملكات والعواطف القومية الشريفة . رحمه الله عداد حسناته لهذا الوطن وعزى الفضائل والآداب بهذا الرجل الصالح الذي استولى في هذا العمر القصير على خصل السبق في مضمار الجهاد العقلي والحياة الانسانية الكاملة فكان حقاً وصدقاً طبيب اشباح وحكيم ارواح . م . ك

اعضاء المجمع في الغرب

« السيد يوحنا اهتيتين كرمسكو »

هو يوحنا بن صموئيل اهتيتين كرسكو وزوجه الشرعية لوفيز كلاهما من طبقة الفلاحين . وهو استاذ للفلسفة خريج جامعة « هيلسينغفورس » قاعدة الجمهورية الفينلندية ، ومدير مدرسة بلدة كنغاصالا من اعمال فينلنديا (سومي) . ولد في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول سنة ١٨٨١ . ويدين بالمسيحية على مذهب الفرقة « التقوية » المنشعبة من الطائفة الانجيلية اللوثيرية .

دخل المدرسة الاعدادية في خريف سنة ١٨٩٣ وأتم دروسه في ربيع سنة ١٩٠٢ ثم التحق بجامعة هيلسينغفورس في خريف سنة ١٩٠٣ وأنجز دروسها في ربيع سنة ١٩٠٨ وأحرز شهادة أستاذ في الفلسفة في اليوم السادس عشر من شهر شباط سنة ١٩١٢ .

وفي اول سنة ١٩١٣ دخل فرع اللغات الشرقية في جامعة لينينغراد فدرس اللغات : العربية والفارسية والتركية وتمرن فيها الى نهاية سنة ١٩١٤ وتولى إدارة المدرسة الاعدادية الفينلندية في ضواحي لينينغراد الى نهاية سنة ١٩١٧ ثم تحرير صحيفة فينلندية في مدينة آبو عاصمة فينلنديا قديماً .

وكان قد درّس اللغات والعلوم في مدارس وطنية في سني : ١٩٠٢ — ١٩٠٣ ١٩٠٥ — ١٩٠٦ و ١٩٠٩ — ١٩٢٤ .

اما اللغات الاجنبية فيحسن منها : الروسية والالمانية والاسوجية والفرنساوية والانكليزية ويعرف اللاتينية والسلافية وفروعها الصربية والبلغارية والبولونية وغيرها . وتزوج سنة ١٩٠٩ المعلمة ايريني ابنة انطون كرسكو ورزق منها ولدين ذكراً وأنثى اسمها البمّري ورَونى .

وقد أحب اللغة العربية وهو صغير السن اذ كان يقرأ اخبار السيّاح ومذكرات أستاذ اللغة العربية في جامعة هيلسينغفورس المرحوم عبد الولي (جورج والين) وصار همه الشاغل نشرها بين شبان فينلنديا وفيها ينشر في صحف الاخبار والمجلات المقالات الممتعة تحقيقاً لهذه الغاية المحمودة ، ولا يني حتى اليوم يسعى في نشر هذه الضالة المنشودة . وهذا هو تعريب شهادته :

« ما أبصر الله بادارة الاشياء كلها .

« انه في سلطنة نقولا الثاني عاهل الروس كلهم وامير فينلنديا العظيم السامي الجلال » .

« رُقي الرجل الجليل جداً يوحنا صموئيل أهتينين كَرَسكو طالب الفلسفة الى درجة أستاذ للفلسفة وجُوّز بجميع حقوق هذه الدرجة وامتيازاتها وفقاً (لنظام اندراوس — الجامعة الامبراطورية) في فينلنديا — ووفقاً للامر المطلق الشرعي لهيأة نظام الفلاسفة العظيم في هذه الجامعة » .

في هيلسينغفورس في اليوم السادس عشر من شهر شباط من سنة ١٩١٢ .

وانا المعطي شرعاً حق هذه الترقية أثبت هذا القرار بتوقيعي وبوضع طابع نظام الفلاسفة . أ . دونير

آراء وافكار

تعليق على رحلة ناصر خسرو القبادياني

قرأت في مجلة المجمع العلمي الزاهرة[١] الشطرَ البديع الذي نقله الى اللغة العربية العلاّمة الرئيس الأستاذ كردعلي من رحلة ناصر خسرو القبادياني فقرّت به عيني وشكرت للصديق المعنّ المفنّ ، عنايته هذه التي تناولت نشر اول رحلة قام بها مسلم في ديار الشام ، وقد استوقف نظري بعض هنات ربما كان مصدرها غلط النساخ وشطط المترجم — اي الذي نقل الرحلة من الفارسية الى الافرنسية — ومن ذلك قوله (ص ٦٥) : « ومثل ذلك من حلب الى طرابلس (؟) [٢] » وأظن انه اراد ان يقول الى جرابلس بدليل تمام العبارة وهي : « ويقال ان المسافة الى القسطنطينية هي مائتا فرسخ » وجرابلس بين حلب والقسطنطينية . أقول ان هذا الغلط نشأ عن الناسخ او المترجم لان الرحالة عاد فذكر المسافة بين حلب وطرابلس ومن الغلط ذكره قرية جند قنسرين فالقرية هي قنسرين على ما ذكرها علماء تقويم البلدان [٣] وهي قاعدة الجند المسمى باسمها .

ومن ذلك نعت ابي العلاء المعري بحاكم معرة النعمان [٤] فلعله يريد ان يصفه بانه حكيمها وهو عندوصفه ، بل وحكيم الشرق بلا مدافع . اما قوله بان نوابه يقضون مصالح الناس فقد تنصرف هذه الجملة الى مريدي شيخ المعرة وتلاميذه الذين كانوا

(١) مجلد ٦ ص ٦٤ . (٢) وهكذا ترجمها لاسترانج مترجم الرحلة من الفارسية الى الانكليزية عن نسخة المتحف البريطاني في لندن . (٣) ذكرت قنسرين في الاعلاق النفيسة لابن رستة والتنبيه والاشراف للمسعودي وصفة جزيرة العرب للهمذاني والمسالك والممالك لابن خرداذبة واحسن التقاسيم للمقدسي وذكرها ياقوت في مادة اجناد الشام الخمسة جزء ١ ص ١٣٦ طبع ليبسك وذكرها في مادتها الاصلية قنسرين ج ٤ ص ١٨٤ من كتابه معجم البلدان . (٤) وهكذا ترجمها مترجم الرحلة الى الانكليزية .

يريدون الناس على الخير ويدعونهم الى الوفاق والوئام · وقد ذكر لنا الرحالة كوبات (ص٦٦) التي وصل اليها قبل حماة ، وهذه لم يذكرها ياقوت في معجمه ولا ندري اذا كانت لا تزال آهلة (؟) فقد كتبنا لعالم من علمائها نسأله عن ذلك فلم يحر جواباً ·

وقد أحسن صديقنا العلامة صنعاً في وضع لفظها البترون الى جانب ترابرزن (ص٦٨) ولكن هل البترون بالتاء او بالثاء (؟) فاذا كان القصد اسمها المعروف اليوم بين العوام فهو صحيح ولكن البثرون بالثاء[1] كما لا يخفى على الصديق البارعة · على ان الترجمة الانكليزية تقول في الصفحة التاسعة من الرحلة ان ترابرزان هي تحريف تيو پروز پون وهو اسم رأس الشقعة باليونانية وهذا الرأس هو شمالي البترون الحديثة ·

وقد استوثقنا من تسمية الرحالة عكا بالالف (ص ٦٩) اذ كان ابن جبير الاندلسي[2] وياقوت الحموي[3] وابن بطوطة[4] والامام ابن تيمية في بعض رسائله كتبوها بالتاء المربوطة ولعلهم جميعاً قلدوا ابن جبير الاندلسي في حين ان المتقدمين من جغرافيي العرب مثل ابن واضح اليعقوبي مؤلف كتاب البلدان[5] والهمذاني مؤلف صفة جزيرة العرب وابن خرداذبة مؤلف كتاب المسالك والممالك وابو الفرج قدامة مؤلف كتاب الخراج وابن رستة مؤلف كتاب الأعلاق النفيسة والمقدسي مؤلف كتاب احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم رسموها بالالف كما انها وردت في الشعر العربي على ذلك النحو في أبيات نقلها ابو الفرج الاصبهاني الى كتابه الاغاني[6] من نظم شاعر من اليمن قيل انه النجاشي يندد بقومه ويحرضهم على قيس · وقد كان معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه يغزو البحر باليمن ويغزو البر بقيس فلما بلغته الأبيات بعث يسترضي اليمن ويعتذر اليهم بقوله : « ما أغزيتكم البحر الا لاني أتيمن

(١) معجم البلدان ج١ ص٤٩٣ · (٢) رحلة ابن جبير طبع مصر ص ٢٨٥ · (٣) معجم البلدان ج ٣ ص ٧٠٧ · (٤) تحفة النظار في غرائب الأمصار طبع مصر ج ١ ص ٣٥ · (٥) كتاب البلدان طبع ليدن سنة ١٨٦٠ ص ١١٥ وطبع ليدن سنة ١٨٩١ بذيل كتاب الأعلاق النفيسة ص ٣٢٧ · (٦) الاغاني ج١٨ ص ٧٠ من طبعة الساسي ·

بكم وان في قيس نكداً واخلاقاً لا يحتملها الثغر وانا عارف بطاعتكم ونصحكم فأما اذ قد ظننتم غير ذلك فأنا أجمع فيه بينكم وبين قيس فتكونوا جميعاً فيه واجعل الغزو فيه عقباً بينكم فرضوا فعل ذلك به فيما بعد » وهو من أوقع المعاذير وأحكمها ويكفي ان يكون صادراً عن ذلك الداهية العظيم . وهذه هي الأبيات :

الا أيها القوم الذين تجمعوا ... بعكا أناس انتم ام أباعرُ
أنترك قيس آمنين بدارهم ... ونركب ظهر البحر والبحر زاخر
فوالله ما أدري وإني لسائل ... أهمدان يحمي ضيمها ام يحابر
ام الشرف الأعلى من اولاد حمير ... بنو مالك اذ تستمر المرائر
أأوصى ابوهم بينهم ان تواصلوا ... وأوصى ابوكم بينكم ان تدابروا

ومقام النبي صالح اليوم خارج سور عكا الذي رممه الظاهر عمر الزيداني سنة ١١٦٣ هـ ١٧٤٩ م وهو في وسط مقبرة المسلمين فاذا كان المقام كان في المسجد الاعظم وهذا كان في وسط المدينة كما ذكر الرحالة فتكون عكا الحاضرة جزءاً صغيراً من الاصل الكبير الدارس .

وعكا أخت القسطنطينية العظمى ومجتمع الرفاق وميناء الحاج في القرن السادس[١] وعين البقرة لا تزال ينزل اليها بست وعشرين درجة . كأن الذين تولوا عمارتها مرة بعد أخرى قد حافظوا على هندستها الأصلية . وليست هي تنبع من مكانها وانما يتصل اليها الماء من مجرى قديم قد امتلأ بالاتربة فصار يرشح الماء منه رشحاً وقد علمت ذلك بعد ان وكلت الى بعض العملة امتياح مائها والوصول الى قعر العين فظهر لي المجرى الذي يأتي اليها من الشرق ولم تمتلئ العين بالماء الا بعد مضي يوم كامل من امتياحه . وقد تتبعت هذا المجرى فتراءى لي انه يتفرع عن مجرى أوسع منه نطاقاً يأتي من الشمال الى الجنوب الى عين اخرى اسمها عين الست . وقد كان اهل عكا يستقون ماءهم منها لما كانت قناة ماء الكابرة مقطوعة عنها وذلك قبل اربعين عاماً تقريباً . وقد قال لي بعض شيوخ عكا ان الأهلين كانت لا تفارقهم الحميات بسبب رداءة ذلك الماء وكانت تعلو وجوههم صفرة المرض الى ان قيض الله لهم حاكماً عاملاً على الخير فرمم القني بين بستان البهجة وعكا واعاد مياه الكابرة الى مجاريها .

(١) رحلة ابن جبير ص ٢٨٥ .

هذه هي العين التي زعموا ان آدم كان يسقي بقرته منها — تلك البقرة التي كان يحرث بها ارض مسجد عكا — وكان يحمل نفسه مؤونة النزول والطلوع اليها ومنها ليمتاح لها الماء الكافي . وقد علمت انها لم تكن عيناً وانما هي شعبة من قناة قديمة أوشكت على الانسداد .

على ان الخرافات في شرقنا تنقل من الاجيال الى الاجيال . فلا يزال الناس يعتقدون في هذه العين الكرامة ويقصدون اليها للاستحمام بمائها و يتبركون بزيارتها وقد لاحظت انه كان على واجهة القبة الصغيرة المبنية على العين لوح تاريخ قد رُفع من مكانه فشغر محله وقد أيدت ظني هذا امرأة اقامت نفسها قيّمة على العين فهي تتعهدها بالتردد عليها وكنس ادراجها وتنظيفها عند الحاجة ونصب الأعلام الخضراء التي ينذرها لها الناذرون من السذج — وقالت ان بلاطة التاريخ قد سُرقت قبل ثلاثين عاماً وزادت على ذلك بانها تتولى خدمة هذه العين والقيام عليها بالوراثة عن والديها .

قالت وقد ظهرت منذ سنين قطعة من رخامة مكسورة بين الأتربة والحجارة التي كانت تجمعت في العين لايقرأ منها الا كلمة «طوب» وهو اسم المدفع بالتركية واهل عكا يأنسون بهذه الآلة الجهنمية ويعرفونها حق المعرفة لان بلدهم كانت الى الايام الأخيرة قلعة حصينة والمدافع تكتنفها عن ايمانها وعن شمائلها .

اما انا فأظن ان هذه الكلمة ليست «طوب» وانما هي «طوبى» وهي اول كلمة من حديث من الأحاديث الموضوعة التي لفقوها على المدائن والأمصار وهذا الحديث هو « طوبى لمن رأى عكة » والظاهر ان بلاطته كانت ملصقة على قبة العين والاحاديث الموضوعة عن عكاء او عكة كثيرة سردها الشيخ محمد بن شيخ الاسلام جعفر الكتاني الحسني في كتابه (شفاء الاسقام والآلام بما يكفر ما تقدم وما تأخر من الذنوب والآثام) ونفاها نفياً باتاً [1] .

---

(١) شفاء الاسقام ص ٤٣ وهذا نصّ ما ورد في الكتاب :

« الخصلة الخامسة والعشرون . منها دخول مدينة عكاء بالمدّ ويقال لها عكة بتاء التأنيث وهي بلدة مشهورة من الثغور الشامية وكأنه للرباط فيها ان صحت الرواية

وعلى ذكر الاحاديث الموضوعة عن المدن والامصار أريد ان أجاهر برأي ربما أثار غضب الجامدين . وهو ان هذه الأحاديث قد وُضعت لأغراض سياسية شريفة وألبست ثوباً من الدين والدين سلطان تخضع له النفوس وتعنو أمامه الرقاب والغاية من ذلك هو حمل المسلمين وهم في بدء حياتهم السياسية على احتمال المشاق ، وتكبد الاسفار . واحكام الدفاع عن الثغور والبلدان التي كانت لها ميزة حربية إذ كان من الصعب ان يستسهل المسلم البدوي الضارب في عرض الارض الساكن في بيوت الشعر الدخول الى القفص والإقامة بين الجدران لولا ذلك السلطان الديني .

ولنرجع الآن الى ما كنا عليه من التعليق على الرحلة : قال الرحالة (ص ٧٠) انه اجتاز بقرية برزة ودمون وعبلين قبل ان يصل الى قرية حاضرة والقرى الثلاث الاولى لم يذكرها ياقوت ولكنها لا تزال آهلة فالاولى وتسمى البروة عدد سكانها ٨٠٧ والثانية وتسمى الدامون بزيادة الف بين الدال والميم وسكانها ٧٢٧ والثالثة عبلين وسكانها ٨١٧ نسمة .

اما قرية حاضرة[1] فأظن انها محرّفة عن كفرمندة وهي التي فيها قبر امرأة موسى كما ان جهة اربل او اربد هي من متممات تلك القرية التي فيها ايضاً قبور بعض ابناء يعقوب . وهذا ما يقوله ياقوت عنها[2] : كفرمندة قرية بين عكا وطبرية بالأردن يقال بذلك ذكرها ابن حجر والخطاب ولم يذكر السيوطي . اخرج ابو الحسن الربعي في فضائل الشام ايضاً عن انس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مدينة بين الجبلين على البحر يقال لها عكاء من دخلها رغبة فيها غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ومن خرج منها رغبة عنها لم يبارك له الله في خروجه وبها عين تسمى عين البقر من شرب منها ملأ الله بطنه نوراً ومن أفاض عليه منها كان طاهراً الى يوم القيامة قال الحافظ بن حجر حديث منكر جداً وفي اسناده غير واحد من المجهولين قال الخطاب وفي الفاظه ركاكة وآثار الوضع ظاهرة عليه اه . وهو حقيق بذلك كما لا يخفى على من مارس السنة وعرف جزالة الفاظها ومقاصد الشرع منها ومما يشبه ان يكون موضوعاً ايضاً ما ذكره الجوهري في صحاحه من حديث « طوبى لمن رأى عكة » .

(١) معجم البلدان ج ٤ ص ٢٩١ وعدد سكانها اليوم ٤٢٧ نسمة . (٢) في الترجمة الانكليزية تقرأ حذيرة او هذيرة .

لها مدين المذكورة في القرآن والمشهور ان مدين في شرقي الطور وفي قرية كفرمندة قبر صفوراء زوجة موسى عليه السلام وبه الجب الذي قلع الصخرة من عليه وسقى لها والصخرة باقية هناك الى الآن وفيه ولدان ليعقوب يقال لهما أشير ونفتالي .

واظن ان قوله (ص٧٢) « وبلغني انه يستخرج من قعر بحيرة طبرية مادة في شكل البيضة لونها اسود وتشبه الحجر ولكن ليس لها صلابته فتستخرج وتكسر وتحمل الى المدن والولايات » يجب ان يكون مصروفاً الى بحيرة لوط فهي التي عُرف عنها منذ اواسط القرن الرابع للهجرة انها تخرج ملحاً يصلح للصاغة وقير يسمى بالحمر وهو قفر اليهود[1] وقد اورد الرحالة هذه العبارة بعد ذكره لبحيرة لوط وبها ختم حديثه عنها .

ويؤيد هذا الظن تعريب الترجمة الانكليزية لهذه العبارة فقد اورد المترجم وهو يسوق الحديث عن بحيرة لوط :

« وقد اخبرني احدهم ان في مياه هذه البحيرة المالحة مادة تجمع من زبد المياه لونها اسود تشبه في هيئتها جسم ثور عائم وهذه المادة (وهي الاسفلت) تشبه الحجر غير انها اقل صلابة منه والناس يكسرونها ويبعثون بها الى المدن تستعمل في قتل الديدان والحشرات » .

وقبر ابي هريرة (ص٧٢) لم يبق منه اليوم الا لوحه الذي زُبر عليه :

« هذا قبر ابي هريرة صاحب رسول الله » وهذا اللوح محفوظ في ضريح السيدة سكينة الكائن بين مدينة طبرية وبين حماماتها المعدنية .

وقد افادنا بعض العارفين ان هذه البلاطة وُجدت في الايام الاخيرة الى جانب محراب قديم في الطابق السفلي من دار كانت لرجل يدعى عبدالله الحسين باعها من آخر يسمى مصطفى سنجر فدرس المحراب والبناء القديم ونقلت البلاطة الى ضريح السيدة سكينة . وعلى ذكر ابي هريرة يجدر بنا ان نصحح ما يذهب اليه بعضهم من ان قبره في طبرية كما ذكره هذا الرحالة او في الرملة كما ذكره غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري[2] او في قرية يُبنى من قرى مقاطعة غزة من فلسطين كما ذكره البلاد

(١) المسالك والممالك لابن خرداذبة (ص٧٩) واحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي (ص١٨٤) . (٢) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (ص ٤٢) .

الاصفهاني الكاتب الذي يقول انه زاره وجيش صلاح الدين يوسف بن ايوب وبادروا للتيمن به اليه في طريقهم الى عسقلان[١] وكما كان ذكره ياقوت في معجم البلدان (ج ٤ ص١٠٠٧) اذ يقول « فيه قبر صحابيّ بعضهم يقول هو قبر ابي هريرة وبعضهم يقول قبر عبد الله بن ابي سرح » وقد نفى مجير الدين الحنبلي مؤرخ القدس والخليل (ج ١ ص٢٣٣) وجود قبر ابي هريرة في يبنى وقال عنه هو بعض ولده ·

والحقيقة ان اباهريرة قد توفي في قصره بالعقيق وحمل الى المدينة ودفن فيها[٢] ولكنه من أجلة اصحاب الرسول الذين كانوا يرافقونه في خلواته وجلواته ومن الذين دخلوا الارض المقدسة إبان الفتح الاسلامي ·

وقرية كفر كنّا (ص٧٢) التي عاد منها الرحالة الى مدينة عكا لاتزال آهلة وقد ضبطها ياقوت في معجمه[٣] بالالف خلافاً للرحالة التي ضبطها بالتاء المربوطة وهي اليوم على قارعة الدرب المسلوك بين الناصرة وطبرية وعدد سكانها ١١٧٥ نسمة ·

والكنيّسة التي جاءها الرحالة بعد حيفا (ص٧٢) لا وجود لها اليوم وانما في الجانب الغربي من قرية الطيرة التي كانت تسمى قديماً طيرة اللوز وعلى ساحل البحر المتوسط خرابة تدعى الكنيّسة وآثارها تنطق بعمرانها القديم ولعل اهل هذه القرية هم الذين انشأوا قرية الطيرة المحاذية لها إثر حادث من حوادث التاريخ فانتقلوا من الشاطئ الى سفح جبل الكرمل وتربة هذه القرية التي تحوي ٢٣٤٦ نسمة من السكان خصبة وحارة و يجود فيها البطيخ وتسبق جميع بلاد الساحل باستواء زروعها ونضج غلاتها لاسيما الزيتون ·

اما وادي التماسيح الذي يأتي بعد الكنيّسة (ص٧٢) فعلى ما اظن هو زور الزرقاء وهناك نهر صغير تعيش فيه التماسيح وقد شغل بالي وجودها في ذلك النهر الصغير مدة طويلة و بحثت عن علة وجودها فيه فقيل لي ان جيش ابراهيم باشا لما قدم الشام من مصر خيم في تلك الارض الفسيحة فأخذت الحميّات الناشئة عن البطائح والمستنقعات المتكونة من مجرى النهر الهادئ تفتك بجنوده مما حمله على نقل بعض التماسيح من نهر النيل اليه

(١) الفتح القدسي طبع مصر (ص ٣٠٥) · (٢) الاصابة في تمييز الصحابة (ج ٧ ص ٢٠٧) · (٣) معجم البلدان (ج ٤ ص ٢٩٠) ·

لتلتقط جراثيم البعوض من البطائح فيأمن بذلك مغبة انتشار الحمى وكدت ان أقبل هذا الرأي لقربه من العقل وكان يؤيد ذلك عندي ما اعلمه من امر التماسيح وانها لا توجد الا في نهري النيل ومهران في مصر والهند [1] ولكن هذه الرحلة قد كشفت لنا الغطاء وأثبتت وجود التماسيح في ذلك الوادي قبل قرون متطاولة وان لم تصرح بوجودها. الا ان تسمية المكان بوادي التماسيح لاتدع مجالاً للشك والارتياب في نسبته اليها . ولم يذكر ياقوت الحوي وادي التماسيح في معجمه .

اما قيسارية (ص٧٣) المذكورة في معجم البلدان لياقوت [2] والتي حافظت على كيانها وعمرانها دهوراً طويلة فهي اليوم قرية حقيرة عدد سكانها ٣٤٦ نسمة .

ومن المستبعد على الرحالة اي يشبه الرمل الذي بين قيسارية وبين كفر سابا برمل مكة ونرجح انه شبهه برمل عكة وقد وصفه (ص٧٢) بانه يستعمل للصياغة في بلاد فارس [3] .

اما كفر سابا التي ذكرها ياقوت [4] فهي اليوم من القرى الصغيرة وعدد سكانها ٥٤٦ نسمة وقد قرن الرحالة كفرسلاّم بكفرسابا ظناً منه انهما واحدة مع ان ياقوت [5] أفرد لكل منهما مادة مستقلة ولا أثر اليوم لكفر سلاّم .

وقد جاء في وصف الرملة (ص٧٣) « وتعرف هذه المدينة في الشام والمغرب باسم فلسطين » والى جانب فلسطين « كذا » مما يدل على ان المترجم لم يتثبت من هذه التسمية مع ان بعض جغرافيي الغرب ورحالتهم ذكروها بذلك الاسم ومن هؤلاء ابن بطوطة [6] فقد قال « ثم سافرت منها الى مدينة الرملة وهي فلسطين الخ » وقال ابن فضل الله العمري [7] « الرملة وهي فلسطين » ويظهر ان هذه التسمية هي من قبيل اطلاق الجزء على الكل او الفرع على الاصل .

(١) احسن التقاسيم (ص٢٣) . (٢) معجم البلدان (ج٤ ص٢١٤) . (٣) في الترجمة الانكليزية يقول ان رمل قيسارية هو من النوع الذي يسمى رمل مكة . (٤) و (٥) معجم البلدان (ج٤ ص٢٨٨) . (٦) تحفة النظار في غرائب الامصار (ج١ ص٣٥) . (٧) التعريف بالمصطلح الشريف (ص١٧٧) .

وخاطون التي ذكرها الرحالة (ص٧٤) هي مصحفة عن أطرون المذكورة في معجم ياقوت (ج ١ ص ٣١٠) وتعرف اليوم بالأطرون كما علق على ذلك العلامة الرئيس وعدد سكانها اليوم ٥٩ نسمة وبجانبها دير يسمى دير الاطرون عدد سكانه ٣٧ نسمة .

وقرية العنب التي ذكرها بعد أطرون (ص ٧٤) معروفة اليوم باسم قرية ابي غوش جد احد البيوتات القديمة وفيها من السكان (٥٤٨) نسمة وهذه القرية قد ذكرها ياقوت في معجمه [1] باسم حصن العنب وهي في الشرق من الرملة حيث طريق بيت المقدس التي سلكها الرحالة .

هذا وقد ورد في ثنايا التعريب اسماء لمقاييس فارسية مثل آرش وكوز وكز وهذان الاخيران يجب ان يكونا شيئاً واحداً — يهم القارئ معرفتها ولذلك فاننا نبسط للقارئ ما استنتجه عنها السيد جاي لاسترانج (Guy Le Strange) الذي ترجم الرحلة من الفارسية الى الانكليزية فقد قال في الصفحة التاسعة من مقدمته ان الآرش والذراع متعادلان وان الكوز عادل احياناً اليرد الانكليزي واحياناً الذراع العربي وانه هو والآرش في رحلة ناصر خسرو شيء واحد اهـ .

قلنا والظاهر من استعمال الرحالة لهذين المقياسين في مواضع مختلفة ان الآرش للمساحات المسطحة والكوز للاطوال والعروض . اما الترجمة الانكليزية التي اخذنا عنها فقد طبعت سنة ١٨٨٨ م في المجلد الرابع من الرحلات التي نشرتها (Palestine Pilgrim Iext .coc) وهي مترجمة عن نسخة المتحف البريطاني في لندن . وقد حدثت أغلاط مطبعية في أرقام السنين في مجلة المجمع فقيل ان الرحلة ابتدأت سنة ٤٣٧ هـ ١٠٣٥ م وصوابها ٤٢٧ هـ وانتهت سنة ٤٤٤ هـ ١٠٤٢ م وصوابها ٤٣٤ هـ كما يتضح من الارقام الاخرى المعربة عن الرحلة والواردة في سياق الكلام .

هذا ما اردنا تعليقه على رحلة ناصر خسرو وعلى الله قصد السبيل .

حيفا : عبد الله مخلص

---

(١) معجم البلدان (ج ٢ ص ٢٧٧) .

مطبوعات حديثة

تحت راية القرآن

« المعركة بين القديم والجديد » بقلم السيد مصطفى صادق الرافعي طبع بالمطبعة الرحمانية بمصر ١٣٤٥ — ١٩٢٦ بعناية المكتبة الاهلية ص ٤٣٧

لما نشر المرحوم قاسم امين كتابه «تحرير المرأة» ثم «المرأة الجديدة» في مصر قام بعض المنكرين والادباء وألفوا في الرد عليه بضعة كتب ميزت الامة عقبها المخطئ من المصيب . ولما ألف الاستاذ السيد علي عبد الرازق كتابه في الخلافة قام بعض الفضلاء فردوا عليه ونشروا ايضاً عدة كتب في تخطئته فعرف المنصفون المخطئ من المصيب . ولما نشر الاستاذ الدكتور طه حسين في السنة الماضية كتابه « في الشعر الجاهلي » قلنا في وصفه (ص ٢٩٠ م ٦) : « ولا شك ان كتابه سيجد من مخالفيه مقاومة شديدة بريح العلم الحديث عقباها كتاباً آخر يناقض هذا الرأي وعندئذ يخسر الدكتور طه قضيته او يربحها » . وهذا الكتاب « تحت راية القرآن » احد الاسفار التي نشرت في مصر للطعن في رأي صاحب الشعر الجاهلي ، ابان فيه المؤلف بما عنده من النصوص ان خصمه مخطئ كل الخطإ في رفع الثقة من جميع ما قيل في شعر الجاهلية وأظهر ما ارتآه من مخالفة اقواله للشريعة والقاء الشكوك في تاريخ الامة ، بيد انه استعمل لساناً حاداً في التخطئة والنقد ، كادت تحيل كتابه الى قصة يراد بها السخرية والنكتة ، لا الفائدة المبتغاة من تقرير حقيقة ، فضاع الجد في تضاعيف الهزل . وهذه طريقة لبعض المؤلفين قلما يحمد اليها الناقدون الذين ينزهون العلم عن العبث ويتوخون الاحتفاظ بجماله وجلاله . ونحن ممن يريد ان ينزه النقد عن التحامل والشخصيات ليحسن موقع القول في نفوس الموافقين والمخالفين . ولا يسعنا هنا الا الثناء على صديقنا المؤلف لهمته وصدق عزيمته ولتبريزه في ميدان البلاغة والبيان ، فان انشاءه الرائق المتين يذكرنا بعهد ارتقاء اللغة العربية في بعض قرونها الذهبية . ونحث على مطالعة كتابه فانه نموذج مهم في الادب الجديد .

محمد كرد علي

الشهاب الراصد

تأليف السيد محمد لطفي جمعة طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر
سنة ١٣٤٤ — ١٩٢٦ ص ٢١٧

هذا بحث تحليلي انتقادي وردّ علمي تاريخي على كتاب « في الشعر الجاهلي » وصديقنا مؤلفه احد اركان النهضة المصرية الحاضرة وله تآليف وابحاث كثيرة ونظر دقيق في تطور المدنيات القديمة والمدنيات الجديدة . ساعده عليه تمكنه من آداب العرب والانكليز والفرنسيس وقد تلطف بتناول الرد على صاحب الشعر الجاهلي باسلوب علمي جمع فيه البراهين على إسقاط دعوى خصمه بلسان الناقد الحريص على اظهار الحقيقة وذلك على الطريقة العصرية وقسم موضوعه الى ابواب وفصول بين فيها طريقته في نقده وذكر بعض نقاد الادب العربي في القديم والحديث وفن النقد في الآداب الفرنسية قديمًا وعلى عهد (بسكال وديكارت) وفي العصر الاخير وشرح مذهب ديكارت واثبت ان مؤلف الشعر الجاهلي القائل بمذهبه والداعي اليه ناقض مذهبه في كثير من المواطن وابان ان الشعر الجاهلي مرآة الحياة العربية قبل الاسلام في كل مظاهرها وان الامم القديمة واهل المدنيات الحديثة تعتقد بوجود الجن ، والشعر المنسوب اليهم عند العرب كالشعر الذي يؤلفه العصريون ويلتمسون الالهام من ربة الشعر . واستشهد على قضاياه باقوال علماء المشرقيات في معظم الامم الغربية الذين عالجوا الموضوعات العربية والاسلامية وتعرض للعرب وشعوبهم وقبائلهم وانسابهم ولهجاتهم في جنوبي الجزيرة وشمالها وكيف كانت قريش كالمجمع اللغوي تسيطر على لهجاتها وتهذب اللغة في الاسواق الادبية . والمّ بفضل لغة قريش على سائر لغات العرب قبل الاسلام واللهجات في اليونانية القديمة واللغة الفرنسية وغيرها وقارن بين العرب واليونان والرومان في الفتوح واورد كيف كان الشعر في صدر الاسلام وشرف الرسول وسيادة قبيلته وردّ ما ادعاه الاستاذ هوار من ان أمية بن ابي الصلت أثر بشعره في القرآن الكريم ، وما كان من امر الشعوبية والرد عليهم وما قاله علماء المشرقيات في صحة الشعر الجاهلي وذكر ماهية الانتحال في الجاهلية والاسلام . كل ذلك بحث مشبع

بالنزاهة مأخوذ من المظان المعتبرة عند العرب والافرنج دل على رسوخ المؤلف في فنه ووقوفه على روح الامم وروح المؤلفين فنهنئه بهذا التأليف الذي هو الثاني من نوعه في نقد قضية الاستاذ الدكتور طه حسين ·

م · ك

سورية والسوريون

« من نافذة التاريخ »

للدكتور فيليب حتي طبعت سنة ١٩٢٦ في المطبعة التجارية السورية الاميركية في نيو يورك ص ١٠٧

هذه محاضرات القاها الدكتور حتّي احد اعضاء المجمع العلمي العربي في نيو يورك ونشرت في مجلة «العالم الجديد» ذكر فيها اصول الشعب السوري ، وما استفاده الغرب من الشرق في الحروب الصليبية في العلوم والصناعات ومرافق الحياة ، وما بلغته الشام في اعلى قمم مجدها في العصر الأموي وذكر فتوحات الأمويين ومدنيتهم وفتحهم الاندلس وما اليها من بلاد البربر في افريقية · وكل ذلك بلسان المؤرخ المنصف وبتحقيق عودنا اياه رصيفنا العلامة حتي · وشتان بين من يعمل مثل هذا المؤلف للعلم المحض وجلاء الحقيقة ، ومن يعمل لنشر دعوة خاصة ونحلة معروفة و يستتر وراء جدران التاريخ وقد لاحظنا عليه فقط قوله في (ص ٣٥) ان العرب الساميين كان همهم في الدرجة الاولى جباية الجزية وجمع الاموال من أبناء البلاد الاصليين ، وليس من مصلحتهم الاقتصادية ان تدين الامة المغلوبة بدين الغالب اذ الجزية تسقط بالاسلام · فهذه القضية غير صحيحة لان العرب خيروا الامة المغلوبة بين ثلاثة اشياء « الاسلام او الجزية او السيف » · والدعوة دينية صرفة ولكن « لا اكراه في الدين » وقد عد بعضهم هذا التسامح المحمود ضعفاً وعزوه الى مسائل اقتصادية · ونشكر للرصيف اجتهاده في خدمة امته وبلاده ·

م · ك

الآراء والمعتقدات

تأليف الدكتور غوستاف لوبون ونقله الى العربية الاستاذ محمد عادل زعيتر
ونشره الاستاذ الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر

هذا كتاب اجتماعي يبحث في مصدر المعتقدات غير العقلي والعناصر التي تتألف شخصية الانسان من مجموعها ، وفي الارادة غير الشاعرة وفي العراك بين المنطق العاطفي والمنطق الديني ومنطق الجمهور والمنطق العقلي ، وفي اسباب اختلاف الآراء وانتشارها وقد قال المؤلف في آخر كتابه : وهكذا توصلت الى ناموس فلسفي مهم وهو ان مبادئنا تشتق من انواع المنطق المختلفة ، لا من مصدر عقلي مشترك ، فمن تغلب احد هذه الانواع على الاخرى او تصادمها ظهرت اكبر حوادث التاريخ … وكل ما نعرفه حتى الوقت الحاضر هو اننا مسيرون بثلاث حقائق « أعني الحقائق العاطفية والحقائق الدينية والحقائق العقلية » وانه لا قياس مشترك بين هذه الحقائق الصادرة عن انواع المنطق المختلفة .

هذا مغزى الكتاب ، والمؤلف من فلاسفة فرنسا الاحياء مشهور بابحاثه النفسية والفلسفية والتاريخية لا يحتاج الى تعريف ، اما المترجم فهو من اساتذة نابلس ومن اهل الثقافة الحديثة ترجم قبل هذا الكتاب « روح الاشتراكية » للمؤلف نفسه ، وعبارته سهلة مقبولة أشبه بعبارة المؤلف الاصلي في سلاسة قلمه . فنشكر للمعرب والناشر عنايتهما باخراج مثل هذه الاسفار النافعة للناس ، يزيدون بها مادة البحث والتفكير . لا جرم ان المعرب الجيد لا يقل في فضله عن المؤلف مباشرة ، وكثير من المباحث نحتاج فيها اليوم الى التعريب اكثر من الوضع . م . ك

الحديث

مجلة شهرية تصدر في حلب وتبحث في الأدب والتاريخ والعلوم الاجتماعية لصاحبيها السيدين سامي الكيالي وادمون رباط قال منشئها « نحن لا نريد ان ننكر هذا الماضي الخالد بذكرياته الرائعة — وذكرياته هي كل ما بقي لنا من تراث الاجداد —

ولكننا نتساءل أيمنعنا هذا الحرص على الماضي ان نكون جامدين الى حد ان لا نفهم هذا التراث على صورته الحقيقية » . وفي هذا الجزء مقالات مهمة نافعة منها مقالة في الكتابة واثرها في حياة الامم لاحمد لطفي بك السعيد ومدارس الشام في الاسلام للسيد محمد كرد علي والمجلات واثرها لاسماعيل بك مظهر . ومن المقالات المعربة « مقالة المدنية الفينيقية » و « ما افاده العلم للانسان » الى غير ذلك من الابحاث والفوائد مما يتلذ للقارئ بذوق وأدب . فنثني على منشئها الفاضل الكيالي ونرجو زيادة العناية بجهده في تجويد موضوعاتها والتوقي من الاخطاء والاغلاط ما امكن ، حتى تكون مجلة «الحديث» من العوامل المفيدة في نشر العلم ومرجعاً من مراجع الآداب عند العرب .

مرقاة المترجم

تأليف الاب يوسف علوان اللعازري طبع في المطبعة الكاثوليكية في بيروت سنة ١٩٢٦ مجلدان كل مجلد يقسم الى قسمين كتاب المعلم وكتاب التلميذ

هو سفر وضعه مؤلفه للصفوف العالية في اللغتين الفرنسية والعربية كسره على مسائل تجارية وقضائية وبعض أمثال وحكم وأشعار وقصص واخوانيات ليلقن الطالب روح الترجمة من الافرنسية الى العربية وقد شفع ذلك بمعاجم صغيرة حوت الألفاظ التي يحتاج اليها الطالب ومصطلحات الشام والغرب في التجارة والقضاء وغير ذلك مما هدته اليه التجارب والمران على الترجمة وتعليمها زمناً ولم نلاحظ على المؤلف الفاضل الا بعض التساهل في اختيار بعض الألفاظ العربية ولعله يتوخى التفهيم بالمصطلح ولو كان غير فصيح ذهاباً مع من يقول : « الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور » على ان المؤلف يمدح قصده وتشكر همته . وعساه في الطبعات المقبلة يضع هذا المعنى تحت النظر .

م . ك

الجزء الاول

« من مبادئ الفيزياء »

تأليف فرنان ماير وتعريب السيد ابي قيس عز الدين علم الدين التنوخي
طبع في مطبعة الفرات في بغداد سنة ١٣٤٤ — ١٩٢٦

تخطو اللغة العربية في سبيل العلم بخطوات بطيئة غير انها مطردة تبشر بمستقبل حميد . ومن تلك الخطوات المحمودة « الجزء الاول من مبادئ الحكمة الطبيعية » تأليف فرنان ماير الذي عربه بتصرف حسن ، السيد عز الدين علم الدين التنوخي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومدرس الطبيعيات في دار المعلمين العليا والابتدائية ببغداد تحت عنوان « مبادئ الفيزياء » وفيه ثلاثة أبواب : في التثاقل وموازنة السوائل والحرارة . والكتاب غزير المادة جيد الاسلوب متقن الطبع جاء في زهاء ٢٣٤ ص . وفيه كثير من الرسوم التي لا يستغنى عنها في درس هذا الفن . فنشكر للمؤلف الفاضل الجهد الذي بذله في تعريب هذا الكتاب المفيد الذي سد ثلمة واسعة في كيان التدريس العربي . وقد تصفحت هذا الكتاب فتراءى لي في تضاعيف سطوره شيء من الخطإ الصادر عن السهو مما لم يرد ذكره في صفحة التصويب منه .

ص	س	خطأ	صواب
٥٢	١٨	تقدير	تقديره
٨٦	٣	٧٢٨٠٠٠	٨٢٨٠٠٠
١٠٤	١٣	١٣×٠٫٠٠١٠٠٠	١٣×٠٫٠٠١٠٠٠×٥٠
١٣١	٣	٦٧٫٥٥ م	٦٧٫٥٥ سنتيمتر
١٣١	٥	١٣٫٦×٧٦٫٥٥	١٣٫٦×٦٧٫٥٥
١٤٣	٥	١٠٣٣—١٠=١٠٢٣	=١٠٢٣
١٦٥	١٣	١٨٧	١٨٨
١٨٠	٧	٠ الى ١٥	٠ الى ١٠٫٥

وفي ص ٩٢ في السطر الاخير (اي ثقل حجم من الماء يساوي ثقل الجسم) في

حين ان ثقل حجم الماء المزاح لا يساوي ثقل الجسم . ولعل المؤلف يريد ثقل حجم من الماء يعادل حجم الجسم .

وفي ص ١٢٠ في مادة تدبير المنطاد ذات الرقم ١٤٥ (في بدء الامر يحمل المنطاد اكياساً من الرمل تقوم مقام الصابورة فاذا اراد الطيار الصعود القى شيئاً من صابورة منطاده) فان لفظة الصعود في هذه الفقرة مطلقة في حين ان المعنى المقصود هو غير الصعود المطلق فمنعاً للالتباس ارى ان تعين جهة المصعد .

وفي ص ١٢٢ في السطر الثالث (اذا تحرك سطح في الهواء بسرعة متر في الثانية قاومه الهواء بقوة ٧٥ غم) ولم تعين مساحة ذلك السطح المتحرك في حين ان المقاومة المذكورة مقيدة بالسطح الذي مساحته متر واحد .

وفي ص ١٤٣ س ١٣ (وبما ان ثقل هذا العمود المائي الطويل يساوي الضغط الجوي) في حين ان طول هذا العمود هو ٥٠ سم ومساحة قاعدته سم^2 واحد فيكون ثقله ٥٠ غم وهذا الثقل لا يساوي الضغط الجوي .

وفي ص ٢١٦ س ١٢ (كانت الفراء والاقمشة والصوف والريش من اسباب توقي البرد لانها توصل حرارة الجسم الى الخارج بسرعة) والصواب هو انها لا توصل الحرارة بسرعة الى الخارج .

هذا ماوقع عليه نظري من الخطإ المتعلق في المادة اما ماهو متعلق بالقالب فاني اترك القول فيه لعلماء اللغة في المجامع العلمية . على اني لا اكتم المؤلف الفاضل رأيي في هذا الموضوع وهو : ان لغة العلم لا سيما المدرسي الابتدائي تستوجب الوحدة المطلقة في جميع الاقطار ذات اللغة الواحدة خشية عدم تفاهم ابناء الامة الواحدة مما يعمل على تفرقها ويحدد فائدة المؤلفات التي توضع في كل قطر من اقطارها . وخير للامة ان تتعارف بكلمة اجنبية من ان لا تتفاهم بالفاظ فصيحة . فليت المؤلف الفاضل الّف مابين الافكار على قبول المصطلحات التي استحسنها قبل نقشها في أذهان الطلبة لا سيما وان منها ما قد يقع الخلاف في قبول استعماله كاشتقاق اسماء الموازين والمقاييس على وزن مفعال كمحرار ومرطاب ومرواح ومرواز ومملاح الخ . وذلك لاسباب منها : ان في هذه الصيغة معنى الفاعلية النوعية فاذا قلنا محرار يفهم منه آلة تحدث الحرارة مع انها

آلة مفعولة للحرارة ومنها ان هذه الصيغة لا تدل على معنى الوزن او القياس بل هي تدل على معنى الآلة فحسب · ومنها ما يتولد من الالتباس في فهم كثير من الاسماء التي هي على هذا الوزن فلا يتبين هل يراد بها معنى القياس والوزن اوالفاعلية النوعية · كمنفاخ ومصباح ومقلاع الخ · مما يفضي الى التأويل حسب سياق الكلام ، وهذا تمجه لغة العلم وتأباه · ومنها الخروج عن المتعارف في القطر السوري والمصري بلا مبرر لان الفاظ ميزان اومجس اومقياس الحرارة والضغط مثلاً الخ المصطلح عليها فصيحة صريحة ·

فعسى ان يلاحظ المؤلف الفاضل تلك الهنات في تعريب الاجزاء الباقية التي نترقب خروجها الى حيز الوجود في وقت قريب تعميماً لنفعها وخدمة للغة العربية وابنائها ·

اسعد الحكيم
عضو المجمع العلمي العربي

اخبار الحمقى والمغفلين

للعلامة الحافظ ابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي المتوفى ببغداد سنة ٥٩٧ هـ
طبع في مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٣٤٥ (ص ١٧٢) · ويطلب من
السيد صلاح القدمي بدمشق

نشرنا في السنة الماضية ثلاث مقالات (مجلة المجمع م ٦ ص ١٩ و٥٥ و١٢٢) في وصف هذا الكتاب ، وبينا فيه من النكات والالفاظ والمعاني ، واقتبسنا منه طرفاً صالحاً · ويقيننا ان القراء ما زال على بالهم ما قرأوه بشأنه ، وقد أحسن احد أدباء هذه العاصمة بطبعه مأخوذاً عن نسخة دار كتبنا معارضة بنسخة ثانية كان العلامة الامير شكيب أرسلان استنسخها من مكتبة المدينة المنورة · وصدر الناشر هذا الكتاب بمحاضرة الاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي احد اعضاء المجمع العلمي في هذا السفر وما حواه من البدائع · وقد التزم الناشر طبع اخبار الحمقى والمغفلين برمته لم يحذف منه ما ربما يشمئز منه بعض المتأدبين من العصر بين فعمد الى الامانة في النقل وهي من جيد المنازع وكنا نود لو شفعه بفهرس للاعلام والقوافي والموضوعات على

الطريقة التي جرى عليها علماء المشرقيات في طبعهم كتب العرب ليسهل متناولها على كل مطالع ومراجع . م . ك

ذكرى شكسبير

نظم الدكتور أحمد زكي ابو شادي طبع في المطبعة السلفية بمصر (ص٣٣)

مجموعة شعرية نظمها الدكتور الفاضل بمناسبة فتح ممثل «نياتر» شكسبير التذكاري تقديراً لمزايا شكسبير شاعر الانكليز الأعظم ، وآثاره الخالدة ، وقد مثل بعضها بالعربية ونقل بعضها ولكن من الصعب نقل شعر الى شعر ومما قاله في عبقرية شكسبير :

فان الحياة كموج الضياء ... تشق الفضاء وتطوي البحارا
وان يعلم الناس ما اصلها ... أكانت حجى في العلى ام غبارا
ولكن لعقلك اني أضمين ... فقد كان كاور حياً وزارا
فما لوثته ذنوب الانا ... م ولا كان الا السنا والأوارا
اشعته عمرها كالزما ... ن تبث الرجاء وتقصي البوارا
وتهدي حرارتها للنفو ... س وجوداً جديداً وكوناً مدارا

م . ك

الجزء ٣ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : آذار سنة ١٩٢٧ م الموافق رمضان سنة ١٣٤٥ هـ

تاريخ الزراعة

« في بلاد العالم العربي[1] »

للبلاد التي يتكلم سكانها العربية اليوم ماض أغر ومدنية موطودة الأُسس قامت في وجه الدهر نمارَكته آلافاً من السنين يوم لم يكن الا هي كوكب يسطع في حلك الجاهلية والوحشية . ومن عربة او جزيرة العرب موطن الساميين الاصلي نزحت أجيال عظيمة وأمم شتى في دهور واغلة في القدم فألقت عصاها في سقي الفراتين فنشأت كلدية وعيلم وآشور ، ومنهم من اكتسح ديار الشام فنشأ الفنيقيون والكنعانيون فليس إذن من الغريب ان يقول العالم مسيو رنجلمان (Ringelmann) « ان جزيرة العرب في التاريخ المترامي الآفاق كالكأس كلما امتلأت سال منها الى الشمال رجال » . وتمدن كلدية أقدم من تمدن مصر ولم ينشأ تمدن مصر في القرون القديمة الا على اثر موجة بشرية امتدت من كلدية الى مصر حاملة معها الحضارة والعرفان ولذا قال مسيو مورغان (Morgan) « أيقنت وانا في وادي النيل ان طلائع المدنية في اوائل عهد المملكة المصرية وردت من كلدية فيكون سقي الفراتين إذن مهد رقي البشر » . وقال المؤرخ الشهير مسبرو (Maspero) « لرسوس المصر بين الاقدمين والعرب والفنيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها الى بعض وليس المصريون غير ساميين انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم » . ولقد كان من الواجب ان أبدأ خطابي بزراعة

(١) محاضرة ألقاها الأستاذ صاحب الامضاء في ردهة المجمع العلمي بدمشق بمناسبة انتخابه عضواً فيه .

أم العراق لولا ان تاريخ التمدن المصري القديم قد استبان قبل تاريخ الحضارة في بلاد الرافدين ولذا أبدأ بمصر على عهد اقدم ممالكها المعروفة اي منذ نحو ٦٠٠٠ سنة الى نحو ٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ولا بد لي قبل ذلك من التنويه بان ما ألقيه عليكم أيها السادة ليس سوى رؤوس أقلام لان الموضوع فضفاض يملأ كتاباً برأسه .

الزراعة في عهد المصريين الأقدمين — اشتهرت مصر على عهد الفراعنة بزراعة الحنطة والشعير والفول والبرسيم والكتان والقنب وكثير من البقول كما اشتهرت بغرس الكرمة واشجار الفاكهة . واهم هذه الاشجار مما رسموه على هياكلهم القديمة الرمان والمشمش والزيتون والدراق والتين والنخيل . وورد في التوراة ان العبرانيين بعد خروجهم من مصر اسفوا لفراقهم ما لذ وطاب فيها من الخوخ والبطيخ الاصفر والبصل والثوم . وقال هيرودوتس : « ان المصريين كانوا مكلفين بزرع الذرة البيضاء خاصة وانهم ما كانوا يقيمون لخبز البر وزناً ، اما الفول فما كانوا يألفون زرعه وهم لم يزرعوه الا للاتجار والمقايضة » . وذكر غوستاف اوزه (G. Heuzé) ان المصريين كانوا يزرعون قصب السكر واللوبياء والبامياء والقلقاس والخشخاش الذي منه يستخرج الافيون كما انهم كانوا يستخرجون الصمغ العربي من السنط النيلي . ولم يجد علماء الآثار اثراً للمنسوجات القطنية في اقدم ايام مصر لكن بلينيوس يقول ان القطن كان يزرع في مصر العليا ولعل ذلك في ايامه . واشتهرت مصر في نبات النيلوفر والقصب والبردي وكانت ساق البردي تبلغ خمسة امتار احياناً يستعملونها في البناء . وفي صنع أحذية للكهان وفي غير ذلك . ومن الياف سوق البردي كانوا يصنعون الورق .

وكانوا يربون البقر والمعزى والحمر والخنازير . اما الخيل والابل فما كان لها اثر في اقدم ايامهم بخلاف التمساح والكركدن ويظهر ان موجة العرب الرعاة الذين يدعون هيقسوس ساقت الخيل الى مصر في نحو القرن العشرين قبل الميلاد ولذا بدأت آثار الخيل تظهر في السلالة الثامنة عشرة . ولم تألف الخيل إقليم مصر بادئ بدء فكانت تمس الحاجة الى نقلها من الشام من حين الى آخر . لكنه اتى بعد ذلك زمن كان لتربية الخيل فيه شأن كبير حتى ان الملك سليمان كان في كل سنة يبتاع من مصر عدداً عظيماً من الخيل يستخدمها في قضاء حاجاته او يبيعها من ملوك الحثيين وغيرهم .

وكانوا يعتقدون ان الإلآه اوزيريس هو الذي علمهم صنع ادوات الحرث وتجهيز التربة وغرس الكرمة والأشجار المثمرة وحصد الذرة والشعير. وان امرأته ايزيسا علمتهم الطحن والخبز والنسج وكانوا قبل ذلك نصف وحشيين يأكلون لحم الانسان و يقتاتون من ثمار الارض فالآله اوزيريس هو ربّ الممول والحراث عندهم .

والمصريون الأقدمون من أقدر الشعوب على معالجة الارض العطشة بالإسقاء والارض المستنقع بصرف النقع عنها . ولهم حنكة في صنع الأسداد والحواجز لان ارضهم قحلة لا تنبت ولا تكون مغلالاً الا اذا رويت بماء النيل .

وكان القائمون باعمال الحرث والزرع العبيد والحمير والبقر ثم الخيل بعد حين . فالعبيد كانوا كثاراً رجالاً ونساء وجلهم أسرى يباعون مع الارض و يشرون ولهم حصة من المحاصيل كأنهم شركاء بالمزارعة ولكن مقصورون على العمل في الارض . ومن الغريب ان المصريين الأقدمين كانوا يكرهون الحمر و يضطهدونها معتقدين ان الشر متجسم فيها مع انها من انفع الحيوانات الدواجن . اما الابقار فكانت مقدسة فلا تذبح ولا تؤكل ولكم احتدموا غيظاً من اليونانيين عقب استيلائهم على مصر اذ شرعوا يذبحون الأبقار و يغتذون من لحومها . وقد كف المصريون عندها عن استعمال السكاكين خشية ان يكون اليونانيون عالجوا بها ذبح البقر .

ومحاريثهم ومناجلهم شبيهة بامثالها اليوم . وكانوا يحصدون بالمناجل السبل وحده دون سوق الزرع لا سيما اذا كان الزرع متآصراً او متأسداً . و يدرسون الحصائد دوساً بارجل البقر الا الذرة فانهم كانوا ينزعون حبها بآلة لها أسنان كالمشط . وقيل انهم عرفوا النورج واستعملوه لكنه لم يعثر على رسوم قديمة تنم عنه . ومما لاريب فيه انهم عرفوا الخميرة واستعملوها منذ أقدم ايامهم .

ومساكن الفلاحين الاولى بيوت صغيرة من قصب . ثم بنوا بالخشب فبالطين والآجر . ولا شبابيك لبيوتهم غالباً وان فتحوا شبابيك فبالسقف لجريان الهواء . وكانوا يبنون البيوت قريبة بعضها من بعض فتتكون منها قرى مقسمة الى حارات . ويندر بناؤهم بيوتاً منعزلة .

اما من حيث الضرائب فكانت تجبى غلةً . وجاء في التوراة ما يستنتج منه أن

يوسف أوجد ديواناً للتموين وآخر للمساحة والإحصاء وانه جبى الغلات ووضعها لا سيما الحنطة في مخازن عظيمة ثم فرقها في فقراء المصريين في سني المجاعة · وفي آخر سني الجدب جبى يوسف من المصريين خمس غلاتهم حتى كانت مصر صارت كلها ملكاً للدولة · وهو اول من اوجد مفتشين للزراعة ولبيت المال مع كل ما يتعلق بهم من نظار وجباة وكتاب وذلك لمعرفة مساحة المستغلات وجباية حصة الحكومة من الحاصيل على وجه الضبط ·

و يفيد قبل انهاء هذه الخلاصة في زراعة المصريين الأقدمين ان اذكر اقوال بعض العلماء فيما كان يعرفه هذا الشعب العريق في المدنية من العلوم والمعارف · قال هيرودوتس ان الآلهة والعبادة والشرائع والعلوم والصناعات والتعاليم الاجتماعية كلها ولدت على شاطئ النيل · وجاء في الأساطير ان النبي موسى درس علومه في مصر وان ابراهيم هبط مصر لدرس مدنيتها · وقال رنجلان ان مصر مهد العلوم والفنون وانه يعزى اختراع الحساب والهندسة الى المصريين · ويظن اسحق نيوتن (Newton) ان الآله توت وزير سيزوستريس هو الذي اوجد الهندسة لمعرفة حدود الارض واقسامها كلما عادت المياه الى مجاريها بعد فيضان النيل · وعلى ذكر ذلك اقول انه لا يزال اقباط اليوم على دربة عجيبة في معرفة مساحة الارضين بالقصبة وأجزائها دون استعمال اداة هندسية مهما تكن الارض متعرجة · وذكر اقليدس وغيره من علماء يونان غير مرة ان مصر مهد الهندسة · وقال ارسطوطاليس في فلسفته (ماوراء الطبيعة) « ان الرياضيات نشأت في مصر لان كهنتهم كانوا في معزل عن شواغل الحياة اليومية فأمكنهم الانقطاع الى الدرس » ·

الزراعة في العراق · — قلت ان مدنية سني الفراتين اقدم عهداً من مدنية مصر لكن ما استبان منها في عهد كلدية وعيلم واشور لا يمتد الى ابعد من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ، فكلامنا إذن يختص بزراعة أقوام العراق منذ ذلك العهد الى استيلاء الفرس سنة ٥٣٩ قبل الميلاد · وقلت ان سكان العراق الأصليين نزحوا اليها من جنوبي جزيرة العرب وكانوا يتكلمون لغة قريبة من الآرامية والفنيقية · وقد وجد في عيلم آثار ترجع الى ما قبل التاريخ اي الى عصري الحجر فالنحاس ·

وكان الكلدانيون يعتقدون بوجود غول او آله اسمه نمرود او اوانس (Oanès)

شبيه بآله المصر بين اوزيريس ، منه يستمدون العلوم والآداب والصناعات والهندسة والزرع والحصاد وتشييد الأبنية والمعابد . اما الفلاحة فلها آله خاص اسمه نينيب (Ninib) . ويعتقدون بان البشر ما كانوا يعملون بما يوحيه نمرود اليهم ولذا انتقمت الآلهة فأوجدوا الطوفان . وقد نشر مستر سميث (Smith) صفائح وجدت في نينوى وردت فيها قصة الطوفان وفلك نوح .

وكان سكان كلدية وعيلم وآشور يعرفون كثيراً من النباتات التي تزدرع ، و يرى كثير من علماء النبات ان آسيا الغربية وخصوصاً الشام والعراق وفارس تعد المهد الاصلي لعدد عظيم من اهم النباتات واعظمها فائدة للانسان كالحنطة والشعير وغيرهما ولقد نشرت منذ سنتين مقالاً في هذا الصدد ذكرت فيه انه عثر على الحنطة البرية جنوبي الشام منذ عهد قريب وانني التقطت منها كثيراً من السنابل . ومما كان يزرع في العراق الفول والعدس والحمص والحلبة والجلبان والخشخاش والكتان والسمسم والخروع والقرطم والفوة والخس والهندبا والاسباناخ والرجلة وقرة العين والجزر والبصل والثوم والباذنجان والباميا والبطيخ . وفي آثارهم رسوم شبيهة بالدلب والسنط والسرو والطرفاء . واشتهر من الاشجار والشجيرات المثمرة الخوخ والمشمش والكرز واللوز والتفاح والرمان والتين والكمثرى والزيتون والكباد والفستق والنخيل . قال توفراستس انهم كانوا يغرسون الكباد ويسمونه تفاح ميديا او تفاح فارس . وقال استرابون « يسد النخيل كل حاجات الأهلين لانه يصنع منه نوع من الخبز ونبيذ وخل وعسل ورب ومائة نوع من الانسجة » هذا وكل جزء من النخل له فائدة فقد ذكرت في كتاب (الاشجار والانجم المثمرة) انهم يصنعون حصراً وسلالاً من وريقات الخوص وأسرة من الجريد ومكانس من مدقوق قواعد الجريد وحبالاً من الليف المحيط بهذه القواعد ثم من أعواد العراجين بعد دقها الخ .

و يعرف سكان كلدية وعيلم بسكونهم وتنكبهم عن الشر وحبهم للفلاحة . وهم أوجدوا مدنيتهم من أساسها . اما الآشوريون فانهم اقتبسوا كل معارفهم من الكلدانيين الا صنعة الحروب فلهم فيها حذق ودهاء وكانوا غزاة سفكة لا يرحمون احداً .

وكان أقوام العراق في تلك العصور يعدون الارض ملكاً للآلهة ولمن يمثلهم اي

الملوك . وهؤلاء يهبونها لارباب الوجاهة وأفراد الشعب فيستغلونها او يبيعونها او يقسمونها بين ورثتهم . ومنهم من كانوا يستغلون الارض مباشرة وآخرون بواسطة عبيد مزارعين . وكانت ضريبة الارض تجبى غلة فتوضع في أنابير شيدت في انحاء البلاد يقوم عليها جيش من عمال بيت المال . وكانوا يخطون بالقلم المسماري علومهم واساطيرهم وما يهمهم حفظه في صفائح من طين تملأ وترسل الى الخزافين فيشوونها فتصلب كل الصلابة اذ منها ما مر عليها ٤٠ الى ٥٠ قرناً وهي لا تزال جلية تسهل قراءة ما كتب عليها . قال المؤرخ مسبرو « وكان لكل ارض صفيحة من خزف دونت فيها مساحتها واسم صاحبها واسم اصحاب الارضين المجاورة لها وما فيها من القنوات والأنهار والبيوت الخ . وكثيراً ما كانوا يضيفون الى الصفيحة مخططاً يستبين به ما يشكل ادراك موضعه . وليس من الصعب بعدما ذكر ان يكون في مستطاع رجال بيت المال في كلدية وضع ضريبة الارض على أسس وطيدة » . والكلدانيون من امهر الأمم القديمة بمسح الارض مما تكن مموجة فلقد كانوا يرسمون مخططات للمزارع والمدن وبلغ من جرأتهم ان حاولوا رسم مخطط للكرة الأرضية او لما كانوا يعرفون منها .

وذاعت شهرة الشرائع التي سنها حمورابي وهي ترجع الى نحو ٢٢٠٠ سنة قبل الميلاد . ومن ابحاثها المزارعة والاسقاء ورعي الماشية وقلب الحاقل مبافل واستيجار الرجال والحيوانات وادوات الزراعة وعقاب من يعذبون الرجال والماشية واجور العمال وشراء العبيد وحقوق السادة والعبيد المتقابلة والحقوق التجارية الخ وقد ذكرت كل هذه المواضيع العمرانية المهمة بعدل وحكمة . وكانوا يحفظون هذه الشرائع وامثالها في خزانات مقدسة يتعاهدها الكهان اي علماء ذلك الزمان . ويغلب على الظن ان اليونانيين اقتبسوا منها خلاصة ما تركوه للأعقاب في هذه المواضيع .

ومواشي الكلدانيين الأبقار المعروفة والأبقار ذات السنام والخيل والحمير . اما محاريثهم فشبيهة بمحاريث المصريين والمحاريث البلدية في هذه الأيام . وكذا آلات الحصاد والدراس .

واتى ملوك الكلدانيين باعمال عظيمة في إسقاء الارض ففتحوا الانهار وشقوا منها الجداول تتغلغل مياهها في الارض يمنة و يسرة . وتفاخروا باعمالهم هذه وأطلقوا

اسمهم على الأنهار كنهر حمرب الشهير · ويكفي اليوم ان تعاد هذه الانهار والجداول الى سالف عهدها حتى يصبح العراق من اغنى اقطار العالم · وكانوا يستخدمون الاسرى في حفر مجاري الماء وانشاء السدود والقناطر · وقد لبثت كل القني والمجاري تتعاهد و ينتفع بها ايام الخلافات العربية الى ان اجتاحت البلاد جيوش التتر والمغول الوحشية ·

الزراعة القديمة في الشام واليمن — هبط الفنيقيون سواحل الشام الوسطى والشمالية آتين من شرقي جزيرة العرب فأوجدوا في صور وصيدا وبيروت وجبيل وغيرها مدنية ذاع صيتها بما اكتشف العلماء من الآثار في تلك الاماكن الشامية · وكان الفنيقيون من امهر الامم في ركوب البحر والاتجار مع من جاورهم من الأجيال ولم يشتهروا بالحرث والزرع الا في شمالي افريقية كما سيجيء · لكنهم زرعوا الاماكن التي حلوا بها ورووا ما امكن إرواؤه منها فكانت سهول صور وصيدا الخصبة الريا بالماء تنتج اصناف الحبوب والثمار · وحذق الفنيقيون غرس الزيتون والكرم وصنع الخمرة حتى ان اليونانيين والرومانيين كانوا يرغبون في انبذتهم · وعثر علماء الآثار في ضواحي صور على آلات زراعية اتم واقوى من الآلات الزراعية التي كانت يعرفها الشعوب المجاورون لهم · وجاء في مجلة العلوم الافرنسية « ان اهم الاعمال الزراعية التي اشتهر الفنيقيون بها هو تأليفهم في قرطاجنة كتباً قيمة تبحث في ما اتصل بهم من نتائج التجارب الزراعية لانهم كانوا يضعون نصب اعينهم استغلال الارض للحصول على غلات يتجرون بها · واشهر كتبهم كتاب الجنرال ماغون (Magon) الفه في القرن الخامس قبل الميلاد وسماه (الاقتصاد الزراعي) وهو ٢٨ جزءاً ولذا سمي ماغون اب الزراعة · «والف هاميلقار (Hamilcar) ابن ماغون كتباً زراعية كأبيه · وقد نقل اليونان والرومان هذه الكتب الى لغتهم ورجعوا اليها في ابحاثهم فكانت اهم مقتبس لهم · ولا شك ان الفنيقيين لم يتوصلوا الى ذكر ما دونوه في الزراعة الا بعد ان مارسوا الاعمال الزراعية قروناً عديدة وكتبهم هذه تدل على علو كعبهم في الفلاحة على ما فيها من ابحاث بعيدة عن الاسلوب اليقيني » ·

واذا انتقلنا في بحثنا الى ذكر العبرانيين او الاسرائيليين بعد ان نزحوا من مصر واستوطنوا جنوبي الشام قبل الميلاد ببضعة عشر قرناً نرى انهم كانوا ارباب زراعة

يسيرون على ما اقتبسوه من مصر ايان مدنيتها الزاهرة . وقد كثر في جنوبي الشام على عهدهم غرس التين والزيتون واللوز والرمان والكرمة كما كثرت غلات الحنطة والشعير والقطاني وعدد من البقول . و يبالغ بعض المؤلفين من يهود او ممن يتعصبون لهم او ينقلون عنهم فيجعلون فلسطين جنات تجري من تحتها الأنهار لا سيما في عهد الملك داود حتى ان احدهم جعل مساحة الارض المكسوة باشجار الفاكهة في تلك الايام عشرة ملايين دونم تقريباً وهو وهم لا يقره العقل بعد محاكمة تاريخية فلسفية على أسلوب يقيني . والحقيقة التي عليها اكثر المؤرخين هي ان الاسرائيليين مع اشتغالهم في الأرض قليلاً لم يوجدوا في الزراعة شيئاً يذكر وكذا في العلوم التي كانت معروفة في تلك العصور .

وسكن الشام اجيال كثيرة غير من ذكرناهم منهم المتوغلون في القدم كالعمو واللوداتو، وآخرون اقرب عهداً كالحثيين والارامیين والعموريين وغيرهم وقد اتت الدهور على آثارهم فلم يستطع تدوين حال الفلاحة في ايامهم .

ومن اقدم الامم التي حلت الشام وشادت فيها الممالك قبل الاسلام اجدادنا العرب . قال رئيسنا العلاّمة صاحب خطط الشام : « ان العرب في الشام منذ زها ٢٥٠٠ سنة واوصله بعضهم الى نحو ٤٠٠٠ سنة » واشهر دولهم فيها دولة النبط والغساسنة والتنوخيين والايطوريين ناهيك عن القبائل العديدة التي كانت تضرب في انحاء البلاد . فالنبطيون في البتراء وان لم يشتهروا بالفلاحة فقد الفوا قبل اليونانيين والرومانيين كتاباً زراعياً غاية في الجودة نقله احمد بن علي بن المختار المعروف بابن وحشية وقد صرح علماء الغرب بان هذا الكتاب هو الصلة الوحيدة بين زراعة الممالك الآسيوية القديمة وبين الزراعة الحديثة . وقال العالم الفرنسي رنجلمان « ان اول من دوّن الأعمال الزراعية التي البستها التجارب حلة فن ثابت هم الانباط » . وقال : « ان هذا الكتاب معلمة زراعية ثمينة » . وقد طالعته في خزانة بايزيد في القسطنطينية فألفيته سفراً قيماً لم يكتف فيه ابن وحشية بذكر ما يحتويه الاصل بل اضاف اليه كثيراً من الأبحاث الزراعية في ايامه . واهم ابحاثه استنباط المياه وهندستها وحفر الآبار واطلاع الماء من عمق قريب واختلاف طباع المياه واصلاح الضياع وتغييرات

الأهوية ودلائل مجيء المطر والأوقات الموافقة لضروب الأعمال والاراضي المحتاجة الى الإصلاح وغرس الزيتون وبعض الأشجار المثمرة وزرع الحبوب من حنطة وشعير وغيرهما وزرع كثير من البقول ومن النباتات الزيتية والليفية كالجزر والبصل والكراث والسمسم والكتان والخشخاش وزرع عدد من نباتات الأزهار والرياحين واشجار الزينة كالبنفسج والسوسن والنيلوفر والنرجس والأقحوان والياسمين والنسرين والآذريون والبهار والخزام والدردار والأزادرخت ·

ان من يجوب منكم ايها السادة مناطق الشام الشمالية الشرقية لا سيما ارباض سلمية والحمراء ومنبج يشاهد في تجواله قنوات عديدة تنساب مياهها مع انحدار الارض حتى تبلغ سطحها فتسقي ما اطمأن منها، ويرى ان كثيراً من القني لا يزال مدثوراً يلزم كريه وارجاعه الى سالف عهده فهذه القني القديمة يعزي بعضهم فحهسا الى الفرس على اثر افتتاحهم الشام · ولا ريب ان للرومانيين ثم لأجدادنا العرب يداً في تزييد عددها لان انحاء سلمية كانت بساتين وغياضاً زاهرة في عهد الممالك العربية ·

ومما يلفت النظر جنوبي حمص بحيرة قطينة او بحيرة قدس والسد الذي قام في وجه العاصي لتحويل قسم من مياهه الى المدينة وبساتينها · فقد ذكر الأب لويس شيخو في مجلة المشرق انه ورد في تلودي اورشليم وبابل ان الانبراطور ديوكلسيان (٢٨٤ — ٣٠٥ م) هو الذي سد بحيرة البحيرة واقامة السد · لكنه يرجح ان البحيرة اقدم منه عهداً · وجاء في تقويم البلدان ان سد بحيرة قدس هو من عهد الاسكندر الا انه لم يقم صاحبه دليلاً على ذلك · وللأمير جعفر الحسني مدير متحفنا رأي وجيه في هذا الصدد وهو انه اذا كان العلماء لم يستقر رأيهم على نسبة السد الى الرومانيين او اليونانيين مع ما يكون في آثار هذين الشعبين من الخصائص التي لا تدع مجالاً للشك في نسبة آثارهما اليهما، فلعل هذا السد من صنع الحثيين لا سيما وحمص كانت بيئة حثية محضة ·

هذا في الشام · ولنطفر الى قطر عربي عريق في عروبته بعيد عن الشام كل البعد وهو القطر اليماني حيث كان العرب الأقدمون يعنون بشؤون الزراعة فلقد ذكر بلينيوس ان المعينيين يقيمون في بلاد كثيرة الغاب والأغراس · وقال استرابون ان

اخصب بلاد العرب هي بلاد سبأ وقال ان من محصولاتها المرّ والبخور والقرنفل والبلسم وسائر العطريات فضلاً عن النخيل والغاب . وقال الهمداني ان في وادي ظهر في اليمن نحو عشرين نوعاً من الأعناب وفيه من أصناف الأجاص الفارسي والحميري والتين والكمثرى ما لا مثيل له في الأرض . وقال جرجي زيدان « ان من يجوب بلاد العرب حتى يأتي حيث كانت مدائن معين وسبأ وحمير وغيرها من الدول القديمة لا يرى اليوم الا رمالاً محرقة وجبالاً جرداء والحقيقة ان تلك البلاد كانت على عهد ذلك التمدن بساتين وغياضاً فيها الأغراس من الأشجار وفيها الرياحين والحنطة والازهار » .

ويوجد نقوش كثيرة في الحجر تدل على اشتغال عمالقة اليمن بحرث الارض وآثار اسداد ضخمة شادوها لجمع الأمطار ومعالجة الارض بالاسقاء . واضخم هذه الاسداد سد العَرِم او سد مأرب الشهير ويليه اسداد قصعان وربوان وشحران وعباد وغيرها .

الزراعة في عهد العرب بعد الاسلام . — العدل والأمن هما أساس الملك ودعامة العمران فبهما استطاع اجدادنا العرب ان يدوّخوا الممالك القديمة ويؤسسوا فيها مدنية عربية اسلامية سطعت انوارها يوم كان العالم سادراً في حلك الجهل وغياهب الهمجية ولئن عجبتم فاعجبوا لشعب بدوي جاهل يغزو ممالك عريقة في الملك فما هي الا رمشة عين في حياة الأمم واذا بهذا الشعب يحترم اديان المغلوبين وعاداتهم ويؤمن الخائف وينصر المظلوم على الظالم ويقر الناس على اموالهم وزرعهم وماشيتهم ويسوس الجميع بعدل وحكمة وحنكة ويترجم ويؤلف ويتعلم ويعلم ويسبق من كانوا قبله ومن عاشوا معه . حقاً ان الانسان اذا اعمل الفكر في هذا الشعب العربي أكبره .

ونمّى العرب علومهم الأصلية في عهد الأمويين والعباسيين ونقلوا الى العربية علوم اليونان والفرس والهنود والكلدان والسريان والنبط واوجدوا مدنية شهد لهم اعداؤهم بعظمتها فما ذا كان حظ الزراعة من ذلك ؟ هذا ما توخيت ان أوجزه في هذه العجالة . ان اول ما يهم معرفته حالة الارض وطرق تملكها وما وضع العرب عليها من الضرائب وما سنوه من الشرائع الزراعية .

كان المجاهدون العرب في اول الفتوح الاسلامية يودون لو جعلوا الارضين التي تقع بايديهم غنيمة تقسم بينهم كسائر الغنائم لكن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه حرم على المسلمين كما قال المتريزي اقتناء الضياع والمزارع واجرى عليهم الرواتب والأرزاق من بيت المال ولم يستثن عيالهم وعبيدهم ومواليهم . وذكر ابن عساكر ان اهل الذمة اذا اسلم احد منهم صارت داره وما كان يملكه من الارض الى اصحابه من اهل القرية وهم يؤدون خراجها . ومن السهل ادراك الغرض من هذه السياسة القويمة التي سار عليها الخلفاء الراشدون فلقد كان عدد المسلمين قليلاً وكانت البلاد التي دخلت في حوزتهم مترامية الاطراف وكانوا الزموا انفسهم فريضة الجهاد . ولهذا كان من الواجب الا تلهيهم الارض عن القتال في سبيل الغاية المحمودة التي انتدبوا لها ورفضوا الأقوام بها . أفلسنا نرى اليوم كثيراً من الحكومات الاوربية تمنع زواج الضباط الى حد محدود وتكف عن ارسال الجنود والضباط الى المستعمرات الا بارادتهم خوفاً من ان يلهيهم الحنين الى ارضهم ومساكنهم واولادهم عن القيام بما تستلزمه الجندية من الكد والتعب ومواجهة الاخطار . وثمة غرض ثان حمل الخلفاء الراشدين على اتباع السياسة المذكورة وهو كما قال ابن عساكر ان يبقى اهل الذمة وارضهم مصدراً للمال الذي يحتاج اليه المسلمون في اتمام الجهاد دون ان يستأثر بخراجها بعض المسلمين دون بعض اذا تملك بعضهم الارض . فيتضح مما ذكر ان العرب في صدر الاسلام لم يمتنعوا عن الزراعة واقتناء المزارع احتقاراً للأكارين ومهنتهم كما ذكر بعض الشعوبيين ومتعصبي الفرنجة بل كان لأنهم في ذلك غرض اسمي . ولئن امتنع العرب انفسهم عن الاشتغال بالزراعة في اول عهد الاسلام فلقد كانوا عليمين بان هذه الصناعة هي ركن ثروة البلاد ومصدر الغنى لبيت المال ولذلك عطفوا على الفلاحين وابقوا دواوين الخراج اي ضريبة الارض على ما كانت عليه ايام الروم والفرس وكانوا ارفق ممن تقدمهم في جباية الخراج وعدلوا فيه على مقتضى الأحوال في مختلف البلاد التي دانت لهم وخضعت لسلطانهم . وسواء أكان الخراج بالمقاسمة ام بالمساحة « اي بنسبة الغلات او ضريبة مقطوعة على المساحة » فما كان يزيد على عشر المحاصيل مطلقاً على حين نصت شرائع الدولة التركية على استيفاء ثمن المحاصيل عدا ضريبة الارض . وكان

غير المسلمين الملزمين بالجزية وهي ضريبة لم يحدثها العرب بل كانت الأمم القديمة تعرفها من اغريق ورومان وفرس وهي توضع لقاء حماية اهل الذمة من التعدي عليهم والتصدي لهم لانهم ما كانوا ملزمين بالقتال للذب عن حياضهم . فالجزية إذن شبيهة بما يسمى « بدل العسكرية » ايام الترك اي الضريبة التي كان يجمعها الترك من المسلمين وغير المسلمين للخلاص من الجندية . ولم يضع العرب الجزية على النساء والصبيان والرهبان واهل العاهات . وكان مقدارها مختلفاً باختلاف درجات الناس وقلما كانت ثقيلة الوطأة الا في حالات خاصة كأن تمس الحاجة الى المال لقتال عدو او لاغراض أخرى ذات بال .

ولم يدم ابتعاد العرب عن التصرف بالارض طويلاً فان معاوية ايام كان عاملاً على الشام رأى ان جانباً كبيراً من القرى كان ملكاً لحكام الروم وقوادهم فلما قتل بعضهم وفر بعض لبثت تلك القرى بلا صاحب فكتب معاوية الى عثمان ان ما اجراه عليه من الرزق لا يقوم بمؤنة رسل الروم ووفودهم ورسل امراء الجند وغيرهم وسأله ان يقطعه تلك الضياع والمزارع لانها لا صاحب لها فأجابه عثمان الى طلبه . وهكذا أخذ العرب يقتنون الضياع إما باقتطاع ما ليس لها مالك او بشراء التي أقرت لاصحابها من اهل الذمة . والارض التي كانوا يقتطعونها هي الارض الموات والتي نسميها اليوم محلولة او خالية اي التي فر اصحابها او قتلوا او كانت مستنقعاً او معطلة مدة طويلة لسبب من الاسباب . وظلت ملكية الارض للامام والناس يستغلونها اي لهم حق التصرف بها . ولبثت هذه القاعدة في انحاء بلاد العرب الى اليوم الا في مصر حيث أصبحت الارض ملكاً صرفاً للمصريين من ايام الخديوي سعيد باشا وهذه هي الحال في بلاد اوربا في ايامنا هذه . وبعد ان اقتطع المسلمون الارض وابتاعوها أخذوا يدفعون العشر عنها اي عشر غلاتها كما في الخراج . وما عتم العرب عقب اقتنائهم المزارع واشتغالهم بالارض حتى تغلبوا على عناصر المزارعين او الأكرة الأصليين كما تغلبت اللغة العربية على لغتهم كاليونانية والسريانية والارامية والفارسية والقبطية وهكذا عمت العربية البلاد التي يعنينا امرها وانقرضت لغاتها القديمة وصارت هذه البلاد تعد بلاداً عربية محضة .

ومما يلفت النظر ما في الشرع الاسلامي من القواعد الاقتصادية القويمة فضريبة

المستغلات مثلاً هي عشر المحصول من ثمار او حبوب اذا كانت الارض تسقى سيحاً اي من المطر والانهر بلا تعب · اما اذا كانت تسقى بتعب فالضريبة نصف العشر · ومما يدهش ايضاً ان هذه الضريبة (وكانت هي الصدقة او الزكاة بادئ بدء) ما كانت تؤخذ الا اذا زاد المحصول على كذا من الغلة اي على المقدار الضروري لقوت الاكار وعياله اما الشرائع التي أبقاها الترك لنا فهي تلزم الفلاح بدفع ثمن المحاصيل عامة سواء كانت سنته سنة خصب او محل · أفليس يعلم كل منا ان قرية كذا أمحلت في سنة كذا حتى ان زراعها لم يحصلوا على سوى بذارهم ومع ذلك جبت الحكومة التركية حصتها بتمامها من ذلك المحصول الضئيل · ان القاعدة التي ذكرتها كانت تمنع أجدادنا العرب عن مثل ذلك · ومن القواعد الاقتصادية المهمة ايضاً ان الصدقة كانت تتضاعف احياناً بنسبة ثروة الانسان · وهذه القاعدة يسير عليها اليوم كثير من الحكومات الاوربية في استيفاء الضرائب فالذي يكون صاحب ثلاثمائة دينار مثلاً يدفع دينارين عن المائة الاولى وثلاثة دنانير عن المائة الثانية واربعة دنانير عن المائة الثالثة وهكذا تزداد نسبة الضريبة بنسبة ازدياد ثروة المرء وثقل بقلتها · ولم تُفرض الصدقة على الخيل والحمر والبغال لا لها من الفائدة · وكانوا اذا وضعوا العشر او الخراج بالمساحة ينظرون الى بعد الشُقّة بين الارض والمدن فكأن الضريبة تدفع في الارض التي أنتجت المحصول وذلك عدل ·

وجاء في الشرع الاسلامي قواعد في استغلال الارض وعمارتها غاية في الحكمة مثل شروط المساقاة والمزارعة وكري الانهار والمجاري واصلاحها وحريم الآبار والقني والانهر وإحياء الارض الموات وإباحة الانهار العامة والبحار والبحيرات والاعشاب والاشجار التي تنبتها الطبيعة والآبار التي لم تحفر بسعي الناس الى غير ذلك مما يدل على بعد نظر في عمارة الارض واستغلالها وعلى براعة في سياسة الشعوب لا ينكرها الا كل جهول او صاحب تعصب ذميم ·

يستنتج مما ذكرت اولاً ان العرب في صدر الاسلام أقروا سكان البلاد التي فتحوها على ارضهم ولم يقتطعوا لانفسهم سوى الارض الموات والتي لا صاحب لها · ثانياً انهم وضعوا على الارض ضريبة معتدلة متناسبة مع غلاتها فلما أربت على عشر هذه الغلات · وقد

كانت تبلغ نصف العشر أحياناً . وإن زادت على العشر في بعض الأحايين فما كانت وطأتها شديدة لاستبحار العمران ورخاء العيش . ثالثاً انهم وضعوا شرائع زراعية وضح فيها حق كل اكار او رب ارض وامتنع بها تعدي بعض الناس على بعض . فلا عجب بعد هذا ان ينشط الاهلون الى استغلال الارض وعمارة المزارع والقرى وان يبلغ ارتفاع الخراج في الأقطار التي خفقت في ربوعها رايات الدول العربية أضعافه في يومنا هذا مع رخاء السعر في تلك الايام . وقد أسهب مؤرخو العرب في ذكر ما كان يجبى في مختلف الأقاليم ايام الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في المشرق والمغرب مما لا يمكن ذكره في هذا البحث الموجز . بل يكفي ان أنقل ما جاء في تاريخ التمدن الاسلامي وهو ان ما كان يرد الى بيت المال في عهد المأمون يقدر بنحو ٣٦٠ مليون درهم وكان ينفق منها في مصالح الدولة نحو ٦٠ مليون درهم فيبقى ٣٠٠ مليون درهم اي عشرة ملايين جنيه تقريباً . واذا قلنا عشرة ملايين جنيه في تلك الايام فكأننا قلنا خمسين مليون جنيه في ايامنا هذه . فأي دولة من دول العالم اليوم يفيض في خزائنها هذا المال العظيم . ثم يجب ان يلحظ ان معظم واردات بيت المال كان مصدرها الخراج اي ضريبة محاصيل الارض وفي ذلك أجلى دليل على ما كان للزراعة من الشأن في هاتيك الايام الزاهرة . ولما كان الملك والمدنية وكل شيء لا يقوم الا بالمال حق لنا ان نقول ان الزراعة ومنتوجات الارض هي أكبر عامل في تكوين المدنية العربية الاسلامية بكل مظاهرها . فهي التي جعلت الخلفاء يبنون المدن كبغداد والبصرة والكوفة والقاهرة والرقة ويشيدون القصور والجوامع والمدارس والتكايا وينفقون عن سعة على العلماء والادباء والشعراء والمترجمين ويوسعون على العمال والجنود والشرط لصيانة الملك وإقامة العدل بين الناس .

وكان لارباب الوجاهة والمال عناية باصلاح الري . يدلنا على ذلك مثال ذكره قدامة بن جعفر وهو انه انبثقت بثوق في دجلة ايام الحجاج فلم يثنه اشتغاله في الحروب عن ان يكتب الى الوليد بن عبد الملك يخبرها وبانها تستلزم انفاق ثلاثة ملايين درهم فلما استكثرها قال له اخوه مسلمة بن عبد الملك « انا أنفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الأرضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد إنفاق المال على ايدي ثقاتك

فرضي الوليد بذلك فحصل له ارضون وطساسيج كثيرة فحفر نهرين سماهما السيبين وتألف الأكرة والمزارعين وعمر تلك الأرضين. وجرى الناس على ذلك الى أواخر بني أمية ».

وكان العباسيون اكثر اهتماماً من الأمويين في شؤون الفلاحة وتعمير القرى والدساكر لا سيما في السواد اي بين دجلة والفرات حيث كان مقر ملكهم فلقد احتفروا الأنهر والمجاري وأقاموا الأسداد وأنشأوا الجسور حتى أصبح ما بين النهرين على اتساعه شبيهاً بالغوطتين من حيث اشتباك الأنهار ومجاري الإسقاء. ولدينا مثال أقرب في قنوات سلمية وأطرافها فان التاريخ ينبؤنا بان أرباض سلمية بين حمص وحماة كانت ايام الدول العربية رياضاً غناء تبقى بقني عديدة لم تدع للاعداء أثراً. وقد ردمت هذه القنوات كما انبثقت أسداد دجلة والفرات وردمت أنهارهما ومجاريهما بعد ان ضعف شأن الخلافة العربية وانهال عليها من المشرق برابرته. وكانت خلاصة تقرير السير ويلكوكس المهندس المائي الشهير الذي كانت الحكومة التركية انتدبته لدرس الري في العراق (وقد ترجمته بالعربية) عبارة عن إعادة فتح الأنهار والمجاري وإقامة الأسداد التي كانت ايام الرشيد والمأمون.

وكان سكان الشام والعراق أضعاف سكانها اليوم كما ان سكان مصر كانوا يقدرون بنحو ٢٠ مليوناً. وهذا لا يستغرب. ألم يكن سكان مصر ثلاثة ملايين منذ اقل من قرن فاذا بهم اليوم نحو ستة عشر مليوناً بعد ان عدل محمد علي وذريته بين الناس وبعد ان أنشأت القناطر الخيرية وسد أصوان وفتحت مجاري الري واكتشف ان القطن الجيد الشعر يألف تربة مصر وإقليمها.

والأشجار والزروع التي كان يزرعها العرب عدد عظيم بل هي كل ما تعرفه في ايامنا هذه الا ما نقل حديثاً من العالم الجديد اي اميركة الى العالم القديم مثل التبغ والبطاطا والفاصولياء وغيرها او نقل الينا من البلاد البعيدة التي استعمرها الاوربيون كالقشطة والنجو والمشمش الهندي وأضرابها. وكان لهم حذق بالتجارب الزراعية واصطفاء الأصناف النباتية الجيدة وتكثيرها ولأنواع المشمش والتين وخلافها من الفواكه اصناف تعد بالعشرات. ومن البديهي انه لا يقتني أصنافاً عدة كهذه الا الذين يعرفون مزايا كل منها و يعرفون كيف الحصول عليها.

وللعرب فضل في نقل كثير من النباتات المفيدة الى اوربا وتعريف الفرنجة بها . ذكر مؤلفو الافرنج ان العرب هم الذين نقلوا القطن الى الاندلس وصقلية فاقتبس الاوربيون زراعته عنهم . وقالوا ان اول من بحث في القطن فأسهب في زرعه ودوّن ما كان يعرفه فيه المصنفون المصريون والفرس القدماء هو ابو زكريا يحيى بن محمد بن العوام الاشبيلي في كتابه الشهير « الفلاحة الاندلسية » واقتبس العرب من الصينيين زرع قصب السكر واستخراج السكر منه فنقلوهما الى مصر وصقلية والاندلس وهنالك تناولها الاوربيون ولا سيما البرتغاليون ثم نفشت زراعة هذا النبات في اميركة بعد اكتشافها وخصوصاً في كوبة والمكسيك . وذكر اكبر علماء النبات ان العرب هم الذين يرجع الفضل اليهم في نقل معظم أشجار الفصيلة البرتقالية من شرق آسيا ونشرها حول بحر الروم . فالأترج مثلاً مهده الاصلي في الهند وقد نقله العرب منها في القرن الثالث من الهجرة وأذاعوه في البلاد التي امتد سلطانهم عليها . ومهد الليمون الحامض هو في الهند ايضاً وقد نقله العرب الى العراق والشام والمغرب والاندلس فوجده الصليبيون متأصلاً في الشام فنقلوه الى ايطاليا وغيرها . وهكذا يقال في البرتقال والليمون الحلو الاالكباد فاليونانيون كانوا يعرفونه . اما المندرين (يوسف افندي) فحديث وكذا الليمون الهندي او النراسكين . واخذ الفرنج عن العرب زرع البطيخ والمشمش والخوخ كما نقلوا من مصر والشام الى بلاد الفرنجة عدداً كبيراً من العقاقير الطبية والأبازير والافاويه التي منابتها الهند وغيرها من البلاد الحارة .

وترجم العرب عن اليونانية والنبطية كتباً كثيرة في النبات والحيوان والماشية والزراعة . وأشهر الكتب الزراعية التي ترجمت بالعربية كتاب الفلاحة النبطية الذي تقدم ذكره . وثم كتاب لا بأس به وهو كتاب الفلاحة الرومية لقسطا بن لوقا البعلبكي وأشهر كتاب هو الذي ألفه ابن العوام في القرن السادس من الهجرة وسماه (كتاب الفلاحة الاندلسية) . قال العالم الفرنسي رنجلمان « كان ابن العوام يسكن اشبيلية وكان يجرب تجارب عديدة على جبل الاشرف وليس كتابه معرض فصاحة وبلاغة بل هو مجموعة أجمل الأبحاث والقواعد الزراعية التي كتب فيها الأنباط واليونانيون والرومانيون عدا ما كان يتبع في الاندلس » . وقال العالم الزراعي انطوان باسي

(Antoine passy) في تقرير قدمه الى الجمعية الوطنية الزراعية الفرنسية سنة ١٨٥٩ « ان ما لكتاب ابن العوام من عظيم الشأن لا يقتصر على كونه حاويًا الفنون الزراعية القديمة مع التي تتبع في الاندلس بل لهذا السفر قيمة ثانية وهو انه كشف النقاب عن انه كان للعرب نظرات في الطبيعة والكيمياء لم نكن نرقب وجودها • وهو سفر مملوء بالفوائد يطلّ بنا في شكل موجز على ما كانت عليه زراعة الامم القديمة ثم ما بلغته بعدها في الاندلس وفي جميع البلاد الاسلامية إبان الفتح الزاهر • وفي الاختصار ان هذه الدائرة الزراعية التي تخص بها القرن الثاني عشر من الميلاد هي كاملة » •

يستخلص مما ذكرته عن الزراعة في عهد العرب بعد الاسلام انه حق لأجدادنا الفخر لاحتفاظهم بكثير من علوم الأقدمين الزراعية و باضافتهم تجاربهم وملحوظاتهم اليها مما لا يخلو من فوائد عملية ومن حقائق علمية نقرها عقولنا اليوم • فكما قيض التاريخ هذه الامة الكريمة للاحتفاظ بعلوم اليونان والرومان والفرس والهنود والأنباط في الفلسفة والطب والفلك والرياضيات وغيرها وذلك في القرون الوسطى يوم لم يكن غيرهم في عالم المدنية فلقد جعلهم ايضًا حفظة العلوم الزراعية بفروعها • وهذه الحقيقة التي لم يكتب فيها احد الى الآن على ما أعلم يجب ان ترسخ في أذهاننا حتى اذا جاء ذكر العرب إبان مدنيتهم الزاهرة نقول بملء فمنا انهم عرفوا ان يحفظوا و يوسعوا كل العلوم المفيدة التي كانت للعالم المتمدن من قبلهم بلا استثناء •

مصطفى الشهابي
عضو المجمع العلمي العربي

قانون البلاغة

— ٣ —

ومن هذا الجنس كتاب الحجاج الى المهلب يستزيده في قتال الأزارقة : فان انت فعلت ذلك ، والا شرعت عليك الرمح . فقال المهلب في الجواب : ان شرعت اليّ الرمح ، قلبت عليك ظهر المجن . فهذا المذهب الذي هو التمثيل معاكس لمذهب الإرداف ، اذ كان في ذلك قوة الإسهاب والبسط . وفي هذا قوة الايجاز والجمع ، وهو ايضاً مستعمل في العبارة الشعرية . وقد ذكرنا وجه استعماله في الشعر في الكتاب الذي أفردناه في البلاغة الشعرية .

ومن عيوب اشتراك اللفظ ، والمعنى ، (الإخلال) ، وهو ان يخلّ من اللفظ بما فيه استيفاء المعنى وتمام المقصد به ، مثل ما كتب كاتب فقال : فان المعروف اذا زجا[1] كان أفضل منه اذا توفر وابطا . فأري ان هذا الكاتب انما أراد ان يقول له : فان المعروف اذا قلّ وزجا ، كان أفضل منه اذا كثر وابطا ، فترك ما به يتم المعنى ، وهو ذكر القلة .

ومن عيوب هذا الجنس الإخلال بالافادة ، وهو ان يؤتى في الكلام بزيادة لفظ يفسد المعنى ، كما لو قال قائل مثلاً : فان الامر والنهي ، لو ذقتهما ، طيبان . فقوله لو ذقتهما زيادة تفسد المعنى ، وذلك انه لولم يذقهما لم يكونا طيبين ، وليس الطيب والكريه انما يكونان كذلك بذوق الذائق لهما بل هما على هذه الحال بانفسهما .

ومن عيوب اشتراك اللفظ[2] ان تقدم الفاظاً تقتضي جواباً يأتي بعدها باعادة ما تقدم منها ، فلا يؤتى بالألفاظ باعيانها ، بل ينقل المعنى الذي تدل عليه الألفاظ الى ألفاظ أخر غيرها ، مثل ما كتب بعضهم : فان من اقترف ذنباً عامداً ، واكتسب جرماً قاصداً ، لزمه ماجناه ، وحاق به ما توخاه . فنقل لفظي الاقتراف والاكتساب ، الى لفظي الجناية والتوخي . وكان الأحسن ان يأتي بهما باعيانهما فيقول : لزمه

(١) زجا الامر تيسر واستقام . ولعله (وحى) بمعنى اسرع ليقع في مقابلة (ابطا)

(٢) اسم هذا العيب ساقط من الاصل .

ما اقترفه ، وحاق به ما اكتسبه ، اذ كان ذلك هو الذي يختاره البلغاء .

ومن عيوب هذا الجنس ، الهذر والتبعيد ، عند الحاجة الى الايجاز والتقريب ، وهذا هو زيادة الألفاظ على المعاني من غير سبب يدعو اليها ، او حاجة تبعث عليها ، والمثالات في ذلك موجودة كثيرة من كلام العامة والدخلاء في الصناعة .

ان من آلة الكاتب وأداته ان يضيف الى الاحسان في الكتابة ، مثل ذلك في المحاورة والمخاطبة ، حتى تكون ألفاظه مهذبة ، واشاراته مستعذبة ، والنفوس نحوه اذا نطق منصتة . فمن المحاورة المستحسنة قول الفضل بن الربيع فقد قال له الرشيد : كذبت . قال يا امير المؤمنين : وجه الكذوب لا يقابلك ، ولسانه لا يخاطبك [1] ، فوصله . وقال : كذبني فوصلته ، لحسن جوابه . ودخل سعيد بن مرة على معاوية فقال له : انت سعيد بن مرة فقال انا ابن مرة وانت السعيد فوصله لحسن جوابه . وقال السفاح او المنصور للسيد الباقر أأنت السيد . فقال : انا ابن ابي وانت السيد . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمه العباس : انت اكبر مني فقال : انا أسن ، وانت اكبر مني . وقال سعيد بن عمرو بن عثمان لطويس المخنث : اينا أسن فقال : بابي انت وامي ، لقد شهدت زفاف امك المباركة الى ابيك الطيب . فلو جعل الطيب وصفاً للام قد هجّن بالابن . وعلى حسب مايستحسن هذا الجنس من الجواب ، يستقبح ما كان خلافه من الخطاب . كما يروى ان رجلاً مرَّ بابي بكر او بعمر ومعه ثوب وقال تبيعه قال : لا عافاك الله فقال قد علمتم لو تعلمون هلا قلت لا وعافاك الله .

ومما جاء من الدلالة على تفضيل البلاغة ما انا ذاكره في هذا الكتاب قال العباس يا رسول الله فيم الجمال ؟ فقال في اللسان . وزعمت الحكماء ان اعلى الخلق مرتبة الملائكة ثم الانس ، وانما صار لهؤلاء الفضل على سائر اصناف الخلق بالعقل والنطق . وقال مسلمة بن عبد الملك مروءتان ظاهرتان الرياش والفصاحة . ودخل ضمرة بن ضمرة على النعمان بن المنذر فاحتقره لدمامة كانت فيه .فقال تسمع بالميدي خير من ان تراه . و يقال لا ان تراه . فقال ابيت اللعن ان الرجال ، لا تكال بالقفزان ،

---

(١) تروى هذه العبارة لسهل بن هرون باسلوب آخر .

وليست بمسوك [1] يستقي فيها · وانما المرء باصغريه قلبه ولسانه ان صال صال بجنان ، وان قال قال بلسان · قال الشاعر [2] :

وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته او نقصه في التكلم

ومما جاء في وصف البليغ وترتيب البلاغة ما انا ذاكره : حكى الجاحظ عن بعض حكماء الهند انه قال : اول البلاغة جماع آلة البلاغة · وذلك ان يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الامة ، بكلام الامة ، ولا الملوك بكلام السوقة ، ويكون معه من القوة ما يصرّف به لفظه في كل طبقة ، حتى لا يدقّق المعنى اذا خاطب أوساط الناس ، ولا يدع ذلك اذا خاطب حكيماً او كاتب فيلسوفاً ·

وقال الجاحظ من شروط البليغ ، ان يكون ذاكراً لما عقد عليه اول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره ، في وزن تصفحه لموارده · قال : وكان خالد بن صفوان يوصف بانه أذكر الناس لاول كلامه ، وأحفظهم لكل ما سلف من منطقه ، فقال فيه الشاعر :

عليم بتأويل الكلام ملقّن ذكور لما سدّاه اوّل اولا
يبذ [3] فريع القوم في كل مجمع وان كان سحبان الخطيب ودغفلا
ترى خطباء الناس عند ارتجاله كأنهم الكروان عاين أجدلا

وقال بعض نُقّاد الكلام : جماع البلاغة حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعاني ، او غمض بما بعُد من القول او شرد · وقال بعضهم في تقدير الكلام وترتيبه : ليكن صدر كلامك دليلاً على حاجتك ، كما ان خير أبيات الشعر ما اذا سمعت صدره عرفت قافيته · مثال ذلك ان تفرق بين صدر خطبة النكاح ، وبين صدر خطبة الصلح ، حتى يكون لكل فن من الفنون صدر يدل على عجزه ، واوله يشير الى آخره ·

---

(١) المسك الجلد او خاص بالسخلة جمعه مسوك والمراد بها القرب والروايا ·

(٢) وفي هامش الاصل الخزاعي · (٣) في الاصل يبذ — يفوق ·

وقال أعرابيٌّ في دعائه : اللهم اني أعوذ بك من فقرٍ مُكبٍّ ، وتضرّع الى غير محب . وقال بليغ : بقدر السموّ في الرفعة ، تكون الوقعة . وقال بعض الخطاب : لا يكن حبك كلفا ، ولا بغضك تلفا . وذمّ أعرابي رجلاً فقال : كان صغير القدر ، قصير الهبر [١] لئيم النجر ، كثير الفخر .

وسمع الحسن بن علي ان نافع بن جبير قال : كان معاوية يسكته الحلم ، وينطقه العلم . فقال : بل يسكته الحصر ، وينطقه البطر . وقال بليغ : من عرف الناس داراهم ، ومن جهلهم ماراهم . وقال علي بن ابي طالب : هل من خلاص ، او مناص ، او فرار ، او نخار [٢] ، او منجا ، او ملجا ، او معاذ ، او ملاذ . وقال رجل لآخر : أتعرفني فقال : أعرفك كثير السعاية ، قليل النكاية . قال المهلب لمالك بن دينار : أتعرفني فقال : نعم انت الذي اوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وهو فيما بينهما يحمل العذرة . فقال : لقد عرفتني حق المعرفة . ووصف اعرابي ناقة فقال : هي كالعقرب اذا هوت ، والحية اذا تلوّت ، تطوي الفلاة وما انطوت .

وقيل للاحنف : كيف تسود الناس فقال : بالخلق السجيح ، والكف عن القبيح . وقيل لبنت الخُس [٣] : اي الرجال أحب اليكِ فقالت : القريب الآمال ، الواسع البال ، الذي يوفد عليه ولا يفد . وقال كاتب : الشكر [٤] وان قلّ ، ثمن لكل نوالٍ وان جلّ . وقيل لبعضهم : اي اخوانك أوجب عليك حقًا فقال : الذي يسد خللي ، ويغفر ذللي ، ويقيل عللي . وأوصى حكيمٌ رجلاً فقال : سائل العلماء ، وجالس الحكماء ، وخالط الحلماء . فان مجالستهم غنيمة ، وصحبتهم سليمة ، ومؤاخاتهم كريمة .

وخرج شبيب بن شبة من دار الخلافة فقيل له : كيف رأيت الناس فقال : رأيت الداخل راجيًا ، والخارج راضيًا . وقيل لصعصعة بن معوية : هل كان من مطر قال نعم حتى عفى الاثر ، وأنضر الشجر ، ودهده الحجر . وسأل الحجاج رسوله

(١) في الاساس : فلان قصير الشبر مقارب الخلق . (٢) كذا في الاصل فليحرر .

(٣) ابنة الخُسّ مشهورة في الفصاحة عند العرب وهي من بني إياد جاءت عنها الامثال تقول اين بنت الخُسّ ، من فصاحة قس . (٤) في الهامش الشكر عند الكريم .

الراجع من السند اليه عنهـا فقال : ماؤها وشل ، ولصّها بطل ، وتمرها دقل [1] ، ان كثر الجيش بها جاعوا ، وان قلوا ضاعوا . ووصف بليغ منطقاً فقال هذا كلام يكتفى باوله ، ويُشتفى بآخره . وقال الجارود بن ابي سبرة سوء الخلق يفسد العمل ، كما يفسد الخلّ العسل . وقال بليغ : ليس بكريم من لم تذهب القدرة حفيظته ، والبلوى ضغينته .

ووصف اعرابي حرباً فقال : اولها شكوى ، واوسطها نجوى ، وآخرها بلوى . ووصف اعرابي رجلاً فقال : مارأيت أضرب لمثل ، ولا اركب لجمل ، ولا اصعد في قلل منه . وقال عمر بن عبدالعزيز ، انما هلك من كان قبلكم بمنعهم الحق حتى يشترى ، و بسطهم الظلم حتى يفتدى . وقال الخُسُّ لبنته أريد شراء فحل للابل . فقالت : ليكن أسجح [2] الخدين ، غائر العينين ، ارقب [3] اخزم [4] اعكر [5] أكوم [6] ان عُصيَ غشم [7] ، وان أطيع تجرثم [8] . ولما سئلت عن الفها الغلام قالت : طول السواد [9] ، وقرب الوساد .

وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة اشياء لا تنقص ولا تزيد . اللفظ والاشارة والعقدة والخط والنصبة وهي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الاصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات ، ولكل واحدة من هذه الخمسة صورة بائنة عن صورة صاحبها ، وحلية مخالفة حلية أختها ، وهي التي تكشف لك عن اعيان المعاني في الجملة ، وعن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها وأقدارها ، وعن خاصها وعامها ، وعن طبقاتها في السار والضار ، وعما يكون لغواً بهرجاً ، وساقطاً مطرحاً .

وانا ذاكر لك بعض الرواية في مدح الكتابة ونعت آلاتها ، وما يحتاج الكاتب

---

(١) أردأ التمر . (٢) الاسجح البعير الرقيق المشفر . (٣) الارقب الغليظ الرقبة . (٤) الاخزم المذلل ، وفي رواية الاحزم وهو الغليظ موضع الحزام مع شدة . (٥) كثير شحم السنام . (٦) الأكوم المرتفع السنام . (٧) غشم الراعي البعير غشماً هنأه بالهناء اي القطران لا يترك من الهناء شيئاً الا يتهنأه . يصبه على صحيحه وسقيمه . (٨) تجرثم اجتمع ولعله يعني بذلك استناخ . (٩) السواد بكسر السين مصدر ساوده اذا سارّه .

ان يأخذ نفسه به فيها ، و يستعمله في احكامه و بحوثه ، من العلوم التي بها قوامه ونظامها ، ومنها موادها وعليها اعتمادها . قال احدالحكماء المتطقبين ، وزعماءالخطابة، وفرسان الكلام : ان الله جعل للكتابة حظاً بارزاً ، ومكاناً ظاهراً ، ومحلاً بادياً ، تدركه الابصار بالروية ، وتراه العيون بالابصار ، وتنساله المشاعر بالاشتمال . يكون عند النسيان مرجعاً ، ولمن عدم ثقافة الذكاء مكرّاً ، وعند عوارض العلل مآباً . ثم سماه باحسن تسمية ، وحلاه باجلّ رتبة ، فسماه بالعربية عقلاً ، وجعل ذلك له شرفاً وفضلاً . فذلك تأويل الكتاب عند العلماء ، وتفسيره لدى الحكماء ، الذين يتأملون مخارج التدبير ، و يتفقدون إصابة التقدير . فتجمل في صدورهم حكمة الخلاّق العليم ، و يعلو في اعينهم آثار صنع المقتدر الحكيم . فتأخذ في افئدتهم محبة امره ، و يستولي عليهم رفق معادن حكمته ، والشغف بظاهر نوره ، وسمّى منزلة له عاقلاً و بالفارسية دوفير اسيه ذو كتابة [1] ثم جعله نوراً يستضاء به ، ودليلاً يعتمد على هدايته ، وشاهداً يسكن الى عدالته ، وصوتاً يبلغ الآفاق في غير اشتراك من الكل في استماعه ، يسمع به النائي البعيد محله ، و يستر عن الداني القريب قربه ، وسهماً صائباً لغرضه في غير تجرم للتوسطات دونه ، ومصاحباً يدرك به الكاتبون ما استتر على الاميين ، وهم في الحضور مشتركون ولا حضر منه (؟) مشترفون ، وحارساً لحقوق المستحقين ، وديون الغارمين ، من مقرض امهل ، ومبايع أجّل ، ومتاجر أخّر . هي مخاطبة غيبية ، ومناجاة خفية ، ومراسلة عقلية ، وأدعية حسية . مع دلالتها على الصانع الحكيم ، الذي جعل بين خطوط العالمين ، على ابد الآبدين . فروقاً مميزة ، وفصولاً مبيّنة . كاختلاف ألسنتهم وألوانهم ، وافتراق صورهم وابدانهم . فسبحان من ليس لقدرته شبه ، ولا يدرك لحكمته كنه ، وهو بكل شيء عليم .

ووجدنا هذا العلم الذي هو إناء الحق ووعاؤه ، وخلف الاشياء والبدل منها ، وصور الامور ومثالها ، محصّلاً بالحفظ ، محفوظاً محروساً بالعقل ، مجدّداً بالذكر ، مسترجعاً بالتذكر ، مستنبطاً بالتفكر . مقبولاً بالفهم ، مُتَلَقَّناً بالذكاء ، مستحضراً

(١) وفي هامش الاصل اى ذو خاطرين ولعل صوابه دودبير اي كاتبان .

بالذهن ، رابياً بالتمهد ، مدركاً بالطلب الذي يدعو اليه الانتياب ، و يحدو عليه الحرص ، وتتجه العناية . وتأمر به الالباب ، وتثمره السعادة ، و يجمع امره التوفيق . ووجدناه كثير الآفات عند الاعداء ، مستجمع الاضداد ، حاضر الانداد . فالنسيان يذهب به ، والشغل يحول دونه . والوَنْية تقعده ، والفتور يفنيه ، والرَّين يعمّي على رويّته . والفدامة[1] تثبط عن دركه ، والاضراب يعفّي سبيله ، والامراض تنهك آلته ، والملل تخرّب محله ، والبطالة تخلّ به . والشيطان يصدُّعنه ، والأمّارة بالشر تُعمي الطريق اليه . وملاك الامر فيما تأخذه به نفسك في اراغة المعاني ومساواة الالفاظ ، ورياضة الطبع في تخير الكلام ، واستعمال القريحة في اختلاف عيرالالفاظ ، ليتكامل حظك من الدربة ، ويقوى مضاؤك في مذاهب البلاغة . فقد قيل : ان رأس الخطابة الطبع ، وعمودها الدربة ، وجناحها رواية الكلام ، وحليها الإعراب ، وبهاؤها تخير الالفاظ ، والمحبة (كذا) مقرونة بقلة الاستكراه .

وقد حكى عمرو بن بحر عن ابي الاشعث انه قال : قلت لبهلة الهندي ايام اجتلب يحيى بن خالد أطباء الهند الى خدمة دار السلطان : ما البلاغة عند الهند ؟ قال بهلة : عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ولكن لا أُحسن ترجمتها ولم أُعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بخصائصها ، وتلخيص لطائف معانيها . قال ابو الاشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة فاذا فيها : اول البلاغة ، اجتماع آلة البلاغة . وذلك ان يكون الخطيب رابط الجأش ، ساكن الجوارح ، قليل اللحظ ، متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الامة بكلام الامة ، ولا الملوك بكلام السوقة . و يكون في قوله[2] فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينقح الالفاظ كل التنقيح ، و يصفيها كل التصفية ، و يهذبها غاية التهذيب . ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً وفيلسوفاً عليماً . ومن قد تعوّد حذف فضول الكلام ، واسقاط مشتركات الالفاظ . ومن قد نظر في صناعة المنطق ، على جهة الصناعة ، لا على جهة الاعتراض والتصفح ، ولا على

(١) الفدامة مصدر فدم الرجل كان فدماً اي عيياً عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم وفطنة . (٢) في كتاب الصناعتين : و يكون في قواه التصرف في كل طبقة .

جهة الاستطراف [1] والنظر . واعلم ان حق المعنى ان يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحالة له وفقاً . ويكون الاسم لا فاضلاً ولا مقصراً ، ولا مشتركاً ولا مضمناً . ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه اول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره ، في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً [2] ، وللقول في تلك المقامات معاوداً .

ومدار الامر على افهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على أقدار منازلهم ، وان تؤاتيه آلته ، وتتصرف معه أداته ، ويكون في التهمة لنفسه معتدلاً ، وفي حسن الظن بها مقتصداً . فانه ان تجاوز الحق في فقدان [3] حسن الظن ، أودعها تهاون الآمنين [4] ، ولكل ذلك مقدار من الشغل ، ولكل شغل مقدار من الوهن ، ولكل وهن مقدار من الجهل ، وقال بعض (بلغاء) الهند : جماع البلاغة البصر بالحجة ، والمعرفة بمواضع الفرصة . ثم قال : ومن البصر بالحجة ان يدفع الافصاح بها الى الكناية عنها ، اذا كان الافصاح بها أوعر طريقة . وربما كان الاضراب عنها صفحاً ، أبلغ من الدرك ، وأحق بالظفر . وقال مرة : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة الخرق بما التبس من المعاني ، او غمض بما شرد عنك من اللفظ وتعذر . «للبحث صلة»

---

(١) في الصناعتين : الاستطراف والتطرف لها . (٢) في الصناعتين بدلاً من جملة وللقول الخ هذا : ومعناه نيراً واضحاً . (٣) في الصناعتين : مقدار . (٤) في الصناعتين بعد تهاون الآمنين هكذا : وان تجاوز بها مقدار الحق في التهمة ظلمها ولكل ...

اعضاء المجمع في الغرب

اغناطيوس كراتشقوفسكي

«ترجمته بقلمه العربي»

ولدتُ في ٤ آذار سنة ١٨٨٣ في ڤيلنا عاصمة ليتوانية القديمة ، وكان والدي رئيساً لمدرسة المعلمين فيها . ولكن لم يمض من عمري سنتان حتى ارتحلت عائلتي الى بلاد ما وراء النهر ، وعين والدي رئيساً لمدرسة المعلمين في تاشكند ، وبعد مدة وجيزة عين ناظراً عاماً للمدارس في آسيا الوسطى . وابتدأت أذكر نفسي طفلاً صغيراً في تاشكند واول لغة تكلمتها لغة أوزبكية لان حاضنتي كانت أوزبكية الاصل . وكانت تأثراتي الاولى في صغري بما وقعت عيني عليه من المساجد والاسواق الشرقية ، وتنوع الامم والطوائف واختلاف الالبسة . وكان لهذه التأثيرات وقع شديد في نفسي ايام طفوليتي . وأكبر ظني اني غدوت ميالاً الى الشرق وان كنت غير مدرك هذا الميل الغريزي .

وفي سنة ١٨٨٨ رجع والدي الى ڤيلنا وصار مديراً للمكتبة العمومية ، ورئيساً في لجنة البحث عن الآثار التاريخية القديمة ، ولم يزل عاملاً فيها الى ان فاجأته المنية رحمه الله في سنة ١٩٠٣ . وكنت في صغري ضعيف الصحة تتناوبني الامراض ، ولذلك كنت مع أمي الى سنة ١٨٩٣ في ملك صغير كان لنا في ولاية ڤيلنا ، وفيه كانت خزانة الكتب الكبيرة في أنواع منوعة في العلم جمعها جدي وابي وقد ضاعت في الحرب العالمية سنة ١٩١٥ مع كل ملك لنا . وكنت أنهل القراءة في هذه الكتب وقرأت كثيراً من المؤرخين والقصاصين في اللغة الروسية . كنت أصغر أولاد أبي وأمي ، ولذلك نشأت بعيداً عن العشير والاتراب ، وربما صار هذا سبباً لحبي الوحدة وسوء الظن بالعالم ، والسوداء التي تعذبني أحياناً حتى الآن .

وفي سنة ١٨٩٣ دخلت المدرسة الاعدادية (الجيمناز) في ڤيلنا ، وأكملت دروسها سنة ١٩٠١ . وكانت مدرستنا من أشهر المدارس في ولايتها من حيث تاريخها وترتيبها . قامت على أساس الكلية الوِلناوية التي ألغيت سنة ١٨٣٣ على اثر الثورة البولونية على روسية . وأصبحت مكتبة الكلية مكتبة عامة ، وبقي قسم منها

في مكتبة المدرسة ، ولذلك رأيت فيها بعض كتب المشرقيات كمؤلفات العلامة دي سامي . وقد حاولت في الصف الاخير ان أتعلم اللغة العربية من كتابه في الصرف والنحو المشهور ، ولم يتيسر لي ذلك لضخامة الكتاب وعدم المرشد . تخرج من كليتنا وفي مدرستنا عدد ليس بقليل من علماء المشرقيات المشهورين في روسية مثل سينكوفسكي المعلم الاول للغة العربية في كلية لينيغراد من سنة ١٨٢٠ الى سنة ١٨٤٥ وتوراييف عضو اكاديمية العلوم ومؤسس الابحاث في قدماء المصريين في روسية المتوفى سنة ١٩٢١ . وقوتوينتش أستاذ اللغة المغولية في كلية أروف من بلاد بولونية الآن .

وكنت أهفو ايام الطلب الى علوم اللغات والآداب ، لا سيما اللغات « الميتة » اللاتينية واليونانية . ومما كان يلذني و يشوقني تعلم أغاني هوميروس والروايات التمثيلية التي كتبها شعراء اليونان فكنت استظهرها وارجمها . وكذلك كنت أحب علم التاريخ والإنشاء ، وكنت أتمرن في نظم الشعر ولكن لم أظفر منه بطائل . اما الرياضيات والطبيعيات فلم تتق اليها نفسي ، وان كنت غير قاصر فيها ، وأحرزت قصب السبق بين أقراني ونلت نوط الذهب عقبى المدرسة .

ولم أتجاوز السادسة عشرة من عمري حتى قويت أميالي وتعينت غرائزي وصرت أفكر فيما أجعله غرض حياتي ، وقد رأيت بعد بحث طويل ان العلم يجذبني اليه بقوة سحرية ، وان الشرق يكون ميدان أفكاري . ولا غرابة فقد زرت الشرق في طفولتي وكان ابداً يتماثل نصب عيني . وكان لي مثال آخر في شخص ابي فاني كنت أراه مكباً على الكتب والاوراق في الليل والنهار يبحث عن ماضي الزمان ورجاله .

وفي سنة ١٩٠١ دخلت قسم اللغات الشرقية في جامعة لينيغراد مدفوعاً بعامل الميل وهوى النفس انضممت الى سلك تلاميذ فرع لغات الشرق الاسلامي . فصرفت اربع سنوات في دراسة اللغة العربية والفارسية والتركية والتتارية وبعض اللغات السامية كالعبرانية ولا سيما الحبشية القديمة ، ودرست هذه الاخيرة على وطني العلامة توراييف ، ولطالما فكرت ان أخص فيها وأتعمق لكن اللغة العربية غلبت ضرتها وجذبتني جملة اليها . وكنت أدرس تاريخ الشرق الاسلامي برياسة العلامة برتولد الذي ترجمت بعض تآليفه الى اللغة التركية مؤخراً . وله التأثير المهم في حياتي العلمية

فانه باسلوبه السديد المتين وانتقاده المدقق أطلعني على أسرار فلسفة التاريخ · وكذلك درست علم اللغات السامية على العالم ميليورانسكي المنتقل الى رحمة ربه سنة ١٩٠٦ وعلم تاريخ الآداب العامة على العلامة اسكندر فيسيلوفسكي ، وهو من اكبر علماء العالم بأسره في هذا الفن · وكان له في نفسي تأثير قوي كتأثير برتولد في التاريخ ، وغدوت من ذلك الوقت أفكر في تطبيق أسلوبه التشبيهي على تاريخ آداب اللغة العربية ، وارجو ان اكون بلغت شيئاً من ذلك في مؤلفاتي عن العربيات ·

اما العلوم العربية فدرستها على الاستاذ ميدنيقوف مؤرخ فلسطين المشهور المتوفى سنة ١٩١٨ الذي أثنى على تآليفه الكونت كايتاني من اعضاء المجمع العلمي العربي · اما عمدتي في العربية فهو العلامة فيكتور فون روزن عضو اكاديمية العلوم الذي طارت شهرته في بلاد الغرب والشرق (راجع المشرق سنة ١٩٠٨ ص ١٧٣—١٧١ والبشير عدد ١٨٤٥ للسنة ذاتها) · وكنت ايضاً أختلف الى بعض اولاد العرب الساكنين في روسية كنفضل الله صرّوف الدمشقي المتوفى سنة ١٩٠٣ وانطون خشاب الطرابلسي آخذ منهما قليلاً من اللغة العربية الدارجة · ولقد أنجزت دروسي في الكلية سنة ١٩٠٥ نائلاً مدالية الذهب مكافأةً لتأليفي عن خلافة المهدي العباسي آخذاً عن المصادر العربية كالطبري وابن الاثير والعيني والمسعودي وغيرهم ·

وبعد انهاء دروسي في الجامعة كنت أواصل دروسي تحت انظار البارون روزن الموماليه خلال سنتين · وفي أواخر سنة ١٩٠٧ قدمت الفحص لنيل رتبة الماجسطروس في الآداب العربية · وبعد اشهر قليلة توفي استاذي البارون روزن وكانت وفاته ضربة هائلة علي ، شوشت صحتي وحركت المرّة فيّ ، ولا غرو فاني كنت آخر تلاميذه وكان يسميني بلطفه المشهور بنيامينه الصغير ·

وفي صيف تلك السنة نفسها أرسلتني نظارة المعارف وجامعة بطرسبرج الى الشرق العربي لتعلم اللغة العربية الدارجة والتعرف الى علماء العربيات والنظر في عوائد ابناء الشرق وآدابها · وقد قضيت سنتين بعيداً عن الروسية زرت خلالها مدن سورية وفلسطين ومصر وتوغلت في ربى لبنان وغاباته ومروج الجليل وصحاري مصر أزور حيناً المكاتب المشهورة وحيناً أجلس أمام العلماء المكرمين ، وتارةً أختلف الى المدارس

الكبيرة كالكلية اليسوعية في بيروت والجامع الازهر والجامعة المصرية في مصر وزرت في سياحاتي مكتبة الملك الظاهر في دمشق والمكتبة الخالدية في القدس ومكتبة الموارنة في حلب والمكتبة الخديوية في القاهرة وغيرها مما تسنى لي الدخول والاشتغال فيه وجمعت المواد العديدة وكتبت بعض المقالات والانتقادات والاشعار المنثورة في الجرائد والمجلات العربية والروسية ·

وتعارفت خلال إقامتي في الشرق العربي الى كثير من علماء العرب وأدبائهم وصحافييهم ولا أنسى لطفكم وعنايتكم مدى الدهر · وكان هذا اللطف العربي المشهور من اهم الاسباب التي جذبتني الى الشرق جذبة لا اتخلص منها ما دمت حياً · تعرفت الى كثير من العلماء الذين صاروا من اعضاء المجمع العلمي المكرمين فيما بعد · ففي القاهرة عرفت جرجي زيدان الذي اخترمته المنية سنة ١٩١٤ واحمد زكي باشا عضو المجمع العربي الحالي والاستاذ نالينو الطلياني ، وفي فلسطين السيد خليل السكاكيني والشاعر الفاضل إسعاف النشاشيبي ، وفي بيروت حضرت دروساً للاب العلامة لويس شيخو ، وفي دمشق زرت إدارة مجلة المقتبس الغراء · واستفدت في هاتين السنتين اكثر مما استفدت طول حياتي · ولا أزال ارجو ان يرزقني الله رؤية تلك البلاد المحبوبة ومسامرة اعيان علمائها مرة ثانية ، ثم الله أمنيتي بالخير فهو السميع المجيب ·

وبعد رجوعي الى الروسية عُينت في صيف سنة ١٩١٠ مديراً لمكتبة فرع اللغات الشرقية في كلية لينيغراد ، وفي خريف هذه السنة صرت معلماً ثانياً للعربيات فيها وفي سنة ١٩١٤ سافرت الى اوربا لدرس بعض المخطوطات في مكاتبها المشهورة مثل ليبسيك وهالة ولا سيما ليدن من بلاد هولاندا التي طارت شهرتها في الدنيا بسبب مجموعتها في الكتب · وقد اغترف منها كثير من علماء المشرقيات في اوربا · وعُينت سنة ١٩١٧ معلماً اول للعربيات في المدرسة المذكورة ، ولم ازل اجتهد في هذه الوظيفة حتى الآن على قدر الإمكان في تقلبات الزمان · وقد اصاب الدهر المستعربين غيري في لينيغراد · فمات الاستاذ الاول ميدنيقوف سنة ١٩١٨ وتوفي الاديب كوزمين احد تلاميذي سنة ١٩٢١ وقد كان مدة سنتين معلماً ثانياً في جامعتنا · وعين صديقي

الفاضل الاستاذ شميدت سنة ١٩٢٠ مديراً لمدرسة اللغات الشرقية في تاشكند من بلاد ما وراء النهر وبقيت الى الآن اداًب وحدي في التعليم ·

وفي سنة ١٩٢١ انتخبت عضواً عاملاً في اكاديمية العلوم الروسية في قسم التاريخ واللغات فجلست في مجلس كان فارغاً بوفاة استاذي البارون روزن منذ سنة ١٩٠٨ · وفي السنة التالية انتخبت كاتماً لاسرار القسم المذكور ·

وفي سنة ١٩٢٣ انتخبت عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي في دمشق ، وكان ذلك اكبر شرف نلته مدة عمري وصار هذا التشريف مساعداً لي ومشجعاً في احوالنا الصعبة · ورأيت فيه تقديراً أتفاخر به لاتعابي في التعليم والبحث والتأليف منذ عشرين سنة ·

اما مؤلفاتي العلمية التي بدأت بكتابتها وطبعها من سنة ١٩٠٤ فجلّها ان لم اقل كلها في آداب العرب من بحث وترجمة وشرح وانتقاد ، وكتاب ومقالة ومحاضرة وملاحظة وعددها يربو على المائتين ولذلك لا يمكن وصفها بتدقيق · وقد طبع فهرستها سنة ١٩٢١ وقت انتخابي عضواً في اكاديمية العلوم الروسية وتكلم في تقدير عملي العلمي ثلاثة من اعضاء الاكاديمية الاخصائيين في علوم المشرقيات ، وقد طبع تقريرهم مع الفهرست المذكور ولذلك اكتفيت بالإشارة اليه · ودوائر ابحاثي ثلاث : الاولى منها تاريخ الشعر العربي ونقده منذ قديم الزمان الى ايامنا هذه · والثانية آداب اللغة العربية بين نصارى العرب · والثالثة تاريخ آداب اللغة العربية منذ نهضتها الاخيرة في القرن التاسع عشر · وهذا الموضوع الاخير مما افتخر به فإني اول من كتب بالروسية فيه ، وقلّ من كتب عنها من المستشرقين في اوربا · ولذلك قرّظ مؤلفاتي تقريظاً حسناً المرحوم مارتين هارتمن الذي كان مطلعاً على احوال العرب الادبية بمشاهداته الشخصية والإقامة بين اظهرهم ·

ورجائي الآن ان أواصل ابحاثي في هذه الدوائر الثلاث وان يتيسر لي طبع ما تراكم لديّ من الآثار الادبية والابحاث والمقالات · فهذه هي أمنيتي الوحيدة والرجاء ان يبلغني تعالى سؤلي وان مع العسر يسراً وكل ضيق فالى فرج قريب ·

الاستاذ كليمان هوار

فجع المجمع العلمي العربي بعضو عظيم من اعضائه ونابغة مع نوابغ المشرقيات في المغرب المرحوم العلامة كليمان هوار . ولد في باريز يوم ١٥ شباط ١٨٥٤ وتخرج في مدرسة اللغات الشرقية ونال شهادتها وشهادة مدرسة الدروس العالية (شعبة العلوم التاريخية واللغوية) ثم عين ترجماناً مبتدئاً في قنصلية فرنسا بدمشق في ١ آب ١٨٧٥ ثم ترجماناً ثالثاً في سفارة الاستانة ١٨٧٨ — ١٨٨٥ فترجماناً ثانياً ١٨٨٥ — ١٨٩٧ فقنصلاً من الدرجة الثانية في ٩ آذار ١٨٩٧ فكاتم اسرار مترجماً في باريز ١٠ تشرين الاول ١٨٩٨ فمندوباً عن وزارة الخارجية في مؤتمر المستشرقين في الجزائر ١٩٠٥ فكاتم اسرار مترجماً من الدرجة الاولى في ١ نيسان ١٩٠٧ فمندوباً عن وزارة الخارجية في مؤتمر المستشرقين في كوبنهاغن عن سنة ١٩٠٨ فقنصلاً عاماً في ١١ تموز ١٩١٢ .

وقد انتخب عضواً في المجمع العلمي الافرنسي (Institut) في ١٧ كانون الثاني ١٩١٩ وكاتم اسرار مترجماً من الدرجة الاولى للحكومة لدى وزارة الخارجية في اللغات الشرقية وكان استاذاً في مدرسة اللغات الشرقية الحية ومدير الدروس في مدرسة الدروس العالية العملية (شعبة العلوم الدينية) ونائب رئيس المجمع العلمي الافرنسي (1) ثم انتخب باجماع الاصوات رئيساً له لسنة ١٩٢٧ .

وله عدة تآليف منها ما احياه بالنشر ككتاب البدء والتاريخ للمختار بن طاهر المقدسي المنسوب لابي زيد احمد بن سهل البلخي وهو في ست مجلدات نشره مع ترجمته بالافرنسية . وكتاب الآداب العربية باللغة الافرنسية وتاريخ بغداد وكتاب الخطاطين والنقاشين في الشرق الاسلامي وكتاب دين الباب وكتابات عربية في آسيا الصغرى . وقونية مدينة دراويش المولوية . ومختصر نحو اللغة الفارسية . وانيس العشاق مترجم عن الفارسية . ووثائق فارسية عن افريقية وكتابات عربية وفارسية في جامع كي فونغ فو وسينكان فو في الصين . وتاريخ العرب في مجلدين

(1) Académie des Inscriptions & Belles - Lettres

(وقد ترجم هذا الاخير الى الالمانية) وكلها باللغة الافرنسية الى غير ذلك من الكتب والرسائل والقوائم والفهارس والتقاريظ والانتقادات والمقالات التي نشرها في مجلة العالم الاسلامي والمجلة الآسيارية ومجلة تاريخ الاديان ومجلة الانتقاد والمجلة السامية والمجلة الفرنسية الكبرى والمجلة الاسلامية وهو يحسن من اللغات الشرقية العربية والفارسية والتركية . وتقديراً لعلمه مُنح عدة اوسمة من حكومته والحكومات العثمانية واليونان وتونس والمغرب الاقصى والعجم .

وانتخب الفقيد عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق . وكان عالماً بلغات الشرق الاسلامي ودينه وآدابه وفنونه . وكان غيره متخصصاً باحدى اللغات العربية او الفارسية او التركية اما هو فكان عالماً بكل منها ويدرس جميعها . ولكن اللغة العربية اجتذبته فكان يفضلها على سواها فاختصها بأثمن اوقاته واستغرقت اكثر جهوده لانه ممن يعتقدون بما للعربية من التأثيرات المستمرة في منازع الشعوب الاسلامية وآدابهم وفنونهم ويرى بانه لا يتيسر لاحد معرفة احداها الا اذا كان ضليعاً من العربية . ولذا كان يلقي دروسه في تفسير القرآن الكريم في مدرسة العلوم العليا بباريز باللغة العربية وان قلّ المستفيدون منه لعدم معرفتهم لغة الكتاب العزيز .

كان السيد هوار آية في بعد الهمة ومضاء العزيمة والدؤوب المتواصل في التأليف والنشر مشهوراً بسعة المادة واختيار الموضوعات الطريفة المفيدة . وقد كانت له صلات علمية متصلة مع المجمع العلمي العربي بدمشق منذ اول انشائه ومما نشره في مجلته مبحث ممتع في « الدروس العربية في فرنسا » (مجلة المجمع م ٥ ص ١٥٧) دل به على بعد غوره وفضل تحقيقه وانه من اساطين المشرقيات العربية في فرنسا .

يعد فقد الاستاذ هوار خسارة على علوم المشرقيات في الغرب والشرق ، وهو معروف جدّ المعرفة في بلاد العالم الغربي . وقل من ضرب في العلوم الاسلامية بسهم الا وطالع كتبه واخذ منها . لا جرم انه كان في طليعة اعيان علماء المشرقيات لا في فرنسا فقط بل في اوربا واميركا ايضاً . وقد ظل على متابعة ابحاثه وتآليفه الى آخر ايام حياته . اجزل الله ثوابه وعوض العلم عنه خيراً .

جعفر الحسني

آراء وافكار

« الشام » في معلمة الاسلام

كتب الاستاذ الاب لامنس (Lammens) في آخر جزء صدر من معلمة الاسلام (Encyclopédie de l, Islam) بحثًا في «الشام» وقعت له فيه هنات لا يسع الاغضاء عنها ، فمنها (ص٣٠٢) في فتح الشام ان الأعراب بعدة الردة وقيام ابي بكر الصديق تألفوا عصابات عملاً باشارة الرسول او بغية غزو بلاد خلت من حماتها فرحلوا الى الشام وقابلهم سرجيوس قائد قيسارية للروم فغلبوه في داثن وكان في قلة من المتطوعة ثم ذكر ان خالد بن الوليد خف من العراق وهزم الروم في أجنادين بين ايليا وبيت جبرين ثم انهزم العرب في فحل الخ . ومعنى هذا ان مبدأ الفتح كان بعصابات على عهد ابي بكر فقط ، مع ان جميع كتب التاريخ مجمعة على ان صاحب الرسالة (عليه الصلاة والسلام) انفذ في حياته الشريفة خمس غزوات الى الشام وهي غزوة دومة الجندل (في اول تخوم الشام) وغزوة مؤتة في ارض الشام وغزوة ذات السلاسل وغزوة تبوك وغزوة آبل الزيت . وفي عهد الخليفة الاول أرسلت الجيوش تباعًا دراكاً بقيادة جلة من الصحابة ومنهم خالد بن الوليد وكانت وقعة اليرموك هي الوقعة الفاصلة ، ولم يكن جيش العرب اقل من ٣٥ الفًا وجيش الروم نحو ٢٠٠ الف أنجد مرات . وأراد الاب لامنس ان يصغر من شأن هذا الفتح فنسبه الى عصابات مع انه كانت حربهم حربًا منظمة ولم يترك الروم في قوس المقاومة منزعًا . وما كان يقصد من الفتح الغزو والغنائم فقط كما قال .

وقال (ص٣٠٤) ان الحركة العقلية كانت في العهد الأموي قاصرة على الشعر وفي رأسها الشاعر التغلبي الأخطل النصراني والخليفتان يزيد الاول والوليد الثاني . مع ان شعراء الأمويين عدوا بالعشرات . والحقيقة ان الحركة العقلية لم تكن أدبية فقط فان خالد بن يزيد الأموي في دمشق امر بان تترجم له كتب الطب والنجوم والكيمياء وجلب فلاسفة من مصر والروم وأغدق عليهم الاموال لذلك . وأنشأ اول خزانة للكتب في دمشق بل في بلاد الاسلام . ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأمر ان يترجم كتاب

(اهرن بن اعين) . فالحركة اذاً لم تكن أدبية صرفة بل علمية فنية ولم يكن الأخطل النصراني والخليفتان الأمويان مستأثرين وحدهم بهذا الفضل (راجع كتابنا خطط الشام ج ٤ ص ١٨ — ٢٤) .

وذكر (ص٣٠٤) ان القدرية اخذوا مبادئهم الفلسفية من مواطنيهم النصارى وليس لهذا القول مستند يركن اليه وكان ادعاه في كتابه مختصر تاريخ سورية فرددناه عليه (مجلة المجمع م ٢ ص ٢٧١ و٣٢٧) . وقال ايضاً ان زراعة الشام ظلت زاهرة رغم إرهاق السكان بالضرائب مع ان الروم من اهل البلاد كما ثبت في التاريخ كانوا راضين عن هذا الحكم العربي اكثر من حكم الروم . وتبين لم الفرق بين الإدارتين العربية والرومية .

وزعم ان نصارى لبنان حاولوا التخلص من مظالم عمال خلفاء بغداد فلم يفلحوا . مع ان نصوص التاريخ صريحة في ان الذين قاموا من اهل لبنان لم يكن قيامهم لمقاومة الظلم بل كانوا عمالاً لصاحب الروم وما كان لبني العباس ان يغضوا الطرف عمن يعمل لاعدائهم ويكيد لم في ملكهم .

وقال (ص ٣٠٥) انه كان في دمشق معمل للورق في القرن العاشر للميلاد مع ان معامل الورق كانت في دمشق وطبرية وطرابلس وحماة وحلب ومنبج وبدأت منذ اواخر القرن الثامن . وتدل القرائن على ان الوراقة كانت معروفة في الشام في اوائل الاسلام (خطط الشام ج ٤ ص ٢٤٢) .

وقال (ص٣٠٦) ان الصليبيين فتحوا طرابلس في جملة ما فتحوه من الساحل لاول انهيالهم على البلاد مع انه ثبت في التاريخ ان ابن عمار صاحب طرابلس وقاضيها هادنهم على ان يجتازوا من وراء مدينته وبقيت طرابلس بيد ابن عمار بضع سنين اوائل دخول الصليبيين . فكانت طرابلس آخر ما اخذه الصليبيون من مدن الساحل . ومما قاله ان مدن الداخل قبلت ان تدفع الجزية للصليبيين وكان ما ادوه اموالاً تصالحوا عليها حتى لاتخرب البلاد . ودمشق لم نذكر انها أدت شيئاً من هذا القبيل . وغلا في تقدير عدد الاجانب في دولة دمشق اليوم فأوصلهم الى ٤٩٠٠٠ في حين جعل عدد الاجانب في دولة حلب ٣٠٠٠ ولعله يريد ان يحذف صفرين فيكون عدد الاجانب في دولة دمشق

٤٩٠ . وذكر ان الشام اليوم تناخم مملكة العراق من الغرب والصحيح من الشرق . وادعى ان العباسيين ظلوا على عدائهم للعلماء من الشاميين ولذلك كان عملهم من العوامل التي حالت دون تقدم الافكار على ان العباسيين لم يضطهدوا من الشاميين او من عقلائهم وعلمائهم الا من جاهروهم في محبة الامويين ومن عداهم نزلوا بغداد على الرحب والسعة وشاركوا في الحركة العلمية ومنهم بضعة من التراجمة والعلماء النصارى ، على ماذكر ذلك القفطي وابن ابي أصيبعة ، ولكن كان الاولى ان يقال ان الحركة العلمية في الشام انتقلت الى دار السلام وذلك بطبيعة الملك لان الخلفاء واهل الدولة كانوا في العراق وبعد الدور الثاني للعباسيين اخذت الشام تستقل عن بني العباس الا قليلاً .

وكان عليه ان يشير ولو بكلمة الى المدارس التي أنشئت في أمهات مدن الشام منذ القرن الخامس الى التاسع للهجرة ليدل بها على مدنية القوم كما حرص على الاعجاب بالبيع التي أقامها الصابيون مثل بيعة جبيل وبيعة طرطوس وبيعة بيروت التي هي اليوم الجامع الكبير . فان هذه المدارس هي التي نشأ منها للشام رجال الشريعة والادب والتاريخ والجغرافيا والفلك وناهيك بانه كان في دمشق فقط اربع مدارس للطب وواحدة للهندسة .

وكما قال ان الزراعة انحطت بدخول العرب الى الشام زعم ايضاً ان التجارة لم تقم لها قائمة منذ عهد يوستنيانوس الرومي حتى جاءت مراكب البنادقة والجنويين والبيزيين في الحروب الصليبية وفاته ذكر اساطيل معاوية بن ابي سفيان وأخلافه ثم الطولونيين والفاطميين التي كانت مدة اربعة قرون تنقل التجارة في اكثر موانئ البحر الشامي كما تغزو اعداءها من الروم وجنوبي ايطاليا .

ولم يتعرض لذكر بعض المهندسين والفلكيين والرياضيين الذين قاموا في الشام على عهد الاسلام . بل ذكر بعض المؤرخين والجغرافيين والادباء واثنين من حملة الشريعة فقط . اما في العهد الاخير فلم يدوّن سوى اسماء اليازجيين ناصيف وابراهيم ، وبطرس البستاني . وهذا كما ترى غمط لحق عشرات من الادباء والعلماء من المسلمين والمسيحيين الذين كانوا مادة المدنية الجديدة في الشام منذ أواسط القرن الماضي الى اليوم وهو ولا شك يعرفهم لكن يرقن عليهم لمقصد هو أعلم به .

هكذا يكتب الاب اليسوعي تاريخ الشام في هذا العصر وليته يقتدي بمن يكتبون

في هذه الحملة على بلاد الشام ايضاً أمثال سو برنهايم ممن يتجردون عن الغرض و يبعدون عن الاهواء المذهبية و ينصفون كل انسان وكل مجتمع ودولة · ومن الغريب ان هذا المؤرخ اذا نُبه الى خطإه لايناقش في الموضوع بل يقول ان ناقديه يحاولون ان تكتب لهم شهرة كشهرته ، وهم مغمورون خاملون جاهلون و يكيل له بكيل السخرية والمطاعن، بما يخرج عن حد النقد الادبي الذي هو حياة العلم والآداب ، فهو ابداً شعوبي من الطراز الاول يغمط حق العرب والمسلمين من خدمة الحضارة ، وسلاحه السفسطة يضعف كل حقيقة اذا جاءت على ايدي العرب والمسلمين ، و يصور الشام في ماضيها وحاضرها في بشاعة وان وجدت فيها الحسنات فهي لغير الفاتحين وأخلافهم ·

وبينا نكتب هذه السطور قرأنا في رسالة « آراء غربية في مسائل شرقية » تعريب الاستاذ عمر فاخوري جملة للسيو دينه وسليمان بن ابراهيم في نقد كتابات الاب لامنس وتحامله على الاسلام فما قالاه : ان الاب لامنس في علم المشرقيات كبطرس الناسك في الحروب الصليبية وقد جهز بهمة لا تعرف الكلال صليبية دعية في العلم طمعاً بصرع الاسلام صرعة لا قيام منها · وقالا فيه ايضاً : كلما ذكرت الاحاديث والاخبار خلة حسنة ممدوحة في محمد وصحابته رأيتــه يؤكد انهم كانوا مصابين بالعيوب المناقضة لتلك الخلال وبكلمة موجزة نقول ان طريقة الاب لامنس تقدم على « عكس » المنقول عكساً مطرداً مقصوداً · وقالا في الحاشية : لا يعدل الاب لامنس عن هذا الاسلوب الا حينما يجد أسلوباً أشد مكراً في سوق الخبر الى معاني السوء اه سامحه الله · م · ك

فعال في اللغة

« كل او جل ما ورد منه في كتب اللغة »

(بَلالِ) اسم مصدر من بلّ الرحم اذا وصله يقال هو يراعي بَلالِ اي صلة الرحم ومنها «تبلّك بعدها عندي بلالِ» (بَلاءِ) البلاء (بَوارِ) اسم الهلاك · ومنه «نزلت بوار على الكفار» · (تراكِ) اسم فعل معناه اترك كقوله :

تراكها من إبل تراكها اما ترى الموت لدى اوراكها

(جداعِ) السنة الشديدة التي تجدع بالمال وتذهب به ومنه «اجحفت بهم جداعِ» وهي السنة لانها تجدع النبات وتذل الناس · (خراجِ) كلمة تقال في الخريج وهي لعبة لهم · (حساسِ) كلمة يقولها من طلب شيئاً فلم يجده · (خزاقِ) شتم للمرأة معدول عن الخزق بمعنى الذرق وهو مما يلزم النداء · (دراكِ) اسم فعل بمعنى ادرك · (حدادِ حدّيه) كلمة تقال لمن تكره طلعته اي اصرفيه ومنه قوله «وحُدّي حدادِ شر اجنحة الرخم» · (حزامِ) اسم امرأة تلقب بزرقاء اليمامة يضرب بها المثل في حدة البصر يقال هو ابصر من الزرقاء · (خناثِ) وصف للانثى وهو مما لا يستعمل الا في النداء يقال لها ياخناث اي يامنكسرة · (دبابِ) دعاء للضبع وهو اسم فعل بمعنى دُبّي · (دفارِ) الدنيا — والامة ويقال للامة اذا شتمت يادفارِ وعن عمر انه قال للامة التي عنك الخمار يادفار أتتشبهين بالحرائر واكثر ماترد في النداء · (عرارِ) اسم بقرة ومنه باءت عرارِ بكحلٍ وهما بقرتان انتطحتا فماتتا جميعاً اي باءت هذه بهذه يضرب لكل مستوبين · (فجارِ) اسم للفجور وهو معرفة كقوله فاحتملت برة وحملت فجار ويقال للمرأة يافجار اي يافاجرة وهي معدولة عن الفاجرة لا يستعمل الا في النداء · (فساقِ) شتم لها يقال يافساق للنداء فقط · (يافشاشِ) فشّيه من استه الى فيه اي افعلي ما شئت به فما به انتصار يضرب لمن يأتي امراً لا يقدر على اجرائه · (فياحِ) اسم للغارة تقول فيحي فياحِ اي اتسعي ياغارة وهومن قول مغاوير هم · (قثام) انثى الضبعان سميت به لانها تتلطخ بجعرها ويقال الامة ياقثام · (نزافِ) اسم فعل للامر يقال نزاف ماء البئر اي استخرجه كله · (مجاج) ركب مجاج اي رأسه كقوله «وقدركبوا على لومي مجاج» · (همام) لا همام اي لا اهم بذلك ولا افعله وجاء زيد همام اي بهمهم · (وبارِ) ارض بين اليمن ورمال يبرين · (بعاط) زجر للذئب والخيل وقيل كلمة ينذر بها الرقيب اهله اذا رأى جيشاً قال :

وهذا ثمّ قد علموا مكاني اذا قال الرقيب الا بعاطِ

(جمارِ) قومي جمار شتم للامة على تشبيهها بالضبع (حلاقِ جذابِ جباذِ) الموت قال عمرو بن جميل :

فاجتبذت اقرانهم جباذ ابدي سبا ابرح مااجتباذ

وسميت المنية جذابِ لانها تجذب النفوس وحلاقِ لانها تحلقها (حَباقِ) شتم لها لازم للنداء. (حدابِ) السنة لجدبة — وموضع. (حذارِ) اسم فعل بمعنى احذر كقوله «وحذار ثم حذار عنه محاربا». (حَضارِ) اسم فاعل بمعني الحضر — ونجم يطلع قبل سهيل فيظن انه سهيل. (حَناذِ) من اسماء الشمس لحرارتها ومنه:

تـتركه الملجَ به حنـاذِ كالارمد استغفي على استيخاذ

(حَمادِ لفلان) نقال للبخيل دعاء عليه اي لازال جامد الحال (حَمادِ) له نقال في المدح اي حمداً له. (خَنازِ) المنتنة. (ذَمارِ) اسم فعل للحض على الحرب. (رَغالِ) الامة (سَباطِ) الحمى تقول تقلّهم سباط. (خَباثِ) معدول عن خبيثة شتم لها لازم للنداء تقول ياخباث (خَصافِ) فرس مشهور وفي المثل اجرأ من فارس خَصافِ. (وَقاعِ) كية مدورة على الجاعرتين. (بَبارِ) السوأة اوالفندورة (يَسارِ) الميسرة يقال أنظرني حتى يسار. (براحِ) الشمس يقال دلكت براح. (خَطافِ) من اسماء كلاب الصيد. (سَماعِ) اسم فعل بمعنى أسمع. (سَجاحِ) اسم امرأة ادعت النبوّة قال الحريري «انها بمرسل الرياح. لا كذب مسيلمة سجاح». (سَرابِ) اسم ناقة البسوس التميمية التي قُتل كليب فيها فثارت الحرب بين البكريين والتغلبيين اربعين سنة لاجله فصارت مثلاً في الشؤم يقال هو اشأم من سراب. (شَجاذِ) المطرة الضعيفة معدول عن المشجاذ بمعنى الاقلاع. (شَلالِ) اسم للشلل يقال في الدعاء له لاشلال اي لاتشلل يدك. (حَرامِ) من اسماء الحرب. (ظفارِ) بلد باليمن قرب صنعاء. (عَفالِ) شتم لها يقال يا عفال. (عَقاقِ) اسم للعقوق بالوالدين. (عَلاقِ) اسم فعل للامر بمعنى تعلّق. (غَدارِ) شتم لها يقال ياغدار خاص بالنداء (نعاء) اسم فعل للامر بمعنى إنعَ قال الاصمعي كانت العرب اذا مات منها ميت له قدر ركب راكب فرساً وجعل يسير في الناس ويقول نعاء فلاناً اي انعه واظهر خبر وفاته. (يارَطابِ) كلمة تسب بها الامة. (ظفارِ) كل ارض ذات مغرة[1]. (لزامِ) يقال سبة لزام وضربة لزام اي لازمة. (مساسِ) اسم

(١) كذا بالتشديد وصوابه مَغرة بالتخفيف وهي الطين الاحمر يصبغ به وتسمي هذه الارض ايضاً (المَمْغرة) (المجمع)

فعل بمعنى مسّ · ولا مساس اي لاتمسّ · وهو من الشواذ · (عواد) اسم فعل بمعنى عد (كرار) خرزة للتأخيذ تقول الساحرة يا كرار كرّيه و ياهمرة اهمريه ان اقبل فسرّيه وان ادبر فضرّيه · (بداد) جاءت الخيل بداد اي متفرقة ومنه قوله :

وذكرت من لبن المحلّق شربة والخيل تعدو في الصعيد بداد

و ياقوم بدادِ او بدادِ بدادِ اي ليأخذ كل رجل قرنه · (خداق) شتم للإماء خاص بالنداء · (خلاح) علم لمكة وقد تعرب · (صمام) علم للداهية الشديدة · وصمّي صمام اي زيدي ياداهية · وصمام صمام بمعنى الامر اي تصامّوا في السكوت · (طبار) الداهية وبنات طبار الدواهي · (غثار) علم للضبع · (فعال) اسم فعل بمعنى افعل · (فنار) طعنة فنار اي نافذة · (قثاح نقاث) الضع · (ملاع) اسم ارض · (نضاد) جبل بالعالية ويؤنث وتميم تجريه مجرى مالاينصرف · (مناع) اي امنع · (نظار) اسم فعل للامر بمعنى انتظر · (قثام) اي اقثم اي اجمع مطرد عند سيبويه وموقوف عند ابي العباس · (ضراح) اسم فعل بمعنى إضرحْ · (كلاح) السنة المجدبة · (امرأة لكاع) لئيمة لاتستعمل الا في النداء وهي معدولة عن لاكعة · (كفاف) معدولة عن الكفاف بمعنى المثل يقولون دعني كفاف اي كُفّ عني واكفّ عنك · (قثام) الغنيمة الكثيرة (قطان) علم للامة · (فناس) الامة اللئيمة الرديئة · (نزال) اسم فعل للامر بمعنى انزل للواحد والجمع والمؤنث · (أبابِ أبابِ) اي لا بأس وهي لغة حميرية وقيل أباب الكلأ مأخوذة من هذا (جعار وام جعار) علم للضبع · تيسي جعار او عيثي جعار مثل يضرب في إبطال الشيء والتكذيب به وانشد ابن السكيت

فقلت لها عيثي جعار وجررّي بلحم امرئٍ لم يشهد القوم ناصره

«روغي جعار وانظري اين المفرّ» مثل يضرب لمن يروم ان يغلب ولا يقدر على ذلك · (لطاط) السنة الحاجبة عن الخير الساترة · (طمار) المكان المرتفع يقال هوى من طمار وانصبّ عليه من طمار · وبنات طمار الدواهي · (ازام) الشدة · (لحاص) اسم للشدة والاختلاط والداهية — وخطة تلحصك اي تلجئك الى الامر · (سكاب) اسم فرس ·

النبك سالم خليل رزق

مطبوعات حديثة

ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء

« تأليف اسماعيل مظهر طبع في المطبعة العصرية بمصر في ٣٤٢ صفحة »
« بالقطع الوسط »

الاستاذ اسماعيل بك مظهر من الذين ضربوا في الفلسفة بسهم وافر وهو واسع الاطلاع عليم بكثير مما صنفه الافرنج في ضروب الفلسفة . وفوق ذلك فهو جاد يستعمل القلم في نقل معلوماته الى العربية ليخدم بذلك ابناءها . ومما نشره اخيراً هذا الكتاب المفيد فجاء في اثني عشر فصلاً وهي « تمهيد ومقدمات ، الرأي المادي ومذهب النشوء ، دارون والماديون ، مذهب النشوء ازاء الدين والآداب ، نظرة عامة في الرد على الدهريين ، اختلاط المقاصد في الرد على الدهريين ، الانقلاب الجنيني واثره في تأييد مذهب النشوء قدم الأنواع وعلاقة الجيولوجيا بمذهب النشوء ، علاقة المتحجرات بمذهب النشوء ، اثبات مذهب النشوء بتعاقب المتحجرات خلال العصور الجيولوجية ، اصل الانسان ازاء مذهب النشوء ومذهب دارون في العصر الحاضر » .

طالعت هذا الكتاب فرأيت ان ألفت نظر المؤلف الفاضل الى الامور الآتية :

اولاً — طعن بالماديين في الصفحات ٤٥ و٤٦ و٤٧ وسفه رأيهم واتهمهم بالالحاد . ولو أنصف لطعن بالملحدين وحدهم ولفرق الفلسفة المادية عن الالحاد لان الاستاذ لا ينكر ان عنوان كتابه قائم على بحث من ابحاث العلوم المادية وان العلوم لم تتقدم الا لما اخذ الانسان يبحث عن النواميس الطبيعية بأسلوب مادي او يقيني تاركاً البحث عن العلل الاولى والماهيات الى ارباب الدين وأصحاب الفلسفة الغيبية . فالفلسفة المادية تقضي بعدم البت في حادث لا يقره العلم ولا يقع تحت الحواس . فاذا اتيتها ببراهين علمية ملموسة صدقتك والا بينت لك وجه الخطأ . فاما اذا رأت نفسها قاصرة عن ان تحيط بحقيقة ما تبديه فسرعان ما تعترف بجهلها و بان العلم لم يدرك بعد حقيقة هذا الحادث . وهنا بيت القصيد اي ان الفلسفة المادية لا تلزم صاحبها بانكار وجود الخالق بل تدعوه الى عدم البت فيما لا يقوم عليه دليل علمي وهو بعد حر بان يعتقد بالخالق

او بالاديان عن طريق المحاكمة العقلية اي لا يعتقد . وكثير من الفلاسفة الماديين يعتقدون بالإله عاقل في تعليل الكون ومنهم دارون نفسه وليس كل فيلسوف مادي ملحداً ولكن يكثر عدد الفلاسفة الماديين الذين ان سألتهم رأيهم في المبدإ والنهاية والعلة الاولى أجابوك بلا ادري لانها لا تلمسها الحواس بل لانها تخرج عن دائرة أبحاثهم هذا مع اعتراف الجميع بفوائد الدين الاجتماعية والادبية . وكأني بالمؤلف الفاضل اخذ على نفسه معاكسة الدكتور شميل في مذهبه في حقيقة الدين حتى استرسل في آراء فلسفية لا علمية قدر ما تمسك الدكتور في محدودات مادية .

ثانياً . — ذكر في الصفحة ٤٩ الى ٥٣ وظيفة الدين الاجتماعية فبين تأثير الاديان اي « وازع ما بعد العقلية في ضبط سلوك الانسان تجاه الجماعة » وقال : « بعدم امكان قيام نظام اجتماعي على اساس الشرائع الوضعية » ويا ليت المؤلف انصف ونحن في القرن العشرين فاعترف بتأثير كثير من الشرائع المادية والمبادئ الاجتماعية غير الدينية في تنظيم حياة الجماعات ومدنيتها ، دون ان يكون في اعترافه ادنى مس للاديان او تنقيص لفوائدها الاجتماعية والادبية .

ومن الغريب انه ختم بحث وظيفة الدين الاجتماعية بقوله : « ذلك هو الدين واثره فهل يجحده بعد الماديون » . فمتى جحد أصحاب الفلسفة المادية الفوائد الاجتماعية العظيمة التي أفادتها الأديان منذ أقدم العصور الى اليوم . وهذا اوغوست كونت نفسه مؤسس الفلسفة المادية قد أطنب في فوائد الدين الاجتماعية اطناباً عده كثيرون اغراقا .

وفي تضاعيف الكتاب جمل كثيرة سفه بها الاستاذ المصنف آراء الماديين لا سيما في بحث الاعتقاد بالله . اما انا فلا يمكنني ان أعلل طعنه واستنتاجاته الا بكونها مقصودة اي انه توخى الطعن لغرض او لاعتقاد لا لحقيقة ملموسة مادياً يقرها العلم او تقرها الفلسفة المادية التي لا ترتكز على الفرضيات البعيدة عن الحس ولا على الجدل والوهم والخيالات الفلسفية . هذا وقد كان بامكانه إثبات وجود العلة الاولى وكونها عاقلة مدبرة بالاستنتاجات العقلية التي ما برح أصحاب الفلسفة الدينية يطرقون أبوابها ، دون ان

يطعن بالفلسفة المادية لان هذه الفلسفة لا تخالفه الا بكونها تعترف بجهل الانسان عن إدراك الماهيات بطريقة علمية مادية وهذا ما لا ينكره احد ·

ثم ان من يطالع الكتاب ليحار في تبيين مذهب المؤلف الفلسفي خصوصاً من حيث الأديان ، فهو بينما تراه يدافع عن الدين كل الدفاع واذا به يسكت عن معظم تعاليمه لانه لا يعتقد على ما يستنتج الا بوجود علة العلل اما اكثر القواعد الدينية الاخرى فهو يضرب صفحاً عنها لاسيما اذا كان العلم المادي لايقرها (صفحة ٥٣ و٢٩٥) ·

ثالثاً — ذكر « حظ العرب من البحث اليقيني » فعزا اليهم نقائص وهنات كثيرة وكاد يجردهم من كل أثر علمي او ادبي او فلسفي كل ذلك تمهيداً للرد على الشيخ جمال الدين الافغاني ولدحض ما ورد في رسالته « الرد على الدهريين » ·

وهنا ايضاً حاد المؤلف الفاضل بنظري عن جادة الانصاف لانه لو سار في محاكمته على أسلوب يقيني محض لوجب ان يذكر ان العرب لم ينفردوا بأسلوبهم الغيبي (ثم بما يسميه الشك التقليدي) بل كان هذا الاسلوب طابع مدنية من عاشوا معهم ومن درجوا قبلهم ، وانه لا يرجى من شعب عاش في القرون الوسطى ان تكون جميع أبحاثه في مختلف العلوم يقينية باعثة الى إعجاب أساتذة القرن العشرين ، وان العرب حسبهم ان يكونوا في التاريخ حفظة العلوم القديمة وموسعيها على قدر ما بلغته طاقة البشر في هاتيك الايام · ولم ادر كيف خص المؤلف العرب وحدهم بالنقائص التي ذكرها مع انه قال في الصفحة الثامنة « زمان انطوى فيه كتاب مدنيتنا العربية تلك المدنية الشرقية البجنة التي ظلت منارة العالم المتمدن وكعبة سياسة الشعوب ومهبط وحي العلم والآداب و ينبوع الفلسفة الفياض طوال القرون الوسطى » حقاً انني كدت اتهمه بالشعوبية لو لم أعد الى تلاوة ما أورده في الصفحة الثانية ·

رابعاً — أظن ان الذي لايكون قد درس دروساً اعدادية على الاقل ووقف على آراء العلماء في نواميس النشوء لا يقوى على فهم كثير من أبحاث الكتاب لان المؤلف لم يصنفه وفاقاً للطريقة المدرسية (Classique) فانا ارى انه كان من المفيد بل من اللازم ان يتلافى الاستاذ ذلك فيجمل في اول الكتاب بحثاً موجزاً في تعريف النوع والصنف والرس (العرق) ، وحصول التبدلات (التغايرات) في النبات والحيوان واشكال

هذه التبدلات وما يدعو الى حصولها ، ثم نظرية الوراثة وأشكالها وما نتج عنها ، واخيراً الانتخاب الطبيعي فالانتخاب الصنعي وأشكاله وقواعده . ولا مشاحة في ان بحثاً كهذا يجعل فصول الكتاب أقرب منالاً على القارئ لا سيما اذا لم يكن له سابق عهد بهذه الموضوعات .

خامساً . — لم يعن الاستاذ بلغة الكتاب قدر عنايته بمعانيه ولذا جاء فيه من الجمل الركيكة والألفاظ المغلوطة عدد كبير وهذا بعضها :

١ — تراكيب في المنسوب والمنسوب اليه لا يألفها الذوق كالإنقلاب الاسلوبي والانحرافات التركيبية والإرتقاء النشوئي والمثالية الأخلاقية والحركة التنبيهية والمبيبة العلية والتقليد الشكي والشك التقليدي (للمعنى الواحد) والأطوار الانقلابية والمستكشفات التشريحية والعضويات الحفرية ، الى كثير من أمثالها في حين ان كتاب العرب في صدر الاسلام كانوا يعدلون حتى عن المستساغ من هذه الالفاظ الى استعمال المضاف والمضاف اليه فيقولون مثلاً انقلاب الاسلوب وانحراف التركيب الخ .

٢ — ألفاظ لم ترد في كتب اللغة بتاتاً او بالمعنى الذي يريده كالاستعاق والاستكشاف (بمعنى الإكتشاف) والتمفن والإرتكاز والإستحواذ والإدحاض وموضوعية العلم والاحتراز والأسبقية والتحنث .

٣ — أفعال عداها بغير الحروف التي تتعدى بها مثل أثَّرَ على وهو يتعدى بحرف في . وباع على (صفحة ٤٤) وهو يتعدى بنفسه او بحرف من . وتأمل من وهو يتعدى بنفسه او بحرف في . وبحث الموضوع بدلاً من بحث عن الموضوع اوفيه . وأهل بالباحثين الى معرفة كذا بدلاً من اهلهم لمعرفة كذا . واضطر للعمل بدلاً من اضطر الى العمل .

٤ . — مسميات علمية لم يترجمها باسماء عربية سليمة او بالالفاظ التي اتفق كتاب العرب عليها فقال اللقح بدلاً من الطلع او غبار الطلع . والاستجانة بدلاً من المهبل او المتك او السمة . والحفريات بدلاً من المتحجرات (Fossiles) . والتوبيع بدلاً من الصنف (Variété) والصفة النائرة (Caractère dominant) عوضاً عن الصفة السائدة او البارزة (وان اتى فعل نئر بمعنى غلب) . والصفة المنفورة (C. recessif) عوضاً عن الصفة المخفية او الكامنة .

٥ — غلطات شتى لا تغتفر وهي كثيرة مثل ليس سوى جسم (ذو) تركيب، ينكرون للعالم الخارجي (وجود حقيقي) في ذاته، لم يجعل لأثر الحالات الخارجية (شأن) يذكر، لا (يؤبهون) بالبراهين، مرّ على تاريخ الارض (عصوراً) ليقام له بين عشية وضحاها (تمثالاً).

والخلاصة ان كتاب الاستاذ اسماعيل مظهر بك على ما فيه مما يؤخذ به هو من أنفع الكتب الفلسفية. ولا أشك ان المؤلف الفاضل اذا تعاهد لغة مؤلفاته بعنايته واستقر على اتباع فلسفة بعينها فانه يخدم العربية خدمة كبيرة عن طريق الفلسفة لغزارة مادته فيها.

عضو المجمع العلمي العربي

مصطفى الشهابي

—«×» ◊ «×»—

الموشح

« في مآخذ العلماء على الشعراء »

تأليف ابي عبيد الله محمد بن عمران المَرْزُباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ عنيت بنشره جمعية نشر الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ وطبع بالمطبعة السلفية ويطلب من مكتبتها في مصر (ص ٤٧٧)

أحسنت هذه الجمعية كل الاحسان بنشرها مثل هذا الكتاب المفيد لمثل هذا الامام المحقق في مثل هذا المظهر البديع. فان العلامة المرزُباني لم يطبع له فيما علمنا شيء حتى الآن مع ان تآليفه بلغت خمسة وخمسين مصنفاً ومنها ماوقع في خمسة آلاف ورقة او في عشرين مجلداً وهو واسع المادة، جيد التأليف، امام في اللغة والنحو والأدب والتاريخ، حتى قيل انه من محاسن الدنيا وانه كان في عصره أحسن تصنيفاً من الجاحظ. ومعنى المرزبان عند العجم الرجل المقدم العظيم القدر او حافظ الحد. اما تصنيفه هذا فهو مجموع ما رواه عن أئمة هذا الشأن عن وقفوا للشعراء جاهليهم ومخضرميهم واسلاميهم قدمائهم ومحدثيهم، يقومون لهم كلامهم و ينقدون اشعارهم ويغربلون جيدهم عن رديئهم. وقد اخذ المؤلف بالواسطة عن القاسم عبيد بن سلام الجمحي صاحب طبقات الشعراء (المطبوع في ليدن) وروى ايضاً عن قدامة بن جعفر

صاحب نقد الشعر (المطبوع في الاستانة) واقتبس من الآمدي صاحب الموازنة الى الشنتنداني صاحب معاني الشعر (المطبوع في دمشق) الى غيرهم من العلماء والباحثين . وروى السيد المرتضى في اماليه عنه كثيراً . وكذلك ياقوت الحموي في معجم الادباء . وكتابه يعلّم من يتدارسه عيوب الشعراء ومنهم من لم يجر لهم ذكر الا في مطولات كتب الادب ، واكثرهم من المشهورين النابهين . ومن يقف على العيوب اتقاها ، ومن عرف السقطة تبا لدعنها، ولا يسلم من يأخذ نفسه باساليب البيان شعراً كان او نثراً او خطاباً الا اذا اطلع على ما اورده حذاق النقاد في نقد من عانوا هذه الصناعة من فحول الشعراء وزتوتهم في كل جيل . والكتاب نافع في بابه لكل أديب ومتأدب ، زادت به مادتنا من الامهات خصوصاً وهو من الكتب التي نقلها بخطه من أصول صحيحة نقلت عن خط المؤلف اللغوي الكبير في عصره محمد محمود بن التلاميد الشنقيطي وعلق على الاماكن المشكلة منها ، ثم تعاورتها زمرة من الادباء في مصر بالتصحيح والشكل وجعل للسفر فهرس جميل باسماء الاعلام فجاء الكتاب مستوفى من كل وجه لاتجد فيه المغامز التي تعثر بها في اكثر ما يطبع لعهدنا من كتب الاقدمين لقلة العناية بتقويمها وخدمتها ومعارضتها بالاصول واتباعها بالفهارس التي تدل على مضامينها . وحبذا لو اكثرت هذه الجمعية من طبع مثل هذه الاسفار التي تقربنا من الفصحى وتعلمنا مناحي البلغاء في تآليفهم واوضاعهم وتحيي آثاراً طالما أسهر فيها مصنفوها اجفانهم خدمة للعلم العربي ولهذه الامة

محمد كرد علي

═══

الأزهر

« ماضيه وحاضره والحاجة الى إصلاحه »

تأليف السيد محب الدين الخطيب طبع في المطبعة السلفية بمصر في ٥٥ صفحة بالقطع الصغير

لم يفكر احد في موضوع الإصلاح الإسلامي والنهضة الإسلامية الا وجّه نفسه وأعمل قلمه في بيان فضل الأزهر ومبلغ تأثيره في الاصلاح المنشود فهو بالنسبة الى العالم

الاسلامي كالقلب بالنسبة الى الجسد · وصلاح الجسد بصلاح مضغته كما ان صلاح الاسلام بصلاح أزهره · ولكن توجد صعوبة في امر فهم ذلك الاصلاح والاتفاق على طريقة الوصول اليه بين المفكرين من فضلاء الكتاب المسلمين وبين القائمين بشؤون الأزهر واول من عالج هذه القضية وقاسى منها ما قاسى هو أستاذنا الامام الشيخ محمد عبده وقد نام على أثره اليوم احد محبيه المتبعي طريقته في الاصلاح الاسلامي صديقنا السيد محب الدين الخطيب صاحب مجلة (الزهراء) والمطبعة السلفية فوضع هذا الكتاب الموجز في حجمه المسهب في فائدته · فأتى اولاً على تاريخ الازهر وما هي أوضاعه وأروقته وكتبه ومشايخه من القرن الحادي عشر الهجري الى اليوم ثم ذكر مبلغ تأثيره في التجدد او النهضة الاسلامية اذا أصلحت مناهجه وطرق التعليم فيه فالبحث جليل في موضوعه عظيم في الهدف الذي يرمي اليه · المغربي

اتجاه الموجات البشرية

« في جزيرة العرب »

تصنيف السيد محب الدين الخطيب ايضاً طبع في المطبعة السلفية بمصر

في ٧٢ صفحة بالقطع الصغير

السبب في وضع هذا الكتاب ان المستر توينبي كتب مقالاً علل فيه اندفاع الموجات العربية من جزيرة العرب حيناً بعد حين — علله بما لا ينطبق على الحقيقة ولا يتفق دائماً مع الاسباب التاريخية للهجرات العربيـة الكبرى · فألف الاستاذ السيد محب الدين هذا الكتاب وعرض على أنظار القراء صورة صحيحة لاتجاه الموجات العربية منذ ستة آلاف سنة نحو العراق والشام خاصة والبلاد السامية عامة وأثبت فيـه انّ اصل الكلدانيين والفنيقيين من العرب · فالكتاب كما ترى من أجود ما كتب في تاريخ العرب وفلسفة نهضاتهم والحامل لهم على انبعاث موجاتهم الكبرى لاسيما الموجة المحمدية الاخيرة التي غمرت وجه العالم المتمدن في عصر ظهورها · ولا جرم ان يحل الكتاب محله اللائق به من نفس كل محب للتاريخ العربي المجيد · (له)

كتاب تحفة الاريب

« بما في القرآن من الغريب »

تأليف ابي حيان الاندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ طبع في مطبعة الإخلاص بحماه سنة ١٩٢٦ في نحو ١٥٠ صفحة

لا تخفى منزلة مؤلف هذا الكتاب بين أئمة اللغة والأدب كما لا تخفى الحاجة الى هذا الكتاب على احد من الفضلاء اليوم . لاسيما متولي شؤون التربية والتعليم في البلاد العربية فان الطالب اثناء مدارسة القرآن وتفهمه معناه قد تمر معه كلمة من غريبة تخفى عليه او على استاذه والرجوع الى هذه الكلمة في كتب اللغة ليس من الحزم في شيء اذ ان لغريب القرآن معاني لا يصح الرجوع اليها الا في كتب التفسير ، ومراجعة ذلك في كتب التفسير فيه صعوبة لا تخفى . فلم يبق امامنا الا ان توضع كتب خاصة في تفسير غريب القرآن تفسيراً موجزاً يناسب الطلاب وقد وضعت عدة كتب في هذا المعنى ولكن اوفاها بالحاجة كتاب ابي حيان هذا الذي سماه تحفة الاريب . لاحظ كل ماذكر الاستاذ العلامة الشيخ محمد سعيد النعساني مفتي حماة فانبرى لنشر هذا الكتاب وزاده فائدة بان كتب عليه تعليقة بيّن فيها اوجه القراآت السبع مع ذكر ما أغفله المصنف من غريب القرآن . وعهد الى اخيه الفاضل الشيخ طاهر النعساني بتصحيح الكتاب وضبطه والوقوف على طبعه . فالشكر لهما لما أسديا هذا الكتاب . الى المحتاجين اليه من أساتذة وطلاب . (له)

كتب ورسائل مختلفة

(١) رواية الثورة الدرزية في الاراضي اللبنانية للسيد الياس جرجس شبل ابي نادر طبعت في المطبعة التجارية السورية الاميركية في نيو يرك ١٩٢٦ ص ٦٢ .

(٢) إبنة المملوك رواية مصرية تاريخية تمثل فجر نهضة مصر ايام محمد علي بين سنتي ١٨٠٤—١٨٠٧ جزآن في مجلد واحد تأليف الاستاذ السيد محمد فريد ابو حديد طبعت بمطبعة الاعتماد بمصر ١٣٤٥ — ١٩٢٦ (ص ٤٣٥) .

(٣) « بسائط الطيران » تأليف الدكتور احمد عبد السلام الكرداني طبع مصوراً بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر في مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٤ — ١٩٢٥ (ص ١٧٦) ٠

(٤) «خاطرات الماضي واحلام المستقبل» مجموعة أدبية اجتماعية أخلاقية تأليف السيد عزت مقدم طبعت بمطبعة الحضارة بطرابلس الشام ١٣٤٥ — ١٩٢٧ (ص ٤٨) ٠

هدية مطبعة المعارف

أهدى السيد نجيب متري صاحب مطبعة المعارف ومكتبها بمصر الى المجمع العلمي العربي واحداً وعشرين كتاباً من مطبوعاته التي ظهرت حديثاً منها :

(١) كتاب وصف الآثار المصرية وسير مشاهير الرجال تأليف السيد محمد عبد الحليم عامر وفهمي فرح داود طبع سنة ١٩٢٦ في ١٢٠ صفحة صغيرة مصور ٠ (٢) النيل في عهد الفراعنة والعرب تأليف السيد انطون زكريا طبع سنة ١٩٢٦ في ١٢٦ صفحة متوسطة مصور ٠ (٣) السعادة والسلام تأليف اللورد افبري وتعريب السيد وديع البستاني وهو الطبعة الثانية سنة ١٩٢٦ في ٢٣١ صفحة صغيرة ٠ (٤) معنى الحياة تأليف اللورد افبري وتعريب السيد وديع البستاني وهو الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٦ في ١٢٧ صفحة صغيرة ٠ (٥) جناية اوربا على نفسها والعالم تأليف السيد احمد فهمي طبع سنة ١٩٠٦ في ٩٧ ص متوسطة ٠ (٦) ابطال الحرية بقلم انطون الجميل طبع سنة ١٣٢٧ ه في ٤٩ ص متوسطة مصور ٠ (٧) رواية الصديق المجهول تأليف السيد نقولا حداد في ٢٤٨ ص متوسطة ٠ (٨) رواية الايمان تعريب صالح جودت طبعة سنة ١٩١٤ وهي في ١١٥ ص ٠ (٩) رواية فتاة مصر تأليف الدكتور يعقوب صروف في ١٩١ ص متوسطة ٠ (١٠) رواية القضاء السمري تعريب قيصر شميل طبعة سنة ١٩١٠ ٠ (١١) رواية السموأل او وفاء العرب تأليف السيد انطون الجميل طبعة سنة ١٩٠٩ في ٩٥ ص متوسطة ٠

وغير ذلك من الروايات الأدبية العصرية فالمجمع العلمي يشكر ار يحية هذا المفضال لهديته النفيسة في سبيل العلم والأدب ٠

الجزء ٤ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : نيسان سنة ١٩٢٧ م الموافق شوال سنة ١٣٤٥ هـ

شيء عن اناتول فرانس (١)

سير العلم — القديم والحديث — الكلام عن اناتول فرانس — تراجم الكتاب — مذهب اناتول في الشك — التفاؤل — الحزن واسبابه — المسامحة — الحب — الاسلوب المدرسي — الاسلوب الوجداني — طراز اناتول في النقد — لغة لافونتين — ميل اناتول الى لغته — حرصنا على اللغة ·

قال الاستاذ شارل ريشه احد اعضاء معهد باريز في كتابه (العالم) :

« يسير العلم في سبيله سيراً تحار ثواقب الانظار في سرعته ، على ان العلم لا يزال في عنفوان امره وريعان عمره ، فالعالم (ارخميدس) على نبوغ فضله و براعته كان يجهل ما يعلمه المعلمون اليوم في المدارس الابتدائية ، وأجهل تلميذ من تلاميذ المدارس التجهيزية يعرف من العلوم اموراً يجهلها العالم (غليله) نفسه ، ما بين العالم (فرانكلان) وبين العالم (انشتين) مائة وخمسون سنة ، فتصور سير العلم في مائة وخمسين سنة ! ما أعظم انقلاب الافكار ! لم يكن من قبل علم الاحافير ولا علم الجراثيم ولا علم التصوير ولا الطيران ولا خطوط الحديد ولا حل الطيف الشمسي ، فلا يتجاوز عمر علوم البشر قرناً ونصف قرن وما هو قرن ونصف قرن · المشي غير وئيد ، اننا نسير الى معرفة الاشياء على سلسلة هندسية متزايدة ، وفي يوم من الايام سيكون للرجل بفضل ما يقتبسه من العلوم سلطان عظيم على المادة مهما اختلفت اشكالها » ·

(١) محاضرة الاستاذ المحقق السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع القاها في ردهة المجمع يوم ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٢٧ م ·

هذا ما قاله الاستاذ (ريشه) فلم يتجنب نهج الصواب في وجيز كلامه ، لقد ظهرت علوم في ايامنا لم تظهر من قبل ، فانبسطت آفاق العقول فتبدل بانبساطها طراز التفكير وتغير نمط النقد ، وطفق الكتاب يتغلغلون في حقائق الامور ، فظهرت على كتاباتهم آثار هذا الانقلاب واختلفت اصولهم في التفكير عن الاصول التي كانوا يبنون عليها من الف سنة ، لقد تبدلت الارض غير الارض والسموات ، واستفحل العمران واستفاضت مذاهب الحضارة فأصبح الجمود على القديم متلفة للقرائح ، الا انه ما كل قديم فاسد ولا كل حديث صالح ، واذا جازلنا ان نستهجن البكاء على الاطلال او وصف مرابض الغنم ومعاطن الابل في عصر طارت فيه الطيارات ودبّت فيه الدبابات ، او اذا جاز لنا ان نستشنع الكلام عن قبة من ادم او مظلة من شعر او خباء من صوف او بجاد من وبر او خيمة من شجر او قنة من حجر في دهر ذهبت فيه القصور في السماء فلا يجوز لنا ان نشذ عن لغة نسجت أفوافها الليالي وطرّزت أبرادها الايام فوسعت ما في السموات والارض .

لقد انقلبت العقول والافكار فنشأ النمط الحديث في الادب وليس في هذه الثورة الفكرية شيء يستكره اذا لم يكن معها ثورة تذهب بمحاسن اللغة والاسلوب فان الحياة تستلزم الحركة ولا ريب ، قال ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا المقيم :

« ومن ذا حظر على المتأخر مضادة المتقدم ، ولمه تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وتدع قول الآخر : كم ترك الاول للآخر ، وهل الدنيا الا أزمان ولكل زمان منها رجال ، وهل العلوم بعد الاصول المحفوظة الا خطرات الاوهام ، ونتائج العقول ، ومن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ، ولمه لا ينظر الآخر مثل ما نظر الأول حتى يؤلف مثل تأليفه و يجمع مثل جمعه ، و يرى في كل ذلك مثل رأيه ، وما تقول لفقهاء زماننا اذا نزلت بهم من نوادر الاحكام نازلة لم تخطر على بال من كان قبلهم ، او ما علمت ان لكل قلب خاطراً ولكل خاطر نتيجة ، ولمه حجرت واسعاً وحظرت مباحاً ، وحرمت حلالاً وسددت طريقاً مسلوكاً ، ولو اقتصر الناس على كتب القدماء لضاع علم كثير ولذهب أدب غزير ولضلت افهام ثاقبة ،

ولكانت ألسن لسنة ولما نوشي احد لخطابه ، ولا سلك شعباً من شعوب البلاغة ولمجّت الأسماع كل مردد مكرر وللفظت القلوب كل مرجع ممضغ » .

ابو الحسين هذا حفظه الله من المجدّدين او المتجددين على ما يستنبط من كلامه ، الا انه نشأ في عصر انتهت فيه اللغة الى ابعد غايات الحسن وبلغت أقصى نهايات الجودة والظرف ، فكانوا اذا نزعوا عن اللغة برداً قشيباً خلعوا عليها برداً أقشب ، واذا جرّدوها من ديباجة طريفة ألبسوها ديباجة أطرف ، وحسبي ان أذكر من أئمة ذاك العصر ابن العميد والخوارزمي والصابي والصاحب والبديع والثعالبي وأمثالهم من الذين حسنت بهم صناعة الانشاء ، وما بينهم وبين الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الا فيئة من الدهر ، فكانت اللغة في حصن حصين وركن ركين فلم يكن في تجديدهم خوف عليها ، وما انحطت اللغة عن طبقتها الا لما ذهبوا بين سمع الارض وبصرها . اما المجدّدون في هذا العصر فقد بالغت طائفة منهم في الامر حتى أصبح جديدهم خلَقاً رثيثاً . فذهبوا الى إطراح كل قديم ومحدث ، وجاهلي ومخضرم ، واعرابي ومولّد ، فلم يستملح ذوقهم كلام الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد وأشباههم من امراء البيان . وزعموا ان أساليب المتقدمين لا تسع علوم هذا العصر ولا تستوعب طرائف الحضارة وبدائعها فاذا بدّلوا أنماط التفكير لزمهم ان يبدلوا أساليب الكلام ، وهذا موطن الغلو في آرائهم . لئن ارتقى الفكر البشري في هذا العصر فان كلام العرب منحط عن طبقته في الجاهلية والاسلام . فاذا لم يبلغ كلامنا اليوم مبالغ كلام المتقدمين فأي عذر لنا في الشذوذ عن أساليبهم ، وكيف نزعم ان لغتنا اعلى من لغة القرآن والمتحببين على أذيال القرآن .

ترجم الدكتور ماردروس القرآن الى لغته الفرنسية بعد ان استعد لهذا الامر عشرين سنة وقد كتب عن هذه الترجمة الاستاذ باولوسكي مقالة في مجلة (Les Annales) جاء في خاتمتها ما يلي :

« لقد بلغ من تأثير القرآن في قلوب الثلاثمائة مليون مسلم مبلغاً أجمع معه المبشرون على الاعتراف بانهم لم يستطيعوا ان يردوا مسلماً عن دينه حتى اليوم . واستنتج الدكتور من ذلك ان الكلمة اذا وضعت مواضعها وأنزلت منازلها كانت سحراً حلالاً » .

فمن الذي يتجبح اليوم بان يأتي بكلام ينزل على أكباد ثلاثمائة مليون رجل نزول الماء الزلال على الكبد الحرّى . فاللغة التي تخرج عليها طائفة المجددين هي لغة جمهور من الكتاب والخطباء والشعراء تدارسوا كلام القرآن حيناً من الدهر طويلاً حتى وصلوا الى ما وصلوا اليه من شعاب البلاغة . تزعم هذه الطائفة انها تذهب مذاهب الغربيين في كتابتها فكأنما خيل اليها ان أدباء الغرب لا يبالون بقدماء كتابهم وشعرائهم .

هذا اناتول فرانس يافعة دهره !

تحدرت اليه بلاغة المتقدمين فحل في الإنشاء المحل الارفع حتى اطبق أدباء وطنه وفيهم عدوه وصديقه على الاعتراف بان اناتول حفظ اللغة في القرن العشرين ، فلم يتطرق اليها الفساد ، فلولا حرص اناتول على اللغة القديمة وتعلقه باهدابها لم يكن له المنزلة الرفيعة في الأدب .

وما اللغة القديمة التي يحرص عليها اناتول الا لغة المدرسيين اي لغة القرن السابع عشر والقرن السابع عشر أطيب عصور الادب الفرنسي ، فقد بلغت فيه اللغة المبالغ وبينها وبين لغة كتابنا البلغاء امثال ابن المقفع شبه عظيم وان رجلاً حفظ لغة قومه لجدير بان نعرف سيرته ، ونتقيل طريقته .

الكلام عن (اناتول فرانس) بعيد الشقة ، مترامي الاطراف ، فلا يأمن الغائص على هذا اللؤلؤ المكنون ان يغرق في لجة خضم ملتطم الأمواج . واني أخاف اذا حاولت ان اقول عنه كل شيء ان لا اقول شيئاً . واني لأخشى اذا اردت ان اعرض على الجمهور كل طرائفه ان لا اعرض طريفة . فآثرت ان ألمّ باناتول إلماماً دون الافاضة في مطولات اخباره وآرائه . ولو اردت ان أشبع القول في عبقريته لعمدت الى كتب ومجلات وصحف شتى توغل اصحابها في هذا الافق المابسط كل متوغل . بيد اني احببت ان أبرز آثاراً بقيت في نفسي ورسوماً رسخت في ذهني من مطالعة بعض كتب ألفها اناتول فرانس . واني ارى ان الباحث عن اديب من الادباء اذا اجتمعت له عناصر البحث وتوفرت لديه مواد التنقيب لزمه ان يكون مستقلاً في حكمه ، حتى يكون هذا الحكم صادقاً ، ولكنه اذا نقل ما قاله الناس دون اعمال فكره كانت الصورة التي يعرضها مزورة مرقشة .

ولد اناتول فرانس في باريز سنة ١٨٤٤ فكان لمشاهد جوادّ باريز الجميلة تأثير كبير في ذهنه فقد كانت هذه الجواد يومئذ هادئة مخضلّة فكان اناتول يسرّح الطرف في قصر (اللوفر) و يصوب النظر و يصعده في قصر (مازاران) فملأت هذه المباني عينه ، وغمرت قلبه فنعم خلقه برونقها ومزج فريحته برقتها ، ولم يصدق انها من آثار البشر . فكان الشك يختلج في صدره ، وقد بعثه تأمله هذا على الشغف بالفنون والحنين الى الماضي وكان ابوه كتبيًا فأيقظت فيه هذه الحرفة ولمًا بالادب القديم و بالكتابة .

* * *

من محاسن ادب الافرنجة انك اذا تفرغت للكلام عن اديب من أدبائهم اوشاعر من شعرائهم او خطيب من خطبائهم الى غير هذه الطبقات من الناس الذين يقلبون العالم بنسج طبائعهم وسبك افهامهم وصوغ اذهانهم وجدت في بعض الاحايين مجال القول ذا سعة ، فانك لا تشاء ان تعرف شيئًا عن اخلاق هذه الطبقات وآرائهم وعاداتهم وتقاليدهم واوضاعهم ونشأتهم ومحناتهم وشيآتهم الا عرفته . وقد بالغوا في ذلك فوصفوا في كتبهم كيف ولدوا و كيف عاشوا و كيف ربّاهم اهلهم . ووصفوا اخلاق آبائهم وأمهاتهم فيقيدون كل شاردة و يدونون كل نادرة وقد يتولى ادباؤهم وصف حياتهم باقلامهم ، والمرء اعرف ببواطنه و كوامنه من غيره ، وهذا النمط قليل في ادب العرب .

من هؤلاء الكتاب الذين وصفوا في كتبهم بداءة حياتهم و ميعة شبابهم اناتول فرانس فهو يرى ان اتقان الكتاب لهذا الطراز اشد من اتقانهم لغيره فانهم يجدون لذة في هذا الوصف فيحملون القراء على مشاركتهم في اللذة وقلما ينزل الوحي على كاتب مثل ما ينزل عليه وهو يكتب عن خزائله ولواعجه ، فأجمل كتب روسو « اعترافاته » واجمل كتب شاتو بريان « مذكرات ما وراء القبر » .

الف اناتول فرانس اربعة كتب رائعة تصرّف به الكلام في تصوير حياته كل متصرف ، واناتول فرانس كلف بالاستطراد في كتاباته فهو يخرج من الجد الى الهزل ، ومن الحزن الى السهل نفيًا للكلال وبعدًا من الملل فكثيرًا ما يحب ان يلهو في سبيله ، فاذا مضى لطيته ولم يلو على شيء وصل الى غرضه في طرفة عين وهذا

ما لا يريده ، فانه يرى اللذة في الجيئة والذهوب لان التنقل في الكلام مدرجة الى اللهو وهذا هو طراز الجاحظ في الكتابة والتأليف ٠

كان والد اناتول يرى في اول نشأة ولده ان عقل كلبه ينمو اكثر من عقل ابنه ، فلم يقع في خلده انه يأتي يوم يصبح فيه اناتول منفرداً علماً يملأ الدنيا و يشغل الناس ٠

وقد كان بين اناتول وابيه اختلاف في المعتقد والذوق فكان والد اناتول يؤمن بالآخرة يختلف عن هذا العالم ، و بروح تختلف عن هذا الجسم ، اما اناتول فانه لم يعرف ما وراء الطبيعة ولم يصدق كل ما يقال له ٠ وقد شرع وهو طفل صغير في تعلم الكتابة فحاول ان يكتب في اللاهوت والأخلاق فافتتح كتابته بهذا الكلام « ماهوالله » وعرض العبارة على أمه فأوعزت اليه في وضع علامة الاستفهام بعد كلمة « الله » إشارة الى انه يسأل عن امر يجهله ، فاستعصى وقال : اني اعرف الله ولا استفهم وطال الجدال بينهما وامتنع عن وضع العلامة ٠

قال اناتول : وقد تغير طبعي من ذاك الحين فاني لا امتنع عن وضع علامة الاستفهام في كل مقام مناسب وقد أتعرض لوضع هذه العلامة في كل ما اكتب واقول وفي كل ما أفكر فيه ٠ ولو تراخى اجل أمي لقالت لي « لقد جاوزت الحد يا اناتول » وفي هذا الكلام إشارة الى ان اناتول يشك في كل شيء في العالم ٠ فان فلسفته الشك ، ووضع علامة الاستفهام بعد الكلمة إلماع الى الشك ، على انه يقول مهما كان شكنا الفلسفي فاننا مضطرون الى ان نعمل في الحياة كأننا لم نشك في شيء ٠ فلم يكن مذهب اناتول الشك المطلق فهو يخشى هاتين الكلمتين الجافتين « انا اشك » لان المرء اذا كان شك في الامور وجب عليه ان يسكت فالكلام إثبات واناتول لم يجرأ على السكوت والاعتزال فقد شاء ان يؤمن فآمن الا انه آمن بان الامور نسبية في هذه الدنيا ٠

كان اناتول يرى ان ايمان ابيه بالله هو الذي جعله متفائلاً بالحياة ، الا ان هذا الوالد كان مع تفاؤله سوداويا قليل الضحك قليل الميل الى المزاح ، اما اناتول فقد اخذ عن ابيه مذهب التفاؤل الا انه كان فرحاً في حياته على خلاف ابيه ، فقد نظر الى الحياة من وجهها الصحيح فلم تغلب عليه السوداء التي غلبت على ابيه ، ولا مثلت له

الأوهام اموراً لا حقيقة لها ، فليس في الدنيا على مايقول حياة حسنة ولا حياة سيئة ، لا شيء شريف او معيب في ذاته ولا شيء عادل او غير عادل ، لذيذ او أليم ، صالح او فاسد . وانما الرجل هو الذي يجعل صفات للاشياء كما يجعل الملح طعماً للمآكل .
هذا هو رأي اناتول في الحياة وهو يقول من عاش طمحت نفسه لطلب المطالب وبقدر ما يحسب المرء ان مطلبه حلو او مر تكون الحياة في نظره حسنة او سيئة . يألم الرجال لانهم ليس في ايديهم ما يظنون انه خير او اذا صار اليهم هذا الخير خافوا ضياعه ، و يألمون ايضاً لانهم يكابدون ما يظنون انه شر من الشرور فاذا بطلت هذه المعتقدات ذهبت آلامهم ، والناس سواء في عجزهم عن عمل الخير والشر فان الخير والشر لا اثر لهما الا في الرأي . والعاقل من الناس يرى العادة والمصطلح اصل كل شيء . هذا هو معنى كلامه « الامور نسبية في هذه الدنيا » . وقد قذف ابو الطيب المتنبي هذه الفلسفة في بيت فقال :

راعتك رائعة البياض بمفرقي ولو انها الاولى لراع الاسحم

البشر في نظر اناتول هم الذين يستجلبون العذاب الى قلوبهم و يدخلون الآلام على نفوسهم فاسمع ما قاله في الحزن وكيف علله .

« أشد ما يكون حذقنا باستجلاب العذاب الى قلوبنا ، وأعظم ما تكون مهارتنا في جر الألم الى نفوسنا ، لقد ضاعفنا آلامنا وتمم انتقصنا ناز يا اللذة لحواسنا . لقد ظهرت منذ بدء الخليقة ونشوء العالم امرأة مقنعة اسمها «السويداء» ولكن فلنعدل دون شيء من الاشتطاط فقد أضفنا ولا ريب بعض الشيء الى احزان النفس ولكل منا نصيب في إنشاء هذه الآلام ، آلام الروح .

العلم لا ينشيء شيئاً من السعادة ، فقد قطفنا ثمر شجرة العلم وأكلناه ، ولم يبق منه في الأفواه الا طعم الرماد . لقد مشينا في مناكب الارض وخالطنا أمماً شتى منها السود والحمر والصفر ، و بان لنا اختلاف البشرية ، ورأينا ان هذا الاختلاف اعظم مما كنا نتصوره ، ووجدنا انفسنا أمام اخوان اجانب لا تشابه ارواحهم ارواحنا الا بقدر ما تشابهها ارواح الحيوانات ، ثم جلنا في الفكر كل مجال نقلنا ما هذه البشرية التي تتغير سحناتها وارواحها وآلهتها بتغير مبآتها ، كنا لا نعرف من الارض الا حقولها التي كانت تخرج لنا الخيرات وكانت هذه الارض كبيرة في اعيننا فلما عرفنا مقامها

في العالم تصوّر لنا صغرها ، فقد علمنا انها ما كانت الا قطرة طين ، فوضع هذا العلم منا ، وكنا محولين على الظن بان اشكال الحياة والعقل كانت اعظم مما تمثل لنا ، وان في الكواكب والعوالم بمجامعها مخلوقات تفكر ، فنهمنا بعد ذلك ان عقلنا صغير . ان الحياة في ذاتها لا هي طويلة ولا هي قصيرة . والأغرار الذين يقيسونها بالنسبة الى مدتها الوسطى يقولون والحق يقولون ان المرء اذا مات بعد ان يخطه الشيب فقد قضى لبانته من الحياة ، اما نحن فما ذا صنعنا ؟ فقد شئنا ان نحزر عمر الارض القديم وعمر الشمس وها نحن الآن نقيس حياة البشر على ادوار طبقات الارض وعلى اعمار العوالم فرأينا بعد هذا القياس ان الحياة قصيرة ، غرقنا في بحر الزمن والمسافة فتبين لنا اننا لم نك شيئاً فثقل علينا هذا الامر ولم نشأ ان نقول شيئاً بسبب كبريائنا فخجلنا واصفرت وجوهنا والخطب الجلل ان ايماننا ذهب بذهاب جمالنا الحسنة ذهب رجاؤنا واضمحل املنا فلم نؤمن اليوم بالذي كان عزاء لآبائنا وهذا شديد علينا ، فقد كان الايمان يجيهم نفسها يطيب و يعذب .

ومما زاد في بؤسنا ان تكاليف الحياة المادية اصبحت اثقل من قبل ، فان الجماعات الحديثة قد جوّزت ضروب الأماني فاستثارت بذلك كل مجهود . واصبح التزاحم على الحياة والتنازع فيها اشد من كل دهر وصار الظافرون احمق ، والمنكسرون اعظم انكساراً ، لقد اضعنا حب الخير بضياع الايمان والرجاء وكانت هذه الفضائل الثلاث تحمل الأرواح البائسة على ظهر هذا البحر ، بحر العالم ، فمن الذي يأتينا اليوم بالايمان والرجاء وحب الخير ! » .

* * *

كان اناتول سعيداً في حداثة سنه ولكنه يقول : السعداء لا يعرفون اموراً كثيرة عن الحياة فالألم هو مهذب الرجال الأكبر والألم هو الذي علمهم الفنون والشعر والأخلاق وهو الذي اوحى اليهم البطولة والشفقة وهو الذي جعل قيمة للحياة عندما يغامر الناس في حياتهم .

ومن كان متفائلاً بالحياة فأخلق به ان يكره الموت ، و يخاف شدته ، واناتول من الذين يكرهون الموت قال :

كان الموت في كل دهر من الدهور مخوفاً فظيعاً ، ومهما قالوا لك لا ينبغي للمرء ان تأخذه المخافة من ظلمة اللحد وضيق الارماس فما الموت الا العدم فالرجل يجيب عن مقالهم هذا بان الساعة الأخيرة تملأ القلوب خوفاً ورعباً . كان الاغريق يرهبون غم الضريح ويخشون هول الموت الا انهم لم يتجوه ولا شنعوه ، فان مخيلاتهم قد زينت كل امر من امور الدنيا وجعلت لقلع الحياة بهجة ورونقاً اما القرون الوسطى فقد هولت علينا بنار جهنم وخوفتنا بخيالات كئيبة مستكرهة فصورت لنا شياطين تمر بنا فتنتزع من بين جوانب المذنبين أرواحهم ورعبتنا بصور المقابر المحزنة واشكال الهياكل العظمية والديدان التي تأكل لحم الاجسام الفاسد وعلى هذا كان الموت شديداً .

ولم يذهب هول المقابر الا في القرن الثامن عشر فقد كانوا يجعلون في اعالي القبور الاواني المستظرفة والرياحين والأزاهير فكانت هذه القبور زينة بساتين الانكليز وحدائقهم » .

لم تفجع باريز وحدها باناتول فرانس وانما فجعت به البشرية برمتها ، لان اناتول رجل الانسانية وليس حظ وطنه منه باوفر من حظ العالم بامره . يقول اناتول : لا يكون الواحد منا انساناً الا اذا أشفق على أخيه ، فلا يليق بنا ان نستحيل جلود صخر فلنشفق على الضعفاء لانهم بألون من الأقوياء ولنرأف بالسعداء في هذا العالم فقد جاء في الكتاب « ويل للذين يضحكون » .

كان اناتول شفيقاً على الضعفاء وقد بلغت به شفقته المبالغ فكان عطفه على الضعفاء الذين يألمون من الضهد مثل عطفه على الضعفاء الذين ينشأ ضعفهم عن أعصابهم فيذهبون في الحب كل مذهب ، ألف الكساندر دوما رواية بحث فيها عن مقتل رجل لزوجته لخروجها عن العفاف . قال اناتول « لو كنت قاضياً لما برأت القاتل من جنايته اللهم الا ان يطبق اطباء الشرع على انه مصاب بفالج في جملة اعضائه ، ولا عجب في ذلك ، فان قتل المرأة لأمر عجاب وهيهات ما يطاق الذين يجترؤن على اشباه هذه المذابح . لا ريب في ان زوجة هذا القاتل كانت فاسدة الخلق ، ذات غرائز سيئة ، ولكن هل نسأل عن غرائزنا ، الم يك للتربية والميراث تأثير في اعمالنا . فمن موجب الاسف اننا نولد معوجين لا سبيل الى تقويم اعوجاجنا ، اننا نولد شيباً لا شباناً . لو فكر القاتل

في العناصر التي تؤلف جسم زوجته اللطيف لما حطم هذه الآلة الدقيقة ، ولكان غفر لهذه الروح المظلمة جناية أعصابها ودمها . اسمع ما تقوله الفلسفة الطبيعية في شعرها « ان لأمور الحب أسراراً غامضة ، ان غرائز المتقدمين التي كانت في الاصل تجمع في بطون الغاب بين أطراف الأبدان المعراة هي نفسها التي تقلق اليوم المرأة تحت ثيابها النفيسة . ما فتئت المرأة تحفظ دم حواء الغابات الكبيرة على علمها بالظفر ، وحرصها على القوانين » .

يعرف اناتول كل ما يستوجبه الأدب ومعاذ الله ان يذهل عنه ، ولكنه يرى ان الرأفة هي احسن الفضائل وان الفلسفة الطبيعية تعلم المسامحة وفضلاً عن ذلك فاذا جاء امر الحب فلا نجد الى التمييز سبيلاً — حبك الشيء يعمي ويصم —

الحب في رأي اناتول فرانس هو اللذة التي تحمل الأنواع الحيوانية على التزاوج والتناسل ، فهو عنده بمنزلة بقاء النوع عند علماء التاريخ الطبيعي ، وقد ألهه في كتاباته ؛ فهو في نظره أقدم الآلهة .

لما ولد هذا الاله لم يكن في العالم اثر من آثار العدل والعقل فلم يجد هذا الاله التعس شيئاً يخلق به دماغاً وعيوناً وآذاناً . ولد أعمى فهو الآن على الصورة التي ولد عليها وسيبقى على هذا الشكل في كل دهر ، يعمل فيخبط في اعماله خبطاً دون شيء من الروية ، الق نظرة على اعماله انها عظيمة ! لقد خلق كل شيء ولكنه خلق بغير عقل ولا فهم ، لقد برأ في اول الامر . حيوانات لله درها من حيوانات ! انه خلق أصدافاً وأسماكاً وزواحف ، وقد كان هذا الاله يومئذ يعيش في الماء ثم حسن على سبيل الاتفاق والتدريج طرائقه فخلق الحيوانات اللبونة ، التي أتعبته وأجهدته ثم خلق القردة فبقيت القردة زمناً طويلاً آياته الرائعة ، وقد خلق الانسان بعد القردة فلم يغير هذا الاله من طبيعته ، ولم يبدل من طريقته ، فبقي اعمى كما كان ولم يستعن بالعقل ولن يستعين به مجيء الليالي وهو محق في ذلك لان الحياة سرعان ما تنتهي اذا كانت نشرها معقوداً بالعقل .

ان هذا الاله اعمى ولكنه يقودنا والشر كل الشر في ذلك ولكنه شر ابدي ؛ لان الحب يدوم ما دامت العوالم ، اننا نقاومه ونستولي عليه اذا كان اضعف منا ،

ولكنه اذا اشتد استولى علينا وهذا ما يسمونه : منازعة الهوى ومثل الارادة والغريزة كمثل كفتي ميزان فالكفة الثقيلة هي التي ترجح وتميل .

هذا هو الحب في نظر اناتول فرانس فقد كان سبب حياة الحيوانات من أدناها الى ارقاها ، وهو غريزي في البشر من مبدإ الخليقة الى منتهاها . وهذا ماحمل اناتول على الرأفة بالفاجرة التي خرجت عن العفاف لانها لم تخرج عنه الا بعوامل غريزية متمكنة من لحمها ودمها وأعصابها فلا سبيل لها الى التخلص منها . . .

قلت في صدر المحاضرة كان بين اناتول وبين ابيه اختلاف في المعتقد وقد امتد هذا الاختلاف الى الذوق فقد كان اناتول يميل الى النمط المدرسي ، ما هو النمط المدرسي ؟ بعد ان همدت شآبيب الثورة الفرنسية ولمعت عوارضها انفجرت ثورة أدبية خلقية قلبت طرائق التفكير والحس واسمها النمط الوجداني بدأ بها مدام ستال وشاتو بريان وتجسمت في اربعة شعراء كبار وهم : لامارتين وموسه وفيني وهوغو كان المدرسيون أمثال الشاعرين بوالو وراسين يرون ان يمثلوا في فنهم جمال الحياة ويعتبرون العقل في الشعر الملكة الغالبة ويقتبسون عن التاريخ القديم نماذج فنهم و يستنزلون وحيهم من سماء الامم المتقدمة فخرج الوجدانيون على هذه القواعد بحذافيرها وهدموا بناء المدرسيين ، فرأوا ان يمثلوا في فنهم كل ما هو شنيع ومضحك في الحياة ، وان يكون الخيال الملكة الغالبة ، وان يستنزلوا وحيهم من ادب الامم العصرية فيأخذوا عن غيتي وشلر و بايرون وشكسبير ، فبدلاً من ان يكتبوا عن اساطير الاولين كتبوا عن الفن النصراني في القرون الوسطى .

فاناتول فرانس كان يميل الى الفن المدرسي اي انه كان على النمط القديم ، وله في النقد أسلوب خاص فهو من فرقة النقد الذاتي فانه يغتنم فرصة ظهور كتاب من الكتب فيفصح عن خوالج نفسه ، ويعرب عن رأي يخامر ضميره وقد جمع رسائل نقده في اربعة كتب سماها « الحياة الادبية » تكاد هذه الكتب تكون مملة . يرى اناتول ان النقد انما هو ضرب من الروايات على نحو الفلسفة والتاريخ تستعمله العقول الفطنة الطلعة وكل رواية اذا فهمناها كل الفهم انما هي ترجمة المؤلف بقلمه ، فالناقد الحاذق هو الذي يروي خوالج نفسه في اثناء روائع المؤلفات وهذا الطراز في النقد يسمى النقدالذاتي ،

قال اناتول : « لا يوجد نقد موضوعي أكثر مما يوجد فن موضوعي ، وكل الذين يتبجحون بانهم يضعون في مؤلفاتهم شيئاً غير لواعج انفسهم فهم واهمون ، فالحقيقة ان المرء لا يخرج من نفسه ابداً وهذا من أكبر شقاء الانسانية .

اننا محبوسون في أنفسنا فكأننا في حبس ابدي ، فالذي يليق بنا ان نعمله هو ان نعترف بحالتنا الفظيعة ونقر بأننا نتكلم عن انفسنا كل ما عجزنا عن السكوت فاذا كان الناقد حراً وجب عليه ان يقول :

« سادتي اني اريد ان اتكلم عني في اثناء كلامي عن شكسبير او راسين او باسكال او غيتي فان في ذلك فرصة جميلة » .

قال اناتول تعرفت الى المسيو كوفيليه فلوري وقد كان ناقداً قديماً ، وفي ذات يوم انطلقت نحوه وهو في داره الصغيرة فأراني مكتبته الحقيرة التي كان يفتخر بها وقال :

« سيدي انك لتجد كل الأنواع ممثلة في هذه المكتبة كالبلاغة والآداب الرفيعة والفلسفة والتاريخ ما خلا النقد فانه يحيط بكل الانواع ، نعم يا سيدي فالناقد يكون تارة خطيباً ، وتارة فيلسوفاً ، وتارة مؤرخاً » . لقد أصاب المسيو كوفيليه فلوري في كلامه فالناقد يجمع كل هذه الصفات او انه قد يمكنه جمعها فاذا أراد ان يبرز اندر القوى العقلية واشدها تنوعاً واختلافاً امكنته مناهز الفرص ، وهو يعمل تاريخ البشر العقلي من دون ان يخرج من نفسه ، فالنقد من حيث التاريخ هو آخر صيغة من الصيغ الادبية كلها وربما وصل الى استغراق هذه الصيغ كلها فانه يليق كل اللياقة بالجماعة المدنة التي تكون ذكرها كثيرة وتقاليدها طويلة وعلى الخصوص فانه مناسب للجماعات الطامة ، المتعلمة ، المصقولة ، وتقدم النقد يستلزم ثقافة اكثر مما تستلزمه كل الصيغ الادبية الباقية . ابتدع النقد مونتان وباتنوف وبيل ومونتسكيو فانه يتحدر من الفلسفة والتاريخ وقد استوجب انتشاره وترقيه جيلاً اطلقت فيه الحرية العقلية » .

هذا هو نظر اناتول فرانس في النقد وقد كان نقده اشبه شيء باحاديث يطارحها اهله وخلطاءه وكان يسير فيه سير المتنزه . فيقف حيث يطيب له الوقوف و يسترسل الى اذواقه وخيالاته على شرط ان يكون في هذا كله صادقاً ، اميناً ، رؤوفاً فلا يريد

ان يعرف كل شيء ولا يشاء ان يفسر كل شيء و يعتقد باختلاف الآراء وتباين العواطف و يتكلم عما يجب ان يحب ·

شغف اناتول فرانس بالنمط القديم شغفاً عظيماً ، فانظر الى رأيه في هوغو وهو من اكابر الشعراء المجددين ·

« لا جرم ان علاج هوغو للكلمات كان اكثر من علاجه للافكار فقد ظهر انه أدمج في أسمى الفلسفات طائفة من الخيالات والاحلام منقطعة مبتذلة ، والذي يؤلمنا ويفزعنا اننا لا نرى في تآليفه الكبيرة بين الكثير من اشخاصه الفظيعة صورة بشرية · قال الاغريق : الرجل مقياس كل شيء الا ان فيكتور هوغو جاوز كل قياس لانه غير انساني ولم ينكشف له قط سر النفوس · لم يخلق هوغو ليفهم وليحب ، وقد شعر بذلك من غريزته ولهذا فقد أراد ان يدهش الناس وقدر على ذلك حيناً من الدهر طويلاً ، ولكن هل يستطيع المرء ان يدهش غيره في كل وقت · عاش فيكتور هوغو ثملاً تسكره الالوان ورنات الاصوات وقد أسكر العالم بذلك · هذه هي عبقريته كلها انه ذو افكار غريبة وانه متفنن منقطع النظر وهذا شيء كثير ولكنه ليس بكل شيء » ·

هذا هو رأي اناتول في هوغو فان اناتول شغف بلغته القديمة ، ذاهب في الحرص عليها كل مذهب ، ولع بمفردات اللغة لانه يرى في هذه اللغة صورة وطنه وقومه من قديم الدهر وحديثه ، ومرآة تنعكس فيها حضارة أمته ، فاللغة ملكت عليه عقله ولبه فهو يحب معجمات اللغة لانها تحتوي على شيء جميل فخم فقد قال :

« انظر الى معجم غازيه او غيره من المعجمات ، وتصور انك ترى روح وطننا في هذا المعجم ليتصور ذهنك ان في هذه الصفحات عبقرية فرنسة وطبيعتها · ليتصور ذهنك ان فيها أفكارنا وأفكار اجدادنا ، وأفراحنا وأفراحهم ، وأعمالنا وأعمالهم ، وآلامنا وآلامهم · ليخطر ببالك ان في هذا المعجم آثار الحياة العامة وحياة الدور والمنازل ، وآثار الذين استنشقوا الهواء الصالح وشموا النسيم الرقيق الذي نشمه اليوم · ليخطر ببالك ان كل كلمة من كلمات المعجم يقابلها فكر من الافكار كان فكر طائفة من البشر لا يعلم عديدهم ، وعاطفة من العواطف كانت عاطفة جمهور من الناس لا يحصى مقدارهم ، ليهجس في صدرك ان كل هذه الكلمات المجموعة انما هي لحم الوطن والبشرية ودمهما وروحهما » ·

بحث اناتول فرانس في كتابه «العبقرية اللاتينية» عن لغة الشاعر لافونتين فقال :

كان لافونتين يولع بالكلمات و يعرف كيف ينتخبها ، ولا يكون المرء كاتباً الا اذا حسن اختياره للالفاظ . فالكلمات هي افكار ، ولا سبيل الى الإصابة في الحكم الا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة . واظن ان الشعب الاول في العالم انما هو الشعب الذي يملك احسن الاصول في النحو وتنسيق اللفظ . قد يقع في أغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتفاهموا . ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يفي بحاجة كل شيء .

اني لاجد عناء في بيان المآخذ التي أخذ عنها لافونتين أسلوبه ، لقد اخذ عن المتقدمين من الشعراء والقصاص ، يحب لافونتين العبارات القديمة فاذا وقع نظره على كلمة قديمة جزلة المعنى استخرجها من موضعها واستعملها في شعره في المقام المناسب . وقد استعمل ايضاً في أشعاره عدداً كبيراً من التعابير التي استعملت في عصر غير عصره ، ولكنه اعاد الى هذه التعابير شبابها .

فلا ينبغي لنا ان نضيع شيئاً مما يمكن ان ينفعنا ، وهذه حكمة اقتصادية تنطبق على كل الخيرات ، فهي تنطبق على خيرات اللغة كما تنطبق على غيرها فاذا أضاعت كلمة طيبة الأصل معناها الاول واصبحت لا تستعمل الا في معناها الخاص او في معناها المحرف ، فجدير بالكاتب الحكيم ان يعيد الى هذه الكلمة سعة معناها الاول وفسحته وعلى هذا مشى راسين ولافونتين . ثم قال :

يتبين لنا ان لافونتين الذي استعمل هذه الكلمات كلها لم يخترع شيئاً منها وليعلم الانسان ان حذاق الكتاب هم في الأعم من الأحوال قليلو الميل الى توليد الألفاظ ، فان كنز اللغة المشترك كاف وهذا الكنز لا ينقب فيه الذين يكتبون على السواء ، فكثير منهم لا يجدون فيه ما يحتاجون اليه اما لكسلهم واما لفقدان عبقر يتهم . اما لافونتين فقد استخرج منه كنوزاً .

وبعد ان اشبع اناتول الكلام في لغة لافونتين قال :

« اتمنى لو ان آرائي هذه تقوي في بعض العقول محبة لغتنا ، لقد تغيرت هذه اللغة مرات كثيرة ، ولكن لم تتغير الا محاسنها . لقد قوي امرها ، وانبسط أفقها

واغناها كل نشء من عنده بكلمات تدل على افكار وعواطف وافراح وآلام وعلى مجهود ملايين من الناس ، لقد جاءت الينا على هذا النحو مترعة الجوانب من قرن الى قرن ، وهذا الميراث الوطني عزيز على كل النفوس التي تحب وطنها ٠

* * *

هذا بعض ما تمثله الخاطر وتصوره البال من آيات اناتول فرانس ، وما ذكرته انما هو غيض من فيض ٠ ولئن فاتني كثير من صوب عقله ، ونسج طبعه ٠ فلا يفوتني حفظه لغة قومه في القرن العشرين ، ودعوته شباب وطنه الى محبة لغتهم ٠ فقد ملكت عليه لغته مشاعره ، احسن اليها ولم يسيء ، ورعاها ولم يعق ، واشفق عليها ولم يك جباراً عنيداً ، ولم ير فيها رأي طائفة من أدبائنا في هذا العصر رغبوا عن لغتنا القديمة كل مرغب ، وانقبضوا عنها كل منقبض على انه ما ادخرت الآباء للابناء ، ولا أبقت الموتى للاحياء شيئاً افضل من هذه اللغة ٠ ولئن عدت الايام بعديد ملكنا فانها عجزت عن العبث بميراثنا الوطني وهو اللغة ٠ صارعت لغتنا لغات شتى تعاقبت في آفاق الشام من قديم الدهر (١) فصرعت هذه اللغات بجذافيرها ، بعد ان سلبت حضارات اهلها اجمل جمالها واحسن حسنها وتمكنت في ربوع الشام وكثير من بقاع الارض تمكن الاحياء الذين صارعتهم الطبيعة ٠ وصارعوها ومارستهم ومارسوها فعجزت عنهم فتركتهم وشأنهم يستضيئون بضيائها ويستنشقون من نسيمها ، اشتملت لغتنا على بداوة الجاهلية وحضارة الاسلام ٠ واستوعبت شدة بني أمية ورخاوة بني العباس ٠ ولئن درست رسومنا وطمست آثارنا فأضعنا ما أضعنا فقد بقي لنا رسم حفظ لنا ما قذفت به الخواطر وجاشت به الصدور ٠ فرحم الله امرأ تعهد هذا الرسم وتفقده ، فزاد في محاسنه ونقص من متاعبه !

---

(١) ألق نظرة على الجزء الاول من خطط الشام للاستاذ العلاّمة رئيس مجمعنا العلمي ، وتدبر فيه فصل « لغات الشام » البارع

قانون البلاغة

— ٤ —

قال الاصمعي : البليغ من طبق المفصل ، وأغناك عن المفسر . وقيل للعتابي : ما البلاغة فقال : كل من أفهمك حاجته من غير إعادة ، ولا حبسة ولا استعانة فهو بليغ . فان أردت اللسان الذي يروق الألسنة ، ويفوت كل خطيب ، فاظهار ماغمض من الامر ، وتصوير الباطل في صورة الحق . واعلم أسعدك الله انه لا يتسع جريك في مضمار البلاغة ، وان كانت القريحة في نهاية الذكاء والثقافة ، الا بالاتساع في دراسة العلوم ، والافتنان في الآداب ، وحفظ مجامع اللغة ، والنظر في احكام الكتاب والسنة ، للتفقه في لحن المنطق والتفسح في معرفة الألفاظ ، فلا تبدع في بداهة بل تجول (في خطاب (كذا) او كتاب ابتداء وجوابا عزوب لفظ من اللغة ، او استعجام غريب من القول عليك ، فيكتنفك من الحصر ما اكتنف) عمرو بن مسعدة عند محادلة الحائك إياه : فانه حكى يوسف بن حماد قال : سمعت عمرو بن مسعدة[1] يقول : كنت مع المعتصم مقدمه من الثغر فلما بلغنا الرقة قال لي : يا عمرو الا تعجب من داود بن سليمان الرجحي[2] بالاهواز وفي بيت المال ونيله الدنيا : عنده اموال مجتمعة وقد كتب الي باشياء لا يعذر مثله في مثلها فاخرج اليه حتى تحمله في الحديد وتنقل ما قبله من المال فخرجت فبينما انا اسير بين دير هرقل

(١) في الامامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ان هذه القصة وقعت للرشيد مع وزيره عمرو بن مسعدة (راجع ص ١٥٦ من الجزء الثاني طبعة محمد مصطفى فهمي المصرية) وفي العقد لابن عبد ربه انها وقعت للمعتصم مع عمرو بن مسعدة وهو غير صحيح لان عمراً هذا توفي سنة ٢١٧ . وفي هامش النسخة الاصلية هكذا : طبقات الكتاب المشاهير عبدالحميد وابن العميد واحمد بن يوسف واسماعيل بن صبيح وعمرو بن مسعدة . (٢) قوله الا تعجب الى آخره مكان هذه العبارة من كتاب الامامة والسياسة ما نصه : ما زلت تكلمني وتستلطفني في الرجحي حتى وليته الأهواز فقعد في سرة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً ولم يوجه الينا درهماً ، فاخرج اليه الخ .

ودير العاقول في وقت الهاجرة في زلال [1] فيه خيش وثلج ، سمعت صائحاً ينادي يا ملاح صوتاً بعد صوت فلما كثر ذلك عليَّ رفعت سجف الزلال ، فاذا انا بشيخ حاسر الرأس حافي الرّجل على الشط فحملته فلما دعوت بالطعام دعوته فأكل أكل متأدب ، فلما رفع الطعام قدّرت انه يقوم كما يقوم العامة من موائد الخاصة ، فلم يفعل فاستحمقته فقلت : ما صناعتك فقال : حائك أعزك الله . ثم قال : وانت اي شيء تعمل جعلت فداك قلت : كاتب فقال : اصلحك الله من اي الكتاب انت فانهم خمسة أصناف . قال عمرو فوردت عليَّ منه طامة ثم قلت له : ميّزهم فقال : كاتب خراج ، وكاتب رسائل ، وكاتب حاكم ، وكاتب جند ، وكاتب معونة .

اما كاتب الخراج فيحتاج الى ان يكون عالماً بالطسوق [2] والمساحة والمقايسات خبيراً بالحساب . اما كاتب الرسائل فان يكون عارفاً بالاصول والفروع ، والفصول والوصول ، حاذقاً بالاعجاز والصدور ، والفتوح والعهود . واما كاتب الحاكم فان يكون عالماً بالاحكام حافظاً للشروط حاذقاً باختلاف الناس ، في الاموال والفروج . واما كاتب الجند فان يكون عالماً بشيات الخيل وحلى الرجال . واما كاتب المعونة اي الشرطة فان يكون عالماً بالقصاص والجراحات والحدود .

فقلت له : فاني كاتب رسائل . فقال لي : أخ من إخوانك واجب الحق عليك ، تزوجت امه كيف تهنؤه ، ففكرت ساعة ولم يتجه لي شيء فقلت : لا أكاتبه لانه بالمصاب أشبه فقال : فعزه إذن ، ففكرت ساعة فلم يجئني فيه شيء فقلت له : اقلني من هذا الفن فاني كاتب خراج قال : فان سلطانك بعثك على ناحية ، ونقدّم اليك بالعدل والانصاف ، وامرك ان لا تدع شيئاً من حق السلطان بضيم ، وحذرك ان تشكي ، فأخرجت عمالك ، ونقدمت اليهم بالعدل ، وحذرتهم ان يُشكوا ، فقدم

---

(١) الزلال كغراب ضرب من السفن التي تسير في دجلة كالحراقة والطيار .

(٢) الطسق ما يوضع من الوظيفة على الجربان من الخراج المقرر على الارض وكتب عمر الى عثمان : ارفع الجزية عن رؤوسها وخذ الطسق من ارضيها . وقيل شبه الخراج له مقدار معلوم .

عليك اهل الناحية يشكون عمالك ، فأشخصتهم وسألتهم عن ذلك ، فحلفوا بالله لقد انصفوهم ولقد خشوا ان يكونوا جانوا [١] على السلطان فخرجت الى العمل بنفسك ناظراً ، فوقفوا بك على قراح [٢] لا ان تمسحه كيف تمسحه ففكرت ساعة وتجاسرت في الجواب ثم قلت : آخذ وسطه ثم آخذ طوله فاضربه فيه ، فقال : تختلف عليك المطوف ؛ قلت : آخذ طوله وعرضه من ثلاثة مواضع فقال : ان طرفيه محددان ، وفي تحديدهما تقويس . ففكرت ساعة فاعياني الجواب فيه ، ولم يتجه لي فيه شيء فقلت له اقلني من هذا الفن فاني كاتب قاض . فقال : ان رجلاً أحبل حرة له وسرية فولدتا في ليلة واحدة ، فولدت الحرة جارية ، والسرية غلاماً ، فحملت الحرة الغيرة الى ان حولت الابن الى مهدها والبنت الى مهد السرية ، فتحاكمتا اليك ، ما كنت تقضي بينهما فقلت لا علم لي بذلك انا كاتب جند قال : فان رجلين تقدما اليك من اهل عسكر واحد سمهما واحد . ذا اسمه احمد وذا احمد . هذا مشقوق الشفة العليا وهذا مشقوق الشفة السفلي كيف تحليهما قلت أكتب لما احمد الاعلم واحمد الاعلم . قال : اذاً يأخذ ذا رزق ذا ، وذا رزق ذا ، فتقع بينهما في حيرة ، فتفكرت ساعة فلم يتجه لي فيه شيء . فقلت : لا علم لي بذلك انا كاتب شرطة [٣] قال : فان رجلان تقدما اليك احدهما قد شج موضحة فوثب عليه المشجوج فشجه مأمومة ، كم تجعل بينهما من الابل قلت : لا ادري فقال : فلست كاتب شرطة ، فقلت فسّر لي ما قلت قال حباً وكرامة . اما الرجل الذي تزوجت امه ، فالوجه ان تكتب اليه ان الاقدار تجري بغير محاب المخلوقين ، والموت في عافية خير من شائبة في الملك ، والله يختار للعبد فخار الله لك في قبضها اليه فان القبور (أكرم) الاكفاء . واما القراح فتمسح اعوجاجه كم يكون قصبة ، ثم تضرب بعضه في بعض ، فاذا استوى في يدك عقد تعرفه ، رجعت الى المستوي فيه فضربته فيه . واما الحرة والسرية فانه يوزن لبنهما فمن كانت أخف لبناً فالابن [٤] لها

(١) لعل صوابه جنفوا على السلطان اي جاروا . (٢) القراح الارض لاماء فيها ولا شجر وقيل المخلصة للزرع والغرس جمعه اقرحة . (٣) قوله كاتب شرطة في هامش الاصل اي ديوان المظالم والشحن وسمي ديوان المعونة ايضاً كما تقدم ذكره . (٤) كذا في الاصل والظاهر فالبنت لها وهكذا في العقد والامامة والسياسة .

واما الجند فيكتب احمد الأعلم مشقوق الشفة العليا واحمد الألفح مشقوق الشفة السفلى ·
واما الشجة ففي المأمومة ثلاث وثلاثون من الابل وثلث وفي الموضحة خمس من الابل فيرد عليه ثمانية وعشرين وثلثاً قلت : الست زعمت انك حائك قال : نعم ولكن أحوك الكلام واذا رجل قد أدبه الزمان ، وأحكمه العلم ·

والمعاني اسعدك الله لُمع ، والألفاظ مشتركة ، فمن سبق الى معنىً ثم جاء بعده من يتعاطاه ، فان أخذه بلفظه كما هو كان سارقاً ، وان أخذه ببعض لفظه كان سالخاً ، وان اخذه وكساه من عنده كان هو اولى به من الاول ·

ويقال ان ابا عُذرة الكلام من سبك لفظاً على معنى ، لا من اخذ معنىً بلفظ ، وقلما تجد شعر شاعر ، اورسالة كاتب ، اوخطبة خاطب ، الا وجدت فيه معنىً مسبوقاً اليه ولفظاً مشهوراً قبله - وقد قال ابو تمام يصف ذلك :

يقول من يقرع أسماعه كم ترك الأول للآخر

فمن ذلك ان اسماعيل بن صبيح كتب الى بعض الامراء : في شكر ما تقدم من إحسانك ، شاغل عن استنباط ما تأخر منه · فأخذ هذا المعنى احمد بن يوسف فقال في بعض كتبه : أحق من أثبت لك العُذر في حال شغلك ، من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك · ثم اخذه سعيد بن حميد فقال : لست مستقبلاً لشكر ما مضى من اياديك[1] ، فأستبطيء درك ما أؤمل من مزيدك · ثم أخذه حمد بن مهران فقال : لأن تعذرت حاجتي قبلك ، لطالما تيسر لي امثالها عندك ، ولست اجمع الى العجز عن شكر ما أمكن ، التسرع الى الاستبطاء فيما تعذر · وسلك الى الطريقة ابو نواس فقال :

لا تحدثنّ اليّ عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقول ابي نواس اربى على جميع ما تقدم في اخذ هذا المعنى · وسلك هذا الطريق من جهة أخرى الضرير فقال : وفد اليّ انك أصبت بشيء من مالك ، لو لم تصب به لأسرعت النوائب اليه ، واتى كرمك عليه ·

وكما انه مطلق لمن لطف في اخذ المعنى فكذلك هو محظور على من لم يكن فيه آلة

(١) خ بلائك ·

الآخذ ان يطور به [1] لان الحاذق والبارع يخفي دبيبه الى الشيء حتى يستخرجه ، والمتخلف البليد يظهر تسوره على الامر اذا أراده .

اللسان هو ترجمان القلب ، وأداة يدرك بها التأليف ، ويلتمس بها التقطيع ، وبه يظهر ما يجنّه الفكر . وقيل في المثل المرء مخبوءٌ تحت لسانه . و يقال : ان روح الحياة اذا كان ظاهراً كان جمالاً ، واذا كان باطناً كان لساناً . وقال علي بن عبيدة : الالسنة [2] القلوب يؤدي عن ضمائرها المنطق بالفاظ شرايع [3] ما استنبطه من الحكمة واللسان كاشف لما يخفيه الاغماض .

وفي كتاب الموسيقى ان الانسان حاس ، والعقل لطيف ، وليس لفكرة العاقل غاية يدركها اللسان . ومع هذا فان اللسان ترجمان ، وليس للترجمان ان يبلغ منزلة المترجم . وقيل اللسان عضو فان مرنته مرَن . وان تركته حرَن . وللسان فضائل معلومة في الجوارح ، ودرجة عالية على درجاتها ، لما خصه الله به من استعماله في المنطق والبيان .

قال عمرو بن بحر : في اللسان خصالٌ هو أداةٌ يظهر بها البيان ، وشاهد يعبر عن الضمير ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الاشياء ، وناطق [4] يفصل الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وواعظ ينهي عن القبيح ، ومُعزٍّ تبرد به الاحزان ، ومعتذر يذهب بالضغينة ، وملهٍ يونق الاسماع ، وزارع يحرز المودّة ، وحاصد يستأصل العداوة ، وشاكر يستوجب المزيد ، ومازح تستحق به الزلفة ، ومؤنس يذهب بالوحشة ومزين يدعو الى الحسنى .

الصوت هو آلة اللفظ ، والذي به يبلغ السامع ما يدركه الفكر .

الفكر هو مستنبط الحكمة ومستثار الصوت ، ومستوضح غوامض الأدلة ، وكاشف ضباب الغفلة عن الافئدة .

البيان هو اسم لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك حجب الضمير ، وابدى مكنونه .

(١) يقال انا لا اطور بفلان اي لا احوم حوله ولا ادنو منه . (٢) لعله سقط هنا لفظ «بريد» او «ترجمان» او ما ماثلهما . (٣) لعلها شرائف او شريفة . (٤) لعل صوابه قاض .

المعاني هي الحادثة بالذكر ، المتصورة للعقل ، الجائلة في الفكر . وهي بعيدة وحشية ؛ معدومة في حال ، موجودة في أخرى ، ممتدة الى غير غاية ، ومبسوطة الى غير نهاية .

البلاغة هي ان يبلغ السامع أقصى نهاية المعنى الخاطر بقلبك ، فتصوره لك كتصوره عندك ، بالابانة عنه والافصاح به .

وقيل : الفصاحة لمحة دالة . وقال بعضهم : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد من حشو الكلام ودنوّ المأخذ ، وايجاز في صواب ، وقصد الى الحجة ، وحسن الاستعارة .

وقال آخر : البلاغة ان يعرف الفصل من الوصل[1] . وقال ثمامة بن الاشرس : قلت لجعفر بن يحيى ماالبلاغة فقال : ان تكون تحيط بمعناك . وتحكي عن مغزاك . وتخرجه من الشركة . ولا يستعين السامع عليه بطول الفكرة . ويكون سليماً من التكلف . بريئاً من الصنعة . بعيداً من التقعير . غنياً عن التأويل .

وقال الحجاج لابن القرية : ماالحرف وماالكلمة وما الكلام . فقال : الحرف فرد والكلمة جماعة . والكلام على عشرة أبواب : سبعة فواتح وثلاثة جوامع . فالفواتح جرأة الصدر ، وفقدان الحصر ، واتساق القول وبيان الكلام ، وقلة التنحنح ، والقول متى شاء ، والوقوف اذا شاء . والجوامع ان يشبه اول قوله آخره ، ويختار حسن اللفظ و يعرف قصة(؟) الكية . وقال معوية : البلاغة كلام يتحدر على الطبع كما تتحدر الماء على الكبد الحرّى . لا يحمل الطبع فيه على غير مذهبه . فيظهر فيه نقيصة التكلف وعيب التخلق . وقال قائل : عيوب المنطق صنفان صنف مذموم وصنف خلقية[2] لا سبيل الى الانتقال عنها . والمذمومات توجب الذم اذا كان الاقلاع عنها الى غيرها ممكناً . والخلقية كاللثغة واللفلفة[3] والرتة والحبسة والحكلة والفأفأة والجلجة والتمتمة .

(١) وفي هامش الاصل وقال ابو تمام : حد البلاغة معرفة مواقع الفصل والوصل .

(٢) اي من قبيل العيوب الخلقية . (٣) اللفلفة العيّ و(الرتة) بالضم والتشديد ردة قبيحة في اللسان وقيل هي العجمة في الكلام كالحكلة . والفأفأة هي صفة الفأفاء وهو الذي لا يقدر على إخراج الكلمة من لسانه الا بجهد يبتدئ في اول إخراجه بشبه الفاء ثم يؤدي بعد بالجهد حروف الكلمة على الصحة هكذا فسرها المطرزي .

ومن فساد المنطق فساد مخارج الصوت مثل اللجة وعدم اعتدال المخارج من الحلق والخياشيم والصدر فاللثغة تكون في الراء تنقلب الى الغين اوالياء اوالدال واللفلفة ان ان لا يخرج الكلام الا بشق الأنفس والرتة والحبسة واحد والحكلة كاللجة حتى كأنه يسرّ كلامه والفأفأة التردد في الفاء والتمتمة التردد في التاء ·

وقال عمرو بن بحر : من عيوب المنطق التصحيف وسوء التأويل والخطأ في الترجمة فالتصحيف يكون من وجوه : احدها من التخفيف والتثقيل ، ومن قبل الإعراب ومن تشابه صور الحروف · وسوء التأويل يكون من الاسماء المتواطئة وهو انك تجد اسمًا بمعان فتأوّل بغير المراد ، وكذلك سوء الترجمة · غير ان الكلام المحتمل على المعاني يكون بالفارسية المنقولة الى غيرها · وقال العتابي : الاستعانة من فساد الكلام · فسئل عن التأويل فقال : اذا قال عند مقطع قوله ياهناة ، واسمع مني ، وافهم عني ، وما أشبه ذلك كله عيّ[1] ·

ومن لمع صناعة الشعر للاردستاني[2] وهو محمد بن احمد قال : وكانت العرب انما تفاضل بين الشعر لشرف المعنى ، وجزالة اللفظ ، وصحة المبنى ، فتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وألطف ، وشبّه فسدّد ، وان كثرت له سوائر الأمثال ، وشوارد الأبيات ، ولم يكن يهتم بتتبع البديع اذا حصل له عمود الشعر ، ونظام القريض ، على انه قد كان منهم من يتعمد لتنقيح شعره ، ويتعمل لتحسين ألفاظه وتشذيبها ، وترصين مبانيه ومعانيه وتهذيبها ، مثل زهير والاعشى والحطيئة وابي صخر الهذلي وعديّ بن

---

(١) في الهامش هذه العبارة : وقيل فتل الأصابع والنكت على الارض هو ايضًا من العيّ · (٢) هوغير كتاب معاني الشعر للاشناندني وفي دار الكتب العربية بدمشق نسخة مخطوطة من هذا الكتاب وقد أورد صاحب كشف الظنون اسم كتابين باسم « صناعة الشعر » احدهما للحسين بن محمد الرافعي المعروف بالخالع المتوفى بعد ثمانين وثلاثمائة والآخر لابي سعيد حسن بن عبد الله السيرافي النحوي المتوفى سنة ٣٦٨ · وقد طبع كتاب الاشناندني مؤخرًا في دمشق (١٣٤٠) والاردستاني نسبة لاردستان مدينة بين قاشان واصبهان في فارس ·

الرقاع وابي المثلم والخنساء وغيرهم · فان اثر الصنعة ظاهر في اشعار هذه الطبقة ، ودالٌ على مقاصدهم فيها ، وشاهد بمعرفتهم بها ، و يدل على ذلك افتخارهم في اشعارهم بالتجويد · ووصفهم لمصابرة القول ومكابدة السهر فيه والتخير منه · والصبر على عرضه وعمله حولاً · حتى قالوا : خير الشعر الحوليّ المنقّح · يروى ذلك عن الحطيئة فقالوا : حوليّات زهير · وقد ذكرت الشعراء ذلك في مفاخرهم فقال سويد بن كراع يذكر تقويمه شعره وطول مصابرته له :

ابيت بابواب القوافي كأنما اصادي[1] بها سرباً من الوحش نزعا
أكالبها[2] حتى اعرّس بعدما يكون سحيراً او بعيداً فأهجعا
اذا خفت ان تروى عليّ رددتها وراء التراقي خشية ان تطلّعا

فاخبر ان القوافي تمتاص عليه وانه يكالبها و يكابدها و يسهر لها الى ان تنقاد له · وقال حارثة بن بدر :

قبح الالّه الإلف الا ماضى والشعرّ بعد مرقش ومهلهل
وابي دؤاد او عبيد كلما نطقوا أصابوا فيه فصّ المفصل

فمدحهم بالاصابة والتجويد · وقال عديّ بن الرقاع :

وقصيدة قد بتّ أجمع بينها حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

فأخبر انه يعاود النظر و يكرره حتى يثقفه · وقال عمرو[3] بن هند :

فان اهلك فقد ابقيت بعدي قوافيَ تعجب المتمثلينا
لذيذات المقاطع محكمات لو ان الشعر يلبس لارتدينا

(للبحث صلة)

---

(١) صاداه عارضه يقال (من صاداك فقد صادك) · (٢) كالبه ضايقه مضايقة الكلاب بعضها بعضاً عند المهارشة · (٣) في الاصل (عمرو بن) فجاء بعض النساخ وزاد كلمة (هند) ·

كتابات تدمرية وتفسيرها

يوجد في دار الآثار العربية بدمشق مجموعة نفيسة من العاديات التدمرية ، معظمها تماثيل قبورية وعلى اكثرها كتابة موجزة باحرف تدمرية ، تشير الى اسم المتوفى ونسبه وفي بعض الاحيان الى تاريخ وفاته ، شأن معظم الكتابات القبرية المكتشفة في اطلال تدمر . وهذه التماثيل هي غاية في الإتقان ، ولها فائدة أثرية ولكتابتها شأن خصوصاً في علم الخطوط وتطوراتها .

سأنشر رُقُم [1] هذه التماثيل تباعاً في مجلة المجمع العلمي العربي مع صورها وتفسير كتاباتها ليتسنى للذين يهمهم هذا البحث الاطلاع على هذه المجموعة ، واذ كان بعض هذه التماثيل قد ملكه قبلنا أناس آخرون فنحن بالطبع لا ندري اذا كان سبق لغيرنا وكتب شيئاً عن الكتابات التي عليها لعدم وجود المراجع الكافية لدي اللهم الا القليل منها الذي نشره علماء الآثار ومنهم من أخطأ بقراءة بعض الاسماء لعدم حصولهم على النسخة الاصلية ، او لغلط في النقل ، او لعدم وضوح الرقيم . ولذا سأعيد نشرها مع الاشارة الى ذلك .

« الكتابة الاولى »

تمثال نصفي لامرأة تدمرية (شكل ١) كتب على يسارها العبارة الآتية :

١	הדירת	هديرة (بنت)
٢	אחא ברת	اخا ، بنت
٣	בולחא	بولحا ،
٤	בר ברעא	بن برعا ،
٥	בר זבדעתה	بن زبدعته
٦	חבל	واأسفاه !
٧	בירח	بشهر

(١) الرُقُم جمع رقيم وأصبح يراد به كل كتابة أثرية محفورة او منقوشة على صخر (Inscriptions) .

شكل (١)

شكل (٣)

٨	נִיסָן	نيسان
٩	שנת	سنة
١٠ / ١١	٤٨٠	٤٨٠

من السهل قراءة هذه الكتابة لانها واضحة جلية ، وان كان قسم منها غير ظاهر في الرسم ولكنه محقق في الاصل . وجميع اعلامها معروفة وشائعة الاستعمال في الكتابات التدمرية وليس فيها لفظ غريب .

س (١) הדירת (هديرة) علم مؤنث اتى ذكره في بعض كتابات ضريح (إآه بل) المعروف اليوم بقصر العروس في تدمر (Chabot. Choix d' Inscriptions palmyreniennes) وقد أغفل النحات كلمة (بنت) بعد هذا العلم حسبما أشرنا واحياناً يستغنى عن هذه اللفظة في مثل هذه الكتابات وتذكر الانساب بدونها .

س (٢) אחא (اخا) علم مؤنث معروف - Chabot - Notes d' Epigraphie et d' Archéologie orientale No 16)

س (٣،٤،٥) בולהא (بولحا) و ברעא (برعا) و זבדעתה (زبدعته) جميعها اعلام مذكرة وقد جاء ذكر الثاني منها في بعض الكتابات التي نشرت في (Melanges de la Faculté Orientale pp.170 et 171.— Revue bibli ques 1897 P. 594)

والثالث نشر في (Chabot-Choix d' Inscrip. palmyr. p. 66)

واما كلمة السطر السادس חבל (خبل) فقلما تخلو منها كتابة قبرية تدمرية وهي لفظة تفيد التحسر على الفقيد وتعريبها (وأأسفاه) !

ومما يزيد في شأن هذه الكتابة انها مؤرخة بما يفيد وقت الوفاة وهو شهر نيسان سنة ٤٨٠ سلوقية [1] الموافقة لسنة ١٦٩ ميلادية .

(١) يبتدئ التاريخ السلوقي في ١ تشرين الاول سنة ٣١٢ قبل الميلاد .

وقد نشر هـذه الكتابة كل من الاساتذة : مولر (Müller No 15) وشابو (Chabot No 50) وجوسن (.Jaussen N°5) عن صور غير واضحة او نسخ مغلوطة · فأخطأ الاول بقراءة السطر الثاني فقرأ בר (ابن) عوضاً عن בדה (بنت) وعلى الرغم من كون تاء التأنيث واضحة في الكتابة فان الدّام الذي قبلها مؤنث ولذا يجب ان تكون هذه اللفظة مؤنثة ايضاً · وقرأ ايضاً السطر الرابع ברעא (برعن) ولكنه استدرك خطأ الناسخ واقترح تصحيحه (برعا) كما ترجمته آنفاً وقراءة بقية الاساتذة متفقة مع ما أثبتناه ·

« الكتابة الثانية »

تمثال نصفي لرجل تدمري (شكل ٢) وعلى يساره قد كتب هذه العبارة :

١ חירן בר خيرن ؛ بن

٢ מרדא مردا

٣ בר ידי بن ؛ يدّي ؛

٤ חבל واأسفاه

س (١) חירן (خيرن) علم مذكر شائع بين الاعلام التدمرية ·

س (٢) מרדא (مردا) جاء في الكتاب المقدس علم يقاربه وهو מרד (مرَدَ) (١ · اي ٤ : ١٧ و ١٨) ·

س (٣) ידי (يدّي) علم تدمري معروف معناه المحبوب ويقابله من الأعلام التي جاءت في الكتاب المقدس ידו (يدو) ·

س (٤) ولفظة السطر الاخير هي كلمة (حَبَل) المعروفة كما بينتها اولاً ·

« الكتابة الثالثة »

تمثال نصفي لرجل تدمري (شكل٣) والكتابة واقعة على اليسار وهي :

١ מלכו בר ملكو بن

٢ ידי בר يدّي بن

٣ פתיהב فتيحب

٤ חבל واأسفاه

س (١و٢) מלכו (ملكو) و ידי (يدّي) علمان شاع استعمالها في تلك العصور، وقد جاء ذكر الاول في (Chabot Choix d' Inscrip. palmyr. p. 120) والثاني في الكتابة التي قبل هذه . واما العلم الثالث فبالرغم من ان قراءته لا تدع مجالاً للشك بصحتها لوضوح حروفها . فانه لم يسبق العثور على هذا العلم، ولعله جديد بين الأعلام التدمرية . وقد نشر هذه الكتابة الاساتذة : جوسن (Jaussen) ومولر (Müller) فأشكل عليهما قراءة العلم الثالث فقرأوه פחיחזב (فتيخزب) والأصح ما ذكرنا لانه لا أثر للحرف (ﭕ) في الأصل . وختمت هذه الكتابة بكلمة (حَبَل) المعهودة .

« الكتابة الرابعة »

تمثال نصفي لرجل تدمري (شكل ٤) والكتابة على جهة اليمين هكذا :

١ חבל واأسفاه !

٢ חירן حيرن ، (بن)

٣ מרדא مردا

قد سبق في الكتابة الثالثة ذكر العلمين المذكورين في هذه الكتابة . وهذه الكتابة تختلف عما سبقها بشكل حروفها وخصوصاً (٦) وقد سطرت عمودياً وأهمل النحات كلمة (ابن) ولذلك اشكل عليّ معرفة اي منهما ابن للآخر . وكلمة (حَبَل) لا تفيدنا شيئاً هنا لان هذه اللفظة تفتتح الرُقُم القبرية بها او تختتم او يجمع بينهما .

(للكلام صلة) مدير دار الآثار العربية

جعفر الحسني

عثرات الاقلام

— ٣٠ —

ومن عثراتها قولهم (لا نريد ان نثور عليكم في هذه المسألة) صوابه (نشير) من أشار ولم يرد ثار عليه ثلاثياً بهذا المعنى .

ومنها قولهم (فكتمت عنه ما كان يجوش في خاطري) صوابه (يجيش) من جاش جيشاناً وهو لم يرد بهذا المعنى الا يائياً .

ومنها قولهم (سافر الى باريز وعهد الى فلان زمام الأعمال) صوابه عهد اليه في زمام الاعمال على ان كلمة (الزمام) لا تناسب هنا فالأصح حذفها ويقال (عهد اليه في اعماله) او يقال (سلمه زمام اعماله) او (ألقى اليه بزمام أعماله) .

ومنها قولهم (اولاده يتناغون جوعاً) لا يوجد تناغي بهذا المعنى وانما هو (يتضاغون) جوعاً او (يتضورون) جوعاً .

ومنها قولهم (وله خط دقيق الحرف بالكاد لا تقرؤه) . وبعضهم يقول (بالكاد تقرؤه) من دون حرف النفي . وكلاهما خطأ : اذ المراد من الجملة ان قراءة الخط صعبة لا تسهل قراءتها على الانسان الا بعد تعب وجهد . فاذا كان معنى (كاد) القرب كان فعلاً ماضياً ولا يصح ادخال لام التعريف عليه . وان كان معناها التعب والالحاح وجب ان يقال : (بالكدّ) بتشديد الدال كما يقولون أحياناً . ومهما يكن فان الجملة غير صحيحة التركيب والصواب ان يقال مكانها (خطه دقيق لا يكاد يقرأ) او (لا تكاد تقرؤه) او (لا يتبينه الطرف) او (قلما تتيسر قراءته) او (لا يقرؤ بسهولة) او (يقرأ بالكد والتعب) اوغيرذلك .

المجمع العلمي العربي

«يوم ٤ شباط ١٩٢٧ و٢ شعبان ١٣٤٥»

غصت ردهة المحاضرات في المجمع العلمي العربي في هذا اليوم لسماع محاضرة رئيسه وموضوعها «ابو حيّان التوحيدي وفلسفته وتصوفه وعلمه والجمعيات العلمية السرية والجهرية والمجامع والمجالس الادبية في القرن الرابع» · وقد حضر المحاضرة سعادة المسيو بيراليب المندوب الممتاز لدى دولة سورية وحكومة جبل الدروز ومعه معاونه المسيو فيبر وكان الترجمان يترجم لسعادة المندوب كل جملة يلقيها المحاضر · وبعد ذلك عقد المجمع جلسته لحضرها المندوب المشار اليه وغبطة العلامة السيد غريغوريوس حداد بطريرك طائفة الروم الارثوذكس وغيرهم من الفضلاء · فبدأت الجلسة ونعى الرئيس للاعضاء عضو المجمع العلمي العربي في باريز العلامة المرحوم كليمان هوار واقترح ايقاف الجلسة خمس دقائق اكراماً لخدمته وذ فاء لحقوق الزمالة ثم تلا امين السر محضر الجلسة الماضية وعدد الرئيس ما ورد على المجمع منذ الجلسة الماضية من الكتب المهداة فكان خمسة وسبعين مجلداً وأشار الى الاثر النفيس الذي عثر عليه في دمشق من القرن الخامس وما في وضعه في دار الآثار من الشأن العظيم للتاريخ وعلم العاديات الاسلامية · وجرى البحث بعدئذ في عيد دار الكتب الحسيني الذي سيرأسه العلامة الاستاذ سليم افندي البخاري احد مؤسسي تلك الدار تحت رعاية سمو رئيس الدولة وان المعارف ستنزل عن جميع المدرسة الظاهرية الى المجمع العلمي ليخصها بدار الكتب · ثم تلا الرئيس اقتراحاً وارداً من الاستاذ الاب بطرس البستاني من علماء العربية في لبنان يرمي الى توسيع اعمال المجمع العلمي في البلاد العربية · فاقترح بعضهم ارجاء البحث في هذا الموضوع الى الجلسة القادمة · وتذاكروا في موضوع محاضرة تلقى في العربية والافرنسية في الدين الاسلامي من حيث الاجتماع على نزلاء دمشق من الاوربيين فلم يتم في ذلك رأي · ثم تفاوض المجمع في ان يقترح على الحكومة وضع رسم على الداخلين الى دار الآثار على ان يجعل الدخول يوم الجمعة من كل اسبوع مجاناً لمن أراد · وان يكون الرسم طفيفاً بادئ بدء لا يتجاوز عشرة قروش سورية

ينفقها المتحف في تنظيم اموره . وبعد ذلك ناقش الاعضاء في عثرات الاقلام وانفضت الجلسة . وكان الرئيس يترجم لسعادة المندوب الممتاز المشار اليه كل دقيق وجليل يدور في الجلسة فسرّ حضرته سروراً زائداً ، وقال للرئيس عضوا على مجمعكم بالنواجذ وحافظوا عليه بكل ما اوتيتم من قوة ومتانة وعلم ، فانه عمل نافع جداً للبلاد كما قلت لكم ولا أزال أقول . ولا عجب فسعادة المندوب من الافراد الذين عرفوا بسعة فضلهم وله مصنفات علمية واعمال ادبية مجيدة واكثرها مطبوع ، ومثله من يقدر الاعمال العلمية قدرها .

مخطوطات مكتبة جامعة برنستون

جاء من الاستاذ العلامة السيد فيليب حتّي احد اساتذة جامعة برنستون كتاب ختمه بقوله : (هل ذكرت لكم ان في جامعة برنستون الفين وخمسمائة مخطوط عربية فهي أعظم مكتبة عربية في العالم الجديد . وسيكون نصيبي في الحياة احياء هذه المكتبة بالطبع والنشر والترجمة فضلاً عن تدريس الطلبة فلا تحسبوا اننا هنا فقدنا رغبتنا في الاسلام والعرب والعربية ومتكلميها) .

فحيا الله الاستاذ وسائر اخواننا العرب في العالم الجديد الذين ما زالوا يثبتون عربيتهم وتعلقهم بوطنهم العربي مع التجرد عن الصبغة الطائفية اثباتاً يشكرون عليه ويجب ان يحتذى مثالهم فيه .

مطبوعات حديثة

مفكرات في العهد الحميدي

مهما موّه الراضون عن عهد عبد الحميد وسكتوا عن نقائصه فانَّ تفنن الرجل بالمحافظة على حياته ثابت لا يحتاج الى برهان ، وله في ذلك بعض العذر لانه رأى ملكين قبله قد خلعا ، وكاد السلطان يترك مهام السلطنة ليستمع ليل نهار لجواسيسه وعيونه ، ينفق في ذلك أموالاً لو صرفت في المشاريع النافعة مدة ٣٤ سنة لأتت بموارد تغني السلطنة لا محالة ولصانت ذاك الملك العظيم من التمزق بادخال الدساتير النيابية الحرة . وقد أشبه عهد عبد الحميد بدور الفتور ، فان الدولة بعد ان غلت مراجلها مدة ستة قرون انتهت ايامها الاستبدادية بآخر زي من أزياء الاستبداد وهو العهد الحميدي فأدخل فيها آخر طراز من الفساد ونعني به فساد الاخلاق ، وهو من أعظم ما يقضي على الدول والأمم فينسفها نسفاً .

اكتب هذا وانا أتلو كتاباً صدر حديثاً باللغة الافرنسية كتبه رجل عاقل غريب عن العثمانية ، مطلع على عجرها و بجرها ، ولعل هذا السفر أصح مصدر يصح الاستشهاد به على فساد دور عبد الحميد . واسم المؤلف (لويز رامبر [1]) واسم مؤلفه « مفكرات وتأثرات عن تركيا » او الدولة العثمانية على عهد عبد الحميد الثاني من سنة ١٨٩٥ — ١٩٠٥ طبع في جنيف من بلاد سويسرا . وكاتب هذه المفكرات هو سويسري الاصل خالي الغرض في الجملة ، ولو كان من أبناء دولة كبرى لاتهم بان له ضلعاً معها و يحاول النيل من العثمانيين وناشر هذه المفكرات الآن هو ابن كاتبها (١٨٣٩ — ١٩١٩) نشرها بعد ان طُوي ذاك البساط بما عليه جملة . نشرها للتاريخ ، وأعظم بنشرها من خدمة .

المؤلف من اهل الطبقة العليا في اهل سويسرا حقوقي اداري مالي أديب متفنن ،

(١) هكذا اسم الكتاب بالافرنجية :

Louis Rambert : Notes et Impressions de Turquie L'empire Ottoman sous Abdul-Hamid II 1895 1905

أنشأ في صباه جريدة يومية وناب عن أمته في مجلسها العالي ، وكان محامياً مشهوراً وله يد طولى في فتح نفق سان غوتار المشهور بين ايطاليا وسويسرا ، وطلب اول مرة الى الشرق ندبه لذلك نوبار باشا وزير مصر في عهد الخديوي اسماعيل في جملة من اختار من رجال الغرب لخدمة مصر فوصلها ، وكان اسماعيل قد خُلع فرجع من حيث أتى . وبعد مدة ندبته شركة افرنسية لانشاء سكك حديدية في السلطنة العثمانية ، ثم تولى أعمالاً كبرى وأهمها نظارة إدارة حصر الدخان في الاستانة فأبان في حياته علواً في الفكر وخبرة بحياة الناس وحياة الأعمال ، ومعرفة بمعاناة المسائل الكبرى حتى صار لا يلامس منها الا الامور العملية ، وينظر فيها فيعرف المدخل والمخرج من اول وهلة وقد استبطن أسرار السياسة والمالية فكان إدارياً مدهشاً كما قال فيه واصفوه .

أطلت في تعريف الرجل لان للتعريف به دخلاً كبيراً في تسهيل الاعتقاد بصحة احكامه على تلك السلطنة الكبرى وعلى ذاك الرجل الذي سقطت على يده وبيده . ومما يزيد في الثقة بما رواه المؤلف انه كان قريباً جداً من مصادر الحوادث التي وقعت في دار الملك العثماني وكانت له صداقات مؤكدة مع اكبر وزراء السلطنة وولاتها وعمالها وهو على اتصال مع الطبقة السامية من الاجانب فيها ومنهم السفراء ورجال السياسة والاعمال ، فكلامه اذاً كلام الخبير الصادق لا تقرأ فيه شيئاً من الغرض بلى تتبين فيه التحقيق ومعرفة تامة بالحياة وبحثاً وتدقيقاً قل ان تراه لغربي كتب على الشرق وكيف ذلك وليس لجميع من كتبوا مثل ادواته حتى تصح احكامهم وتجود تآليفهم .

دخل المؤلف الاستانة قبيل العهد الذي نشبت فيه الثورة الأرمنية ، التي هلك فيها الوف من الأرمن في الاناضول والاستانة اي في سنة ١٨٩٥ وظل يكتب مذكراته حتى هلك سنة ١٩١٩ . وقد قال ابنه في هذه الحوادث الارمنية في مقدمة الكتاب ما تعريبه : « ينظر عادة الى مذابح الارمن في الغرب بانها نتيجة التعصب الاسلامي ، على حين ان السبب الاصلي هو سياسي (Opportuniste) اكثر مما هو ديني : والظاهر ان قليلاً من الأديان كانت من التسامح على مثال الدين المحمدي ، وأحسن دليل يورد في هذا الشأن كثرة عديد الارمن واليهود والروم وغيرهم ممن كانوا يعيشون مع الاتراك على صفاء في الجملة الى عهد الحرب العالمية . وكثير منهم شغلوا اسمى المراكز

في حكومة السلطنة وإدارتها » الى ان قال وهو عين الانصاف : وكان الداعي في تدبير المذابح الارمنيسة بيد عبد الحميد وحاشيته سياسياً صرفاً لانهم حاولوا ان يقيموا لهم ملكاً بين السلطنة العثمانية وبلاد روسيا تكون عاصمته ارضروم .

هذه المفكرات قطع تختلف بطولها من بضعة اسطر الى بضع صفحات بحسب الموضوع ويؤرخها مؤلفها باليوم والشهر اللذين كتبت فيهما بعبارة عاليـة تتجلى فيها روح المالي والاداري والفنان والاجتماعي، بعيدة كل البعد عن البذاء والمراء وفيها احياناً الاحماض اللطيف والتهكم بادب قل ان عهد الا في كتابات الشعوب التي بلغت أقصى درجات الحضارة تزينها حسن الاخلاق وجمال الثقافة . وكثيراً ما دوَّن صـاحب المفكرات اشياء ربما لا تفيد كل الناس وهي قليلة جداً ولكن نفسه كانت تهتم لها كتفاصيل بعض الحوادث ومنها ما له علاقة ببيئته وعمله الخاص ومنها تفهم كيف يعيش ارباب الاعمال من الغربيين في الشرق .

تكلم في مفكراته (٣٠ تموز ١٨٩٩) على المشاريع التي قام بها الافرنسيون في بلاد الشام فقال في خاتمتها بعد وصفه مشاريع السكك الحديدية « يرجع اخفاق المشاريع في الشام الى الطريقة التي يدرك بها ارباب الأموال من الفرنسيس الاشغال الشرقية . فان هذه الاعمال كلها قليلة الربح قليلة النجاح في السنين الاولى . فالواجب اذاً ان يراعى في عملها الاقتصاد ما امكن برأس مال قليل وانتظار ارباح العمل حتى يتدرج الى النجـاح . بيد ان الجماعات من الافرنسيين يعملون عكس ذلك فانهم يعينون رأس المال سلفاً على أساس الواردات الموهومة ويتقاسمون الارباح المقدرة بصورة زيادة في أسعار البناء او في قيم السهام التي تصدر الى ساحة التداول ، وقد أسرفوا في إنفاق المال على هذه الأعمال في الشام إسرافاً فاحشاً وتناول القائمون بالعمل مبالغ طائلة لا تقسم في قالب حصص (Apports) الى الشركات . فرأس المال الذي طلب هو أعظم كثيراً مما يقتضيه المشروع ولم يكد البناء يتم حتى زهقت روح الشركة . التجربة ثابتة كما هي ضارة ، لا جرم انه لن يستفيد احد من هذه العظة » .

وجاء في مفكرته يوم ١٥ نيسان سنة ١٩٠٠ « ان فقراء الفلاحين الذين يزاد في أعشارهم الى الحد الذي لا يطاق ، لا يجدون من يدافع عنهم ، ويحملون الظلم الذي

يقع عليهم صابرين ، الا ان إرهاق الفلاح وهو المقضي عليه باداء كل ضريبة وسخرة بدون رحمة قد نشأ منه الآن الداء المعضل وهو خلوّ القرى من سكانها · و يقال على الجملة انه ستزيد الحركة وتفنى معها المادة التي يمكن ان تؤخذ منهـا الضرائب · تصبح تركيا اليوم بعد اليوم مملكة تحت التصفية ، ولا نزال نذكر انها أضاعت ولاياتها في البلقان الواحدة تلو الأخرى بفعل المعاهدات الاوربية والحملات المشؤومة ، فقدفقدت كريت مؤخراً عقيب حرب ظافرة · وفي ذلك طريقة التصفية مباشرة وإضاعة البلاد او التخلي عنها بدون مجابة · ويمكن الوصول الى نفس هذه النتيجة من طريق غيرمباشر وذلك بالتضييق على سكان الولاية في معـايشهم و بجعل البلاد المنتجة قفراً · فان آسيا الصغرى تصفى بالطريقة الثانية على حين ان املاك تركيا في اوربا تقطع إرباً أربا ·

أصبح القسم الشرقي من المملكة في آسيا أشبه شيء بالقفار فان مذابح الارمن وهجرتهم الى ولايات الشمال وتخريب الكتائب الحميدية والقبائل الرحالة في الجنوب في واديي دجلة والفرات ، كل هذا قد أحدث في بضع سنين تأثيرات عظيمة · ندب مدير اعمال ادارتنا (كاب) آخراً للتجوال في هذه الأصقاع ودرس مشروع سكة حديد بغداد فقص علينا انه بحث كثيراً عن القرى التي ذكرت بعثة يونس انها موجودة على طول الطريق · وهذه البعثة قامت بمثل هذا الغرض منذ ست اوسبع سنين · وكانت القرى القائمة إذ ذاك تعد بالمئات تخربت وعفيت آثارها كأنها لم تكن بالامس عامرة · اما بقية بلاد آسيا الصغرى فهي موقوفة ابداً على التدرج في زيادة الاعشار بحيث تصبح الزراعة متعذرة وتزيد رداءة الحال الى مايدعو الى انفضاض السكان من القرى · ثم تكلم على المهاجرين من الاقطار الاخرى الى بلاد السلطنة اذ ذاك وقال ان هذا مرض مزمن خاص بدور التصفية الذي تجتازه الخ ·

وقال في كلامه على نفي السلطان لبعض الاعيان : وصعب ان يدرك المرء كيف يصرف السلطان جهده في مراقبة جميع دسائس الشرطة ، خصوصاً اذا نظر ان فكره المريض من قلة الثقة بهم لا بالاخطار الموهومة التي يرى نفسه محاطاً بها في عاصمته ، بل بجميع الاعمال المشتبه بها التي تحدث في أرجاء سلطنته وهذا مما لا يكاد يصدق · في حلب والٍ اسمه رائف باشا كان ناظراً للاشغال العامة وهو رجل

معروف . ذكر لنا ابنه امس انّ اباه أراد ان يزور احدى مدن ولايته فأرسل الفرسان في أثره وعادوا به الى حاضرة الولاية كأنه مجرم ، وذلك لانّ القائد العسكري في الولاية أبرق الى السلطان ان رائفاً هرب فصدر اليه الامر في الحال ان يقبض عليه .

وقال في وصف القدس ان الناظر الذي يرى الاشياء بالعين المجردة يرى القدس اليوم (في عهده) أثراً من آثار تفوق الاسلام ويرى المسلمون في حالها دليلاً ظاهراً على تفوق دينهم ، وليس ذلك الا وهم من أوهام النظر فان الاحوال السياسية وان قضت على الحكومة العثمانية بالتسامح الواسع ، فقد اضطرتها الى تنظيم ادارة سيادتها وحكمها على الارض المقدسة عند اليهود والنصارى ، وهؤلاء تُركوا وشأنهم ولم ينظمهم نظام عام فأفرطوا في أهوائهم الشخصية والمذهبية . فان السلطة التي تنفذ بحذق واعتدال وما هناك من انانية ومطامع لا نهاية لها قد أحدثت تناقضاً مذلاً تتأذى به أبصارنا !

وقال في دمشق : لا يأسف الانسان في مكان بقدر ما يعروه من الأسف عندما يرى هذه البقعة الجميلة من الارض سيقت الى بلادة الادارة العثمانية وطمعها .

وصف (١٣٣) عبد الحميد وعهده فقال : حقيقة من الغرائب ما يُرى من السلطة النافذة بالخوف والإرهاب في هذه البلاد التعسة . فان السلطان محكوم عليه بالارهاب وجميع أعماله منبعثة من الخوف . وقد عهد الى جماعات من الجواسيس ان يحموه من الأخطار الموهومة التي يعتقد انه محاط بها . ولما كان هؤلاء الجواسيس يستفيدون بذلك فليس لهم من همّ الا ان يدوم لهم سلطان الوهم يمدونه ويهيجونه بما عندهم من القوى . وان كبار رجال الدولة والوزراء والحجاب والقواد ليعيشون بالخوف وهم يعتقدون ان خوفهم ليس عن وهم صرف لان للسلطان مطلق التصرف في استعمال مايخطر له من نفي من أراد ونكبته والحكم عليه بالموت او بالحياة . فان دسيسة مدبرة بحذق او خيانة في عمل سري ووشاية جاسوس مقدَّم يتأتى منها لكل واحد منهم ان يجني أفظع النتائج . وعندئذ فلا تراهم الا مراقبين بعضهم على بعض و يستقرون أخبار الجار لانهم يحاذرونه ويعدون السلاح ليستطيعوا ان يدفعوا عن انفسهم او يهجموا اذا قضت الحال ، ويحاولون ان يتمرنوا ماندور عليه أعماله وأسراره الخاصة . وما من عمل سافل ولا من خيانة يتردد احد في إتيانها اذا كان فيها رضا السلطان او إسقاط من نال حظوته .

وكل هذا أحدث تبلبلاً ووشايات وقصصاً مستحيلة تسير بين الناس وتتصادم وتتعارض وتتساقط وكان منها الصالح للاكاذيب والعداوات والدسائس والدناءات يرفرف عليها كلها سلطان الفزع والإرهاب الخ .

وقال (١٦٠٢) ان النظر الى مجموع هذه المملكة غريب جداً فان فكر الانتقاض والعصيان ومحاربة الشقاء والثورة على البؤس مما تتولد منه نظائع اجتماعية مثل الفوضوية والعدمية وقتل الملوك والحكام اما هنا فالامر على عكس ذلك فان الناس كلهم يحنون رؤوسهم والملك يعمل ما شاء في تدبير الدسائس على رعاياه ليسلبهم أموالهم ويحيط به خدامه ويسلم البلاد اليهم يسلبون الامة ويمتصون دماءها . واذا نشأ بالمصادفة رجل ذو إرادة في وزارته يكون عرضة لكل مراقبة ولا يلبث ان يغيب مبعداً او سجيناً او منفياً او يصيبه غير ذلك . فالفوضى في كل مكان والأشرار يعيثون في كل صقع فساداً وهم مدججون بالسلاح والناس الساكنون يؤذون أنواع الأذى وليس هناك من حماية ولا شرطة ولا إدارة بل ان السلطان الاكبر للسلطان الذي يدير هذه العدمية وينفذها . والوظائف في الولايات لاتعطى بحسب الاستحقاق وقد يحسنون على رجال عظام بوظائف في الولايات إرادة إبعادهم عن الاستانة ولذلك تجد في الولايات مثل دمشق وطرابزون وقسطموني رجالاً عظاماً ...

وقال يصف تأخر المملكة العثمانية وتفسخها بعد ان عاد من اوربا وقال ان رجعته الى الاستانة وتغيير عظيم وراحة للفكر والجسم فان المرء بتنقله هذا بين الاستانة واوربا لا يتنقل فقط في المسافات بل يتنقل في الاوقات والادوار . فان ثلاثة قرون تفصل بين أتراك اليوم وطريقتهم في فهم الاشياء وصلاتهم الاجتماعية وحياتهم العامة ، وبين ارتقاء اوربا الغربية وفضلاً عن هذا التباين المحسوس فان تركيا تهوي قليلاً قليلاً الى درجة سوأى من الانحلال والاستسلام على حين تسير اوربا بخطى واسعة وتنتفع بالاختراعات الحديثة وتغتني أدبياً ومادياً . وذكر بعد صفحات وقد عرضت عليه الدولة ان تبتاع سهام إدارة حصر الدخان قوله : حقاً ان هؤلاء القوم عجائب بسذاجتهم فانهم كلهم في نقض البنيان الموجود وإلقاء العثرات في سبيل عمل يسير وهذا لا يوازيه الا عدم كفايتهم لايجاد شيء ثابت دائم مهما كان نوعه .

وقال في وصف الأروام : اننا نعيش في الاستانة الى جنب الأروام كثيراً وهم ثرثارون مثل اهل مرسيليا مفرطون في كلامهم يتكلمون باصوات عالية و باشارات عظيمة ، وكل ذلك ليعبروا عن امور تافهة او لا أصل لها . فهم مهذارون الى التي ليس بعدها و يفيضون اليك و يسرون في أذنيك بأكاذيب هائلة يعتقدونها كل الاعتقاد . لا جرم انهم أناس عاديون غير متماسكين ، رأينا فيهم ما عرفناه عن الروم القدماء ، وكنا نذهب الى ان ما أثر عن قدماء يونان من الاعمال والانتصارات والمجد هو من صلفهم وصلف الجنوب ومبالغاتهم ومبالغات مؤرخيهم وشعرائهم قياساً مع أروام اليوم ، لولا ان في زيارة المصانع القديمة في يونان وذكريات العصر اليوناني العظيم مما يزيل هذا الظن ، فان البراهين على الثقافة العالية والاقتدار والالهام العالي محسوس لا نزاع فيه .

وقال (ص ٢١١) : زارني هذا الصباح عظيم من عظماء القصر فنعيت اليه قدري بك (والي طربزون وكان إدار بأحكيا) فضرب بيديه سروراً وصرخ صرخة الفرح ، واذ قد رآني صامتاً دهشاً قال لي : وهذا وال سينصب له خلف ، والغنم لنا في ذلك لان خلفه يجب عليه ان يؤدي على الأقل من ثلاثة الى اربعة آلاف ليرة الى صندوقنا المشترك . ولقد هممت ان أدفعه الى أسفل السلم لكلامه هذا واكتفيت بان قلت له بلهجة استغربها : ان الفضل يرجع الى قدري بك بحماية بلاده من ان تكون طربزون مكدونية ثانية على الحدود الروسية ، وان التفكر في إتمام السياسة التي سار عليها قدري بك أهم من تسرب بضعة آلاف ليرة الى صندوق كصندوقهم .

وذكر بداعي وصف احدى الجرائد السويسرية لحال مقاطعته في الأزمان الغابرة ان تبدل الأخلاق وما يتمتع به الجمهور من المرافق العامة يرجع السبب فيه الى أسباب بعيدة صعبة اكثر من التبدلات الساذجة في اصول الحكم والسياسة في شعب . فان هذه التبدلات نفسها ليست سوى نتائج حدثت من اسباب أخرى هي قائمة بانتشار التربية العقلية التي تخلق وتموت في أطراف العالم منبعثة من أسباب عرضية من مثل ظهور رجل عظيم او نبي كريم . ومن الأمة المذوقة ينشأ الذكاء في طبقات الخاصة الذين يوجدون العلم و يكشفون عن محيا امورنجهلها او يوحون الينا بشرائع ادبية خصبة

بيناتجها ... والفلاح هنا يعيش تعساً في كوخه جاهلاً ما يجري على ميل من مقره لا يملك نقداً ويحصل على حاجياته بطريق المقايضة . وهنا ايضاً لا شأن للنظام والتنظيم الذي هو من شأن المجالس البلدية ، والطرق غير امينة ولا سبيل الى التنقل الا بخفارة . وهنا ايضاً احتفظ القوم باساليب التعذيب والعقوبات التي كانت تجري على عهد شارلكان ...

وكتب (ص٢٦٨) زرت هذا الصباح الصدر الأعظم في قصره وكان يشكو ألماً في ضرسه نقص عليّ الدسائس التي تحيط به وما يتهمه به النامون قال : ان في الولايات ولاة لا شأن لهم الا ان ينهبوا الدولة و يسلبوا الامة اقترحت تنحيتهم او نقلهم وعبثاً حاولت لان جلالته لا يصفق على ذلك لان بعض الاغاقين او الخدم او احدى نساء الحرم تحمي الوالي ، فيوهمون السلطان انني أعمل بعوامل جنسية ضد مصلحة الدولة والسلطان يعتقد باقوال هؤلاء الساقطين اكثر من أقوالي .

ومن مفكراته (ص٣٤٢) : ان الألمان متسافرون وفيهم الخطر : ذلك لان سفارتهم وبيوتهم المالية الكبرى لضغط بكل ثقلها على مفاوضات الحكومة العثمانية ومفاوضات السلطان ، وترى الافرنسيين يوماً ناجحين ومن الغد منقهقرين ، وهكذا تمر الاسابيع والشهور . وجميع العقبان والبواشق في القصر السلطاني من كبار رؤساء الجواسيس والحجاب وأمناء السر والباشاوات وبعض الوزراء يراقبون هذه الحركات والقلق آخذ منهم ، وأعناقهم ممتدة ، واقفين بالمرصاد للغنائم منتظرين صدور الارادة السلطانية في تعيين الظافر وظهور المكتوب السعيد يوزع عليهم « البخاشيش » عندما تكتب له الغلبة . وما أغرب شأنهم ذاك اليوم . منظر جدير بمثل هذه المملكة مملكة عبد الحميد ... في ادارتي رجل مستقيم فمال اسمه حاجي اوليا عهدنا اليه باستثمار الدخان في ولايات ساحل البحر الاحمر اليمن والحجاز وقد أصبح واسطة لجميع العلاقات بين الدولة وتلك البلاد في التباعات ونقل الجنود والبضائع والمواد . اتى يوم وقد أصبح له في ذمة وزارة المالية ٢٤ الف ليرة عثمانية وتعذر عليه ان يقبض فلساً واعترفت النظارة بصحة حساباته بعد صعوبات جمة وقضى مجلس النظار بان يؤدى اليه مطلوبه، ضرورة ان الدولة ستطلب منه خدماً أخرى ، وحاول عبثاً استصدار الارادة السنية بذلك ،

وهو منذ أشهر يأتينا شاكياً متوجساً خيفة من إفلاسه القريب ، وها قد اتى امس الى إدارة حصر الدخان متهللاً كأنه عاد فتياً عشر سنين الى الوراء يثني بامادح السلطان ، ويحمد الله على توفيقه . فسألته ماذا جرى لك ياحاجي اوليا فأجاب لا تعرف ماجرى يا ذا السعادة ان اخي فكر فكراً حسناً فأرسل اليّ من اليمن اربع بقرات غريبة لكل منها سنام في ظهرها فقدمتها هدية الى السلطان فصدرت ارادته بعد اربع وعشرين ساعة وسألني السلطان ان أجلب له طيوراً من بلاد العرب وهاءنذا أقبض الاربعة والعشرين الف ليرة وقد أنقذت مما كان يتهددني . اما نحن فاننا نقاسي منذ سنين الامرّ من سخط السلطان وذلك لاننا لم نعرف المدخل والمخرج ولم نستطع جلب اربع بقرات محدودبة الظهر فالواجب ان نفكر في طريقة أخرى .

ومن مفكراته يوم ٢٢ آذار ١٩٠٥ : تتابع الفضائح الداخلية في القصر السلطاني ويوم السبت الماضي كانت لجنة حربية منعقدة للنظر في حوادث صنعاء وحالة اليمن والحجاز المضطربة فان كثيراً من القبائل العربية قد انتقضت وهي محاصرة مدينة صنعاء شرقي جدة ، وشاع في الأيام الأخيرة ان المدينة قد سلمت . ومهما يكن من الامر فان المناقشة في اللجنة العليا كانت محتدمة على ما يظهر عندما دخل الكاتب الثاني عزت باشا المشهور وتقدم يشارك اللجنة في مذاكراتها فقام ناظر الحربية اذ ذاك وسأله بشدة كما يسأل صعلوك يتدخل فيما ليس من شأنه ، وأضاف الى كلامه حركته وتناول كرسياً بيده وكسره على رأس ذاك السوري الصغير فوقع اضطراب واستدعي الطبيب زامبا كو باشا وقد أخرج الصدر الاعظم منديله ليقطع به الدم المهراق . جميع اهل المنتدى يقصون هذه القصة وكل انسان يأسف لان أثاث القصر لم يكن متيناً والا لكان الوزير حطم رأس الباشا بدلاً من ان يكسر الكرسي فقط . وليت شعري اي معروف كان أسدى لبلاده ! وسيان وفق في ضربته ام لم يوفق فان حركة الوزير كانت جميلة في النظر ، ترى فيها البادن العظيم رضا باشا بقامته الكبيرة يحمل كرسياً ليسحق به هذا الانعوان المضر . وليت شعري ما كانت أجمل الصورة الشمسية التي تستخرج بنقل هذا المشهد .

هذه نموذجات من كتاب السويسري في العهد الحميدي البائد وانما المزية حديث

بعده . وأظن ان هذه الوقائع تكفي في إقناع من يحاولون غش التاريخ ومامداح ذاك الدور في الحقيقة الا الذين حلبوا العنزة المسكينة واكلوا درّها ثم نتفوا صوفها وعرّقوا عظمها .

محمد كرد علي

تاريخ الادب العربي

تأليف السيد احمد حسن الزيات طبع بمطبعة الاعتماد بمصر . الطبعة الثانية (ص٣١٣) طبعته لجنة التأليف والترجمة والنشر المؤسسة سنة ١٩١٤

مؤلف هذا الكتاب من نوابغ الادباء الذي أحكموا القديم من أدوات الكتابة ، وضموا اليها ما ينفعها من الحديث . وقد علمنا من حياته انه بعد ان حفظ في الأزهر القرآن ودرس التجويد والقراآت وعلوم الشريعة واللسان وقرأ أمهات كتب الأدب على العلامة سيد بن علي المرصفي حذق اللغة الفرنسية ودرس الحقوق بها ، وأحرز شهادة العالمية من جامعة باريز ، وغذى عقله بحرية البحث ومحبة النقد ، ثم انصرف الى تدريس آداب العرب وعني بالتأليف والترجمة . وكتابه هذا من خير ما أخرج للناس من الأسفار ألفه بحسب برنامج معارف مصر للمدارس الثانوية فجاء مما يستفيد منه كل من تطمح نفسه الى الإلمام بهذا الفن الواسع الاطراف ، المتشعب المناحي . بدأه بالكلام على أدب اللغة ومنزلة الأدب العربي وتاريخه وفائدته وتقاسيمه وعلوم العرب واللغة ولهجاتها وأطوارها وخصائصها والنثر والحكم والخطب والشعر وأوليته وتقسيمه عند الفرنج وأبان السبب في خلو الشعر العربي من القصص وميزات الشعر الجاهلي والرواية والمعلقات والحماسة والمدح والهجاء والرثاء والاعتذار والوصف والنسيب وأورد تراجم جميلة مع الايجاز لشعراء الجاهلية والاسلام والخطباء والكتاب ، وألمّ بتدرج اللغة وما أثره الاسلام فيها وتأثيرات القرآن الكريم وإعجازه وأسلوبه وتأثيره وجمعه وتدوينه .

وعرض لعبد الحميد الكاتب واثره في الكتابة والموازنة بين الكتابة في عهده وبينها في الجاهلية واثر الخطابة في الاسلام وأورد تراجم علي بن ابي طالب وسحبان وزياد والحجاج بن يوسف ومثالات من خطبهم ومن النثر في عهدهم وذكر الشعر في

العصر الأموي وسيرة طائفة من النابهين من شعرائه ونماذج من أقوالهم . وانقلب بعد ذلك الى العصر العباسي وما آل اليه الأدب بتأثير الحضارة الفارسية فيه وترجم لأعيان الكتاب والشعراء والادباء والنحويين واللغويين والفلاسفة والمحدثين وألمّ بما صارت اليه كتابة التاريخ وتدوينه وعلوم الحديث والفقه والفلسفة وما صارت اليه اللغة في العصر التركي وذكر بعض أعلام الأدب ووصف ضعف ملكة البيان حتى كان الاحتلال الفرنسي في مصر وما تبع ذلك من عمل محمد علي الكبير فآضت اللغة الى بعض رونقها وترجم من المعاصرين في الأدب اربعة رجال وامرأة من المصريين وذلك بحسب الخطة التي رُسمت للكتاب وهم المرحومون محمود سامي البارودي ومحمد عبده وحفني ناصيف والشيخ حمزة فتح الله وملك ناصف ابنة حفني ناصف المعروفة بباحثة البادية . وذيل الكتاب بمعجم صغير لتفسير ماورد في الكتاب من الألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة .

هذه رؤوس المسائل في هذا الكتاب الذي جوّد مؤلفه تصنيفه وجمع الى الجزالة الرشاقة فأتى بمجموعه مثال الكلم الطيب والقول البليغ والتحري في البحث والتقاف زهرات أئمة الأدب وإدماجها في أسلوب يحبب تلاوته ومراجعته ، ولقد يكتفي طلاب هذا الفن بهذا المثال الجيد من أدب العرب ، و يتبلغ بهذه الزبدة الطيبة تملأ وطابه وتغنيه في سن الدراسة عن الرجوع الى المطولات . وعسى ان تصح عزيمة المؤلف النابغة على وضع كتاب مطول في هذا الفن الذي قال فيه انه علم حديث النشأة ابتدعه الايطاليون في القرن الثامن عشر وظل مجهولاً في الشرق حتى اشتد خلاطه بالغرب فكان اول ما نقله الاستاذ المغفور له حسن توفيق العدل اقتبسه من المانيا ودرسه في دار العلوم[1] بمصر .

(١) ألف صديقي العلامة المرحوم حسن توفيق العدل كتاباً في آداب اللغة العربية وتفضل ودفع اليّ في سنة ١٩٠١ بمصر مسودات الجزء الاول فقرأته واعدته اليه ولا أعلم اذا كان مثّل بالطبع ، ومما قرأته من الفوائد فيه ان اوزان الاعاريض من مخترعات العرب الصرفة وانهم لم يأخذوا وزناً من غيرهم بل اخذ عنهم كثير من أمم اوربا انواعاً من القافية .

ومما قاله في الرواية والملفات (ص ٢١) « قال ابو عمرو بن العلاء : (ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله . ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير) ولكن هذه الكثرة متهمة وروايتها مريبة ، فان الشعر لم يدوّن الا في منتصف القرن الثاني للهجرة ، وان في نقله على الألسنة طول هذه الأزمنة مظنة للتبديل والاختلاق والتزيد » اه . وقد ثبت ان التدوين سبق هذا العهد فان زيد بن ثابت الف كتاباً في علم الفرائض وكان عبد الله بن عمرو يكتب الحديث وذكر مسلم في صحيحه كتاباً ألف في عهد ابن عباس في قضاء علي . فليس من المعقول ان يتأخر العرب في تدوين شعرهم وهو ديوان مفاخرهم وصحيفة ادبهم وتاريخهم الى منتصف القرن الثاني .

وقال (٨٢) : وقامت خلافة الأمويين على غير محمد من الحق فساسوا الناس بالتفريق وإحياء العصبية واوقدوا نار التنافس بين الشعراء ... وشغلوا الناس عن الخصومة في خلافتهم بالخصومة في امر جرير والفرزدق والأخطل ، وحلّ المربد في الاسلام محل عكاظ في الجاهلية ، فعلوا ذلك بالشام والعراق فظهر الهجاء السياسي وهو فن من الشعر جديد واعتقلوا شباب الهاشميين وسراتهم في مدن الحجاز ، وسلطوا عليهم الترف ، وشغلوهم بالمال ، وخلّوا بينهم وبين الفراغ ، فتدفقوا في اللهو ، وعكفوا على الغناء ... اه . وليس هذا الكلام صحيحاً على إطلاقه لان الأمويين كخصومهم طلبوا دولة نالوها بمضائهم وعصبيتهم وحسن سياستهم ، واذا كان الهاشميون من طينة غير طينة العرب او البشر في الفضل والتقى فلماذا مالوا كل الميل الى ما حمله الامويون اليهم من اسباب الترف والسرف . ولو وقف الامر عند الحد الذي أراده الحجازيون والعراقيون اذ ذاك لما انتشر الاسلام هذا الانتشار المدهش ولا بلغت فتوحاته المغربين والمشرقين .

وقسم المؤلف العصر العباسي الى اربعة اعصر تبعاً لاحواله السياسية والاجتماعية ، فالعصر الاول من ابتدائه الى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ ، والثاني من خلافة المتوكل الى استقرار الدولة البويهية في بغداد سنة ٣٣٤ ، والثالث من تغلب البويهيين الى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ ، والرابع من دخول السلاجقة بغداد الى سقوطها

في ايدي التتر سنة ٦٥٦ وهذا التقسيم سار عليه ايضاً بعض المؤلفين المحدثين الذين دوّنوا شيئاً في تاريخ الادب عند العرب ·

واعتذر الاستاذ عن إغفال ذكر الشاميين وأثرهم في النهضة العربية بقوله : وما كان أروح للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم مواطني وجيرتي ! ولكن البحث محدود والقلم موجز · ومهما يكن من شيء فلن يفوتنا ذكر اسمائهم مُعْقَبة باسماء معاصريهم في العراق والمغرب ، اعترافاً لهذه النفوس الكبيرة المطمئنة بالاحسان والفضل » ·

وقد وقعت بعض هنات قليلة جداً للمؤلف اكثرها من غلط الطبع مثل « اعتنق الاسلام » وهذا من التعابير الافرنجية والأولى انتحل او دان او غير ذلك · ومنها (ص٢٣٤) ان الاستاذ جويدي الايطالي وضع فهرساً ابجدياً مطولاً للاغاني وطبعه بمصر سنة ١٣٢٢ والصحيح ان الاستاذ الايطالي وضع جداول الاغاني بمؤازرة ثمانية من علماء المشرقيات وطبعه في ليدن سنة ١٩٠٠ وما طبع في مصر منتحل من الطبعة الفرنسية ومنقول عنها · وروى (ص٢٤٥) ان كتاب البدء والتاريخ هو لابي زيد البلخي ولكن تبين آخراً انه للمطهر بن طاهر المقدسي ، وان ابن ابي أصيبعة صاحب طبقات الادباء والصحيح ان صاحب هذه الطبقات ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان وكتاب ابن ابي أصيبعة اسمه عيون الأنباء في طبقات الاطباء · وقال ان ابا الفداء وصل في كتابه المختصر في اخبار البشر الى سنة ٩٢٩ وصوابه ٧٢٩ وابو الفداء مات سنة ٧٣٢ كما جاء في الكتاب نفسه · وجميع صفحات الكتاب درر وغرر · محمد كرد علي

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف «جوت» الالماني نقله عن الفرنسية السيد احمد حسن الزيات الطبعة الثالثة طبعت بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر في مطبعة الاعتماد سنة ١٣٤٢ — ١٩٢٤ ص ٢٠٨

اشتهرت هذه القصة في الأدب الغربي وبالغ الغربيون في الإعجاب بها ، وقد نقلها نابغة الأدب الاستاذ الزيات ايضاً بما رزق من القوة على تذليل صعاب اللغتين و برشاقة

وذلاقة دل بها على علو كعبه في ممارسة القلم العربي الذي يتوفر على إرجاعه في أسلوبه الى عهد ابن المقفع والجاحظ وسهل بن هرون . خاصية امتاز بها بعض من درسوا الأدب العربي حق دراسته ، وتشبعت نفوسهم بالأدب الفرنجي أمثال شكيب وطه والعقاد والمازني وغيرهم من أعيان البيان في هذا الزمان . وقد برز في هذه الطريقة خصوصاً نوابغ الازهريين الذين عالجوا الادب ومقوماته ، ونوابغ دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي ، وكم فيهم من لم يشتهر اليوم بكتب من السهل الممتنع الذي لم ينهض بمثله كتاب القرن الخامس والسادس . وقد قدم لهذا الكتاب صديق المؤلف وتربه ونسيبه الدكتور طه حسين مقدمة قال فيها ان «جوت» وصف في هذا الكتاب الحياة النفسية لكل شاب وشابة على اختلاف الازمنة والامكنة وعلى تباين الحالات ، وانه من الكتب التي أنشئت لتبقى ابد الدهر ، تخلد لانها لا تصف الأشخاص التي تفنى وتزول وانما تصف النوع الذي يبقى ويدوم ، وخصلة أخرى قضت لهذا الكتاب بالبقاء والخلود هي انه لم يقف عند حد تمثيل الحياة النفسية للشباب في طور من أطوارها وانما وضع للانسانية مثالاً من الفضيلة تحس كل نفس الميل اليها وترد لو بلغته او دنت منه ... ان آلام فرتر ليست قصة منحلة او بناء متكلفاً استعيرت اجزاؤه المتكلفة من الخارج ، انما هي قصة ما أصاب «جوت» نفسه اوبان شبابه . ومن هنا برئ الكتاب مما يشوه غيره من آفة الكذب والاختراع .

وقد وضع المترجم بعض الألفاظ للدلالة على بعض الكلمات الفرنجية مثل بيان (Piano) او المضراب . عَصَّر (Goûter) الوجبة الخفيفة التي تؤكل وقت العصر لكلمة عدّف وتعدّف ، لمّج وتلمّج ، تلق عند العصر وجمع اسمها على عصور . قديح (Gratin) الأشنان (Mousse) وربما كان الأولى يطلق عليها اسم طُحلب والملها الأشنة (شيبة اوكشة العجوز) . وَقَنزَج (bal) اي المرقص . واستعمل كلمة «ظروف» بدل الاحوال و« قتل الوقت » بدل صرفه وقطعه والقتل هنا اعجمي . وجمع الوادي على وديان والمعروف الاودية والاوداء والاوادية . وقال (اشجار الدوح) . والدوح الشجر العظيم فلا حاصل لمعنى (اشجار الاشجار) . ومن الفصح والتراكيب الجميلة التي يزيد احياءها : مُتَع الحياة . متوع النهار . تحدى الناظر وتعاجز المراقب .

نُزبة (حدة) من الشوق · يزوجون بنيهم من بناتهم بدالا · يوم قائظ تتوقدهواجره · وتخرق سماعه · الكلمات المندية — المخجلة · خشاة ان — خشية ان · رجاة ان — رجاء · مرجَّيَة وامل — رجاء · الصاغر المشدوه · اصحر القلب (اصحر بما في قلبه اظهره) وضاح الجبين · تركته يعب عبابه · ثقل خلاطهم (مخالطتهم) على طبعه · تعلم منذ بعيد · اجزت الفناء — جزته · عُدَواء الدار — بعدها · امرأة نصفا تفترق الابصار ملاحة · تعورت — فجأني الروع فلم اقدر ان اتقدم او اتأخر · معيشة ضنك ومستراد حرج · العيش الرفيع — لعله الرفيغ بالغين المعجمة من رفغ العيش اتسع · مخشوشب الجسم · يحذونهم على مثالهم · عصاه العقداء · رئدها — تربها في السن · ينجلون المرعى يحشونها · الود المصفَّق · مؤانستها والتظرف اليهـا · أبقي على نفسي واهاونها · ربكهـا حمله · ارفه على نفسي · لهاث الموت شدته وكربه · نَم ونَمام عين · لا يقع الا ندورا · زهاه النصر ولج به الفخر · كان مُحَدَّثا مأفوناً · رجل مأفون مماحك · راقصة مرجحنة · القى الخبر على رُسَيلاته — من دون تثبت · نفع هذه الكلمات وجداؤها · الداء الثُّبات المعجز عن الحركة · عرفت لهذا الخطب صبرت وتجلدت · ارى له صَورَة اليَّ اي ميلاً بالود · صب جلده وارتهكت مفاصله · استنشيت ذكرى ما نعمت به · كظمني الحزن ولاع قلبي الم · امعد في جوف غابة واخبط في الادغال الشواجن · لن تراني عوض · كظمت على جرتي · ادهام المحشى بالخضرة النضرة · زهقت الى الموت · المندام المشيأ —المختلف القبيح · يسمعون عنه اي يذيعون منه عيباً وفضيحة · يرجون السنتهم في عرضه — يطلقونها في الذم والاغتياب · أرفد الوقت (دنا) · يفري الفَرْي يأتي بالعجاب في عمله · امرأة عجفاء معروقة العظم مسقامة · انثاثان الحديث · استمر الكأس واجتراها اي وجدها مرة وعافها وكرهها · اقهى عن الطعام كرهه · خبب المرأة على زوجها — حملها الى النفور منه · ترويهـا على سوئها وتثبتهـا بنصها · شقق الماء الارض غمرها · اقرنت السماء بالمطر — دامت ولم تقلع · اضب له على حقد اضمره ونواه · يوزعهـا الصبر ويشعب قلبها بالسلوة · الى عشرات غيرها من النصيح في التركيب الحري بالاقتباس والاحتذاء ·

م · ك

رفائيل

لشاعر الحب والجمال (لامرتين) نقله عن الفرنسية السيد احمد حسن الزيات الطبعة الاولى بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع بمطبعة الاعتماد بمصر (ص ٢٦٢)

وهذا ايضاً من نقل الاستاذ الزيات وآخر ماخطته يده الصناع ، وذوقه المعجب ، وأدبه الممتع ، قدم له الاستاذ الدكتور منصور فهمي من حكماء مصر في هذا العصر مقدمة شائقة قال فيها : « فكان الاستاذ الزيات باختياره ترجمة هذه القصة التي استمدها كاتبها من جمال الطبيعة ، وجلال الايمان ، وشرف العاطفة ، قد حرص على ان يقرئنا صحيفتين فيهما دقائق الكونين من عالم الغيب والشهادة ، او من عالم المعنى وعالم الحس ، وبهذا الحرص قد خدم اللغة العربية أجل خدمة . واي خدمة أعظم من ان يعين الانسان لغته على بلوغ دقة الوصف ورشاقته وتحليل الشعور ودقته . » « فاذا نقل الينا الناقلون كتاباً حديثاً يتضمن أوصافاً لارض غير التي ذكرها العرب ، ويحتوي مشاعر غير التي أحسها العرب ، فانهم بعملهم هذا يعدون في لغتنا سبباً ويضيفون الى زهراتها زهوراً ، والى نغماتها ألحاناً ، والى حياتها حياة . » « وخير برهان على ذلك ان قصة رفائيل التي نحن بصددها يقرأها الانسان عربية صحيحة على أسلوب العرب ، وبيان العرب ، وفيها رخامة ألحانهم ، ورنات أوتارهم ، وهي تحمل الينا كل ما قاله وصوره كاتب من اكبر كتاب الفرنجة بلغة الفرنجة وأساليبهم ولحنهم . أو يقول المتطرفون بعد ذلك ان اللغة جامدة ! او يقول الجامدون بعد ذلك ان نفوسنا لا تتأثر بما تنقله الينا اللغة من مشاعر الغير وأساليبه في تصوير الوجود ؟ . » ثم قال ان للترجمة كما قال الصفدي طريقتين ترجمة حرف بحرف وهي ترجمة رديئة وترجمة المعنى وهو ان يأتي بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ، ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها ، سواء ساوت الألفاظ ام خالفتها . قال الدكتور فهمي ان مترجمنا هذا جمع في منهاجه في الترجمة فضائل الأساليب جميعاً فلم يفرط في نظام الكلمات اذا سلم المعنى ولم يفرط في معنى اذا لزم الامر لتفريط في مبنى قال : « وبين تزويجه للطريقتين قد افاده تمكنه

من اللغتين المنقول اليها والمنقول عنها ، فتخير الألفاظ وصقل الأساليب، وادى الامانة بما تقتضيه الدقة والايجاز . والخلاصة ان الاستاذ الزيات كان فناناً في نقله ، أميناً في فنه ، موفقاً في عمله » .

وهذا الكتاب كصنوه « آلام فرتر » ينطوي على أجمل التراكيب وأفصح الألفاظ أحيا بها كثيراً منها حري بالكتاب ان يتعاوروا استعمالها كما أحيوا مئات من مثلها . وقد وقعت للمترجم ألفاظ من الفاظ الصوفية جاء بها للتعبير عن المعاني الروحية التي أرادها المؤلف الأصلي وهذا من جميل العناية البالغة في اجادة التصوير . وقد وقعت له بعض الفاظ لم تؤثر لاحد من البلغاء منها . يتراوح بين فرسخ وثلاثة والاولى يختلف لان التراوح ان يفعل هذا مرة وهذا أخرى . بلغ اربعة وعشرين ربيعاً اي سنة ولم يعهد استعمال الربيع بمعنى السنة وهو استعمال افرنجي . والتحوير بدل التبديل والتغيير والتحوير التبييض . في بحر يوم وليلة . والاولى في مسافة يوم . سمع البندول (الرقاص) يدق الثواني . الكنبة لذلك الكرسي المستطيل . البرنز — الشبه اولى منهما . تضحي بنفسها في سبيل . يرضخا (يعطيا قليلا) الي شيئاً من مالها والغريري يقول يشرينات رضخ بهما له . يقتلوا ساعات من الفراغ فقتلوا غير عامدين ساعات من الهناء ومثلهما اقتل الوقت .

وان في اقبال القراء على ما تجود به قريحة الاستاذ الزيات في هذه الترجمات البارعة لبرهان قاطع على أن في جمهور المتعلمين من تروقهم روعة هذا اللون من الانشاء الرصين ، ولا يرتضون بعد الآن غيره من النمط النازل عن درجات الفصحاء والبلغاء .

م . ك

هدية

اهدى الى المجمع العلمي الاستاذ العلامة السيد رشيد رضا صاحب المنار بعض مطبوعات مكتبته وهي : (١) أسرار البلاغة و(٢) دلائل الإعجاز والجزء الثامن من تفسير القرآن الذي ينشره في مجلته ورسالة التوحيد للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فالمجمع يشكر له هديته .

كتب ورسائل مختلفة

(١) صور المفاوضات الخطية المتبادلة بين وفد خدام الحرمين الشريفين الهندية وبين عظمة سلطان نجد في غضون يناير — فبراير سنة ١٩٢٦ .

(٢) المنهاج في المعراج للشيخ عبد المجيد المغربي من علماء طرابلس طبع بمطبعة الحضارة بطرابلس الشام سنة ١٣٤٤ ص ٤٠ .

(٣) النظم المفيد الاحمد في مفردات الامام احمد نظم قاضي القضاة محمد بن علي العمري المقدسي الدمشقي المتوفى سنة ٨٢٠ عنيت بنشره المطبعة السلفية ومكتبتها في القاهرة سنة ١٣٤٤ ص ٨٠ .

استدراك

ذكرتُ في تعليقي على رحلة ناصر خسرو القباديانى عند ذكر قرية حاضرة انها ربما تكون محرّفة عن كفرمندة وقد تراءى لي أخيراً انها محرّفة عن حطّين اوخيارة اللتين ذكرهما ياقوت في معجم البلدان في مادة حطين اذ قال : (١) حطين موضع بين طبرية وعكا بينه وبين طبرية نحو فرسخين بالقرب منه قرية يقال لها خيارة بها قبر شعيب عليه السلام ونقل عن الحافظين ابي القاسم الدمشقي وابي سعيد المروزي ان حطين قرية وهو الصواب لان هذه القرية لا تزال آهلة بالسكان وعددهم اليوم ٨٨٩ نسمة .

اما اربل او اربد التي ذكرها فيجب ان تكون محرّفة عن (بيت اربئيل) العبرية ومعناها دار الله او مكان الله وهي اليوم خربة على نحو ثلاثة أميال شمالي طبرية وجنوبي قلعة ابن معن تسمى اربد وقد ذكرها ياقوت ايضاً بهذا الاسم (٢) .

عبد الله مخلص

(١) معجم البلدان طبع ليبسك ج ٢ ص ٢٩١ .

(٢) « « ج ١ ص ١٨٤ .

الجزء ٥ المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : ايار سنة ١٩٢٧ م الموافق ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هـ

البلاغة سبيل الوزارة (١)

« وعمرو بن مسعدة وعصره الزاهي »

عصر عمرو بن مسعدة :

من أجمل العصور بل أجمل عصور الامة العربية هذا العصر عصر المأمون العباسي الذي دام عشرين سنة ونحو نصف سنة ، كان السلطان الأكبر فيه للعقل في السياسة والادارة ، وقلّ المتوثبون على الخلافة ، والعابثون باهواء الناس ، وانصرفت الامة الى شؤونها في ظل السلام فزادت سعادتها وشملتها الرفاهية والهناء . نظر المأمون في ماضي الملة وحاضرها ، فرأى ان من اعظم ما يكدّر شرعة سياستها ، طموحُ آل البيت الى الخلافة ، وقعودهم لها بكل مرصد ، واستماتتهم في سبيلها بالخطوب والكوارث . رآهم منذ مقتل الحسين بل منذ أوائل العهد الأموي يهتبلون الغرة للاستيلاء على زمام الامر ، فيضطرب كل بلد نجم فيه ناجم منهم ، وتلتاث الاحوال ويخشى سوء المآل ، فلم ير رحمه الله الا ان يعمد الى الرفق والرحمة للكبح من جماح العلويين وتأليف شاردهم .

وكان آل امير المؤمنين علي بن ابي طالب منذ عهد المنصور ومن بعده يتوجسون خيفة من قوة العباسيين ، فيستخفون و يبتعدون عن الناس ، فخفيت بعزلتهم عن العوام حقيقة امورهم وظنوا فيهم ما يظنونه بالانبياء ، وأنشأوا يتقولون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي . فنظر المأمون في هذا الامر نظراً بليغاً وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم ، وظلم الظالم ، لسقطوا من اعينهم ولانقلب شكرهم لهم

(١) محاضرة للسيد محمد كرد علي القاها في ردهة المجمع العلمي في ١١ آذار سنة ١٩٢٧ .

ذما . ثم قال : اذا امرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً ، وانما الرأي ان نقدم احدهم ويظهر لهم إمام ، فاذا رأوا هذا ، أنسوا وظهروا ، وأظهروا ماعندهم من حركات الآدميين فيتحقق للدوام حالهم وما هم عليه مما خفي بالاختفاء . واستشارالمأمون خاصته فأشاروا عليه بعلي بن موسى الرضا ، فعقد له ولاية العهد من بعده ، « لما رأى من فضله البارع ، وعلمه الناصع ، وورعه الظاهر ، وزهده الخالص ، وتخليه عن الدنيا » ولقبه الرضا من آل محمد وزوج ابنه محمداً من ابنته ، وساوى بين آل علي وآل هاشم ، غاضاً الطرف عن شكاية بني العباس . وكانوا قد بلغ عددهم لعهده ثلاثة وثلاثين الف انسان . وبذلك استقرت الحال وكفيت المملكة شر الغوائل الداخلية زمناً . تجلى عقل المأمون في هذه الطريقة الجديدة كل التجلي ، بيد ان عمله لم يرض عنه الشيعة ولا السنة : الشيعة لا يرضيهم الا القبض مباشرة على قياد الامر وإزالة كل مُلك الا لشيعتهم والقضاء على كل خليفة وخلافة ، والسنة لانه عهد بولاية العهد الى أمثل رجل علوي في عصره ، فحاذروا ان تخرج الخلافة عنهم ، وتهامسوا بشيعية المأمون وهو فوق ماتصوروا وقدّروا ، واتخذ خصومه من هذا العمل حجة لإفضاء الخلافة اليهم فأبدوا نواجذ الشر ولكنهم لم يفلحوا .

اما صلات المأمون مع الدول المجاورة فكانت حسنة في الجملة خصوصاً مع صاحب الروم ، ومملكة هذا ظلت في ذاك العصر على شيء من التماسك والقوة أمام سلطان العرب . بيد ان كلمة المأمون كانت هي العليا في فض كل خلاف يعبث بحقوق الجوار ، ويشوه وجه السلام الجميل . كتب توفيل بن ميخائيل صاحب الروم مع وزيره يطلب من المأمون الصلح وعرض الفدية ومما قال في كتابه : وقد كنتُ كتبتُ اليك داعياً الى المسالمة ، راغباً في فضيلة المهادنة . لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً ، مع اتصال المرافق ، والفسح في المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة » . فكتب اليه المأمون يهدده برجاله « الذين يتقربون الى الله بدماء الروم وهم اظمأ الى ورود المنايا منهم الى السلامة » . جاء في آخره « غير اني رأيت ان اتقدم اليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدانية والشريعة الحنيفة ، فان ابيت ففدية توجب ذمة » .

ومن دعوة المأمون ملك الروم الى الاسلام تنبهم عزة الامة الى عصره . ثم حدثت احداث في بعض بلاد الشرق وديار مضر وربيعة واليمن ، فأطفئت نائرتها لم تنمد الارض التي انبعثت شرارتها منها . ولم تهتزلها عامة طبقات المجتمع في تلك الامبراطورية العظيمة . قال الهمداني : وقد كانت للخلفاء فتوح ولكنه لم يتسق لاحد ما اتسق للأمون وعبد الملك بن مروان والمعتصم بالله الا ان فتوح المأمون وعبد الملك كانت لمن قصد الى ملكها فبلغا في ذلك ما لم يبلغه احد في الاسلام من الملوك . والسبب في نجاح سياسة المأمون ابداً انه كان يحسن اختيار رجاله ، واختيار المرء قطعة من عقله ، ولا يعرف الرجال الا رجل ، ومن يختار لحماية البيضة وقيام الدولة امثال طاهر بن الحسين وعبدالله بن طاهر والفضل بن سهل وسهل بن هرون وعمرو بن مسعدة — موضوع محاضرتنا الآن — الى غيرهم من القواد والوزراء والكتاب والعمال لا ينال عمله غير النجاح ، ولا يعتري سلطانه ضعف ووهن .

الحالة العلمية في عهد عمرو بن مسعدة

اتم المأمون ما بدأ به جده وابوه المنصور والرشيد من ترجمة كتب الاوائل ، واستجاد مهرة التراجمة لنقل الكتب التي اخذها من الروم ، وانفذ الى بلادهم لاخذها الحجاج بن مطر ويوحنا بن البطريق وسلمة الحراني صاحب بيت الحكمة ، وجلب المترجمين من اطراف مملكته . وقد ندب المأمون ابن البطريق هذا الى الروم ليأتيه بكتاب السياسة لارسطو الذي الفه للاسكندر فلم يدع كما قال عن نفسه هيكلاً من الهياكل التي اودعتها الحكماء اسرارها الا اتاه ، ولا عظيماً من عظماء الرهبان الذين انقطعوا لمعرفتها الا قصده واتحاه ، حتى وصل هيكل عبدة الشمس الذي كان بناه هرميس الاكبر لنفسه فظفر فيه بناسك مترهب ، ذي علم بارع ، وفهم ثاقب فتلطف به واستنزله ، واعمل الحيلة حتى اباح له المصاحف المودعة فيه فوجد في جملتها الكتاب المطلوب الذي كان امره امير المؤمنين بطلبه مكتوباً بالذهب المحلول في رق مصبوغ بالارفير منقوطاً بالفضة البيضاء المحلولة ، فرجع الى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد وسعى بعون الله و بسعد امير المؤمنين وجده في ترجمته ونقله من اللسان اليوناني الى اللسان العربي .

وكان المأمون يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم وتلذه مذاكراتهم ولطالما اراد المترجمين واهل المملكة على ان ينبذوا التعصب ظهرياً وهم مؤلفون من مجوس ويهود ونساطرة ويعاقبة ومسلمين على اختلاف المذاهب . وادعى انه رأى فيما يرى النائم انه رأى رجلاً على كرسي جالساً في المجلس ، فتعاظمه وتهيبه وسأل عنه فقيل هو ارسطاطاليس فقال : اسأله عن شيء فسأله فقال : ما الحسن ؟ فقال : ما استحسنته العقول . فقال : ثم ماذا ؟ فقال : ما استحسنته الشريعة . قال : ثم ما ذا ؟ قال : ما استحسنه الجمهور . ثم قال : ماذا ؟ قال : ثم لا ثم . فكان هذا المنام من أوكد الاسباب في استخراج الكتب على ما زعموا .

ولم يكن المأمون في حاجة الى هذه التوطئة بعد ان بدأ ابوه الرشيد بترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدها بانقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها . ولما ولي المأمون الخلافة أتم ما كان شرع فيه ابوه فأخذ يغدق نعمه وصلاته على المترجمين والفلاسفة ، حتى كان يعطي حنين بن اسحق زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلاً بمثل من الذهب وكان حنين رئيس التراجمة عنده ، ومن رؤساء التراجمة يوحنا بن ماسويه وعمر بن الفرخان . وربى المأمون بني شاكر محمداً واحمد والحسن حتى صاروا علماء ، وكان ابوهم لصاً فلما اشتد ساعدهم حققوا طول محيط الارض ، وكانوا يرزقون النقلة نحو خمسمائة دينار في الشهر ، وكان دخل محمد وحده اربعمائة الف دينار . وهؤلاء الاخوة الثلاثة الذين أولدهم لص ليكونوا علماء أشبه بالاخوة الثلاثة ابناء بويه الذين أنجبهم صياد ليفتحوا البلاد ويسوسوا العباد . ومن النقلة حبيش بن الحسن وثابت بن قرة والحجاج ابن مطر وحبيب بن بهريز وعلي بن يحيى المنجم وابو نوح النصراني . وكان جرجس ابن بختيشوع عند المأمون مثل ابيه اذا خاطبه كناه بابي عيسى جبرائيل واكرمه زيادة على ما كان ابوه يكرمه . ومنهم بختيشوع بن جرجس وجبرائيل بن بختيشوع .

ومن منجميه حبش الحاسب واحمد الفرغاني وسند بن علي والعباس بن سعيد الجوهري وعبد الله بن سهل بن نوبخت ويحيى بن ابي منصور وكان هذا في بيت الحكمة ، ومن علمائه محمد بن موسى الخوارزمي صاحب الازياج وصورة الارض ، كان منقطعاً الى خزانة كتب الحكمة للمأمون ، وكذلك علان الشعوبي كان ينسخ للمأمون

كما كان سهل بن هرون رئيس بيت الحكمة ، والغالب انه كان في بغداد عدة بيوت تدعى دور الحكمة او بيوت الحكمة[1] الى غير هؤلاء من المترجمين والمؤلفين في العلوم المادية . والمأمون هو الذي جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت اليه ودعيت الصورة المأمونية صوروا فيها العالم بافلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الامم والمدن الى غير ذلك ، وهي احسن مما تقدمها من جغرافية بطليوس وجغرافية ماربنوس . وقد وضع له علماء رسم الارض — قال الزهري : انهم كانوا سبعين رجلاً من فلاسفة العراق — كتاباً في الجغرافيا أعان عمال الدولة على التعرف الى البلاد والامم التي أظلتها الراية العباسية . هذا الى عنايته بالفلك ، وفلكيه الفزاري اول من استعمل الاسطرلاب من العرب . وعُني بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ، ومعرفة العقاقير والنبات والحيوان الى ماشاكل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب ، وفتح به المأمون باب العقل على مصراعيه في كل مطلب وشأن .

قال صاعد : ان المأمون أقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم من كتب أفلاطون وارسطاطاليس وأبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليوس وغيرهم من الفلاسفة فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم إحكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس اولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون بذلك عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحققين والمحدثين والمتكلمين واهل اللغة والاخبار والمعرفة بالشعر والنسب فأتقن جماعة من ذوي القبول والتعلم في

(١) كان جد احمد الضبي المعروف بالصنوبري الحلبي صاحب بيت حكمة من بيوت حكم المأمون .

ايامه كثيراً من أجزاء الفلسفة وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا اصول الادب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية ايام اكتمالها وزمان اجتماع شملها .

وازدان عصر المأمون بكثير من حملة الشريعة والادب ومنهم يحيى بن اكثم وابو محمد اليزيدي والحسن بن زياد وابو داود الطيالسي وابو عبيد القاسم بن سلام وابن الأعرابي والنضر بن شميل وابو عمرو الشيباني ومحمد بن عمر الواقدي وابوعبيدة والفراء والاخفش والاصمعي والصغاني والضبي والشافعي وابن سعد وابن داود وابن ابي دؤاد وابن حرب وابن حنبل والجاحظ والقواريري وقتيبة وسعدويه الواسطي وابن الجعد وابن علية الاكبر وابونصر التمار وابو معمر القطيعي وابوالعوام البزاز وابن شجاع وبشر المريسي وبشر بن الوليد وسجادة ومحمد بن نوح وابو هرون بن البكاء والهذيل محمد بن الهذيل وابو زكريا المري ومحمد بن مبشر ، الى مئات غيرهم كانوا فخر الدولة وعنوان نبوغ الامة . اما الشعراء والكتاب فكانوا طبقة عالية كثيرة العدد والحصى جيدة المنحى والأسلوب تغلب الرقة والجزالة على اهل هاتين الصناعتين ، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة حتى غدا الشعر المدني البديع ظاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي ، بعيداً عن وصف الاطلال والدمن والركاب وطلب الثأر والمفاخرات الفارغة . هذا وكان الجمهور يشارك الادباء في فهم الشعر ، وقدر الخطب والرسائل قدرها ، فلم يكن الشعراء في وادٍ والامة في آخر ، بل كان الشاعر او الكاتب اذا قرض شعراً او حبر خطاباً تتناقله الايدي في الحال ، وتتعاوره الرواة فينشر في الامصار . وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الاديب ، وشعر الشاعر ، وخطبة الخطيب ويحثه على تجويد مقاله .

أعمال الكبير كبيرة ، والمأمون العظيم باعماله وأقواله لم يخرج عن هذا الحد ، فكان خليفة المسلمين بكل ما في لفظ الخلافة من معنى شريف يجمع مصالح الدين والدنيا . كان رحمه الله يفكر منذ عهد بعيد في خلق القرآن حتى اعتقد ان كل من لم يقل بقوله ضالٌ ، فوضع هذا البحث موضع المناقشة بين العلماء فقال السواد الأعظم بقوله ، وأبى بعضهم تورعاً ان يوافقوه على ان القرآن مخلوق ، فطلبهم للبحث وكان في مصيفه في الرقة فكتب الى عامله في بغداد ان يمتحن القضاة والمحدثين ويكشفهم

عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وقال له « واعلمهم ان امير المؤمنين غير مستعين في عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من امور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه » و « انه لا توحيد لمن لم يقر بان القرآن مخلوق » وامر ايضاً بان يكتب الى الآفاق بذلك فوافق اكثر الممتحنين وهرب أفراد وحاولوا التملص . وقد أحدث هذا الرأي ضجة في الامة شأن كل فكر جديد ينقسم فيه الناس بين مثبت ونافٍ . ودل بعض الممتنعين عن التصريح بما لا يعتقدونه على الاخذ بالاحتياط في دينهم ، فأوذي بعضهم وما أراد المأمون أذاهم ، وقبض الى ربه وبعض الذين توقفوا عن التصريح بما أريدوا على البيان فيه قيد السجن . وكان من مفاخر هذا الخليفة ايضاً تحكيم العقل في الشريعة فاتخذ أعداؤه من ذلك سبيلاً الى النيل منه وسموا ذلك المحنة . وفي هذا العصر الزاهر نشأ عمرو بن مسعدة وكان من جملة رجالات السياسة فيه .

اصل عمرو بن مسعدة وحليته ونشأته :

هو عمرو بن مسعدة بن سعد بن صُول بن صُول . وصُول (بضم الصاد) كان رجلاً تركياً وكان مَلِك واخوه فيروز على جرجان وتمجسا بعد التركية وتشبها بالفرس وصول كما قال البيروني لقب ملوك دهستان كان يطلق عليهم كما يطلق شاهنشاه وكسرى على ملوك الفرس الساسانية وباسيل وهو قيصر على ملوك الروم وبطليوس على ملوك الاسكندرية وتبّع على ملوك اليمن وخاقان على ملوك الترك والخزر والقرغز وحنوته على ملوك الترك الغزية وبغبور على ملوك الصين وبلهرا على من ولي الهند ورابي على من استأثر بقَنُّوج والنجاشي على صاحب الحبشة وكابيل على ملوك النوبة ومهراج على ملوك جزائر البحر الشرقي وإصْبَهْبَذ على ملوك جبال طبرستان ومصمغان على ملوك دنباوند وشار على ملوك غرجستان (غرشستان) وزاذويه على ملوك سرخس وبهمنه على ملوك نَسا وأَبِيْورد ونيدون على ملوك كَشّ وإخشيد على ملوك فرغانة وأفشين على ملوك أشروسنة وتدن على ملوك الشاش وماهويه على ملوك مرو وكنبار على ملوك نَيسابور وطرخون على ملوك سمرقند والحجاج على ملوك السرير واناهبذ على ملوك جرجان وقبّار على ملوك الصقالبة ونمروذ على ملوك السريانيين وفرعون على ملوك القبط

وشير باميان على ملوك باميان والعزيز على ملوك مصر وكابل شاه على ملوك كابل وترمذشاه على ملوك الترمذ وخوارزم شاه على ملوك خوارزم وشروانشاه على ملوك شروان وبخار خداه على ملوك بخارا .

ولما وافى يزيد بن المهلب بن ابي صفرة في ولاية سليمان بن عبد الملك بن مروان جرجان أمنها فأسلم صول على يده وغدا محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها بعد ذلك . وكان بعض اهليهم ادعوا انهم عرب وان العباس بن الاحنف الشاعر خالهم . وكان مسعدة والد عمرو مولى خالد بن عبد الله القسري امير العراق وكان يكتب له . وكتب لخالد بن برمك ثم كتب بعده لابي أيوب وزير المنصور على ديوان الرسائل . وكان لمسعدة اربعة بنين مجاشع ومسعود وعمرو ومحمد . ومجاشع هو الذي يقول فيه ابو العتاهية :

علمت يا مجاشع بن مسعدة ان الشباب والفراغ والجدة
مفسدة للمرء اي مفسدة

بدأ عمرو بن مسعدة في خدمة الدولة عاملاً من العمال فظهرت كفايته وبلاغته ، وبالبلاغة توصل الى الخليفة فعدّ احد أفراد قلائل في رجاله ، قال احمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبيده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويصعد فيه ويصوّب ، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفت اليّ وقال ، يا احمد أراك مفكراً فيما تراه مني ، قلت : نعم ، فقال : ان في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة ، زعم ان البلاغة انما هي التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ ، على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم ان احداً يقدر على ذلك . وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة الينا ، ففككته فاذا فيه : « كتابي الى اميرالمؤمنين ، ومن قبلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الانقياد والطاعة ، على أحسن ماتكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت معه امورهم » . فلما قرأته قال : ان استحساني إياه بعثني ان امرت للجند قبله بأعطياتهم لسبعة اشهر ، وانا على مجازاة الكاتب بما يستحقه من حلّ محله في صناعته . وفي رواية ان المأمون امر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية

اشهر وانه قال لاحمد بن يوسف لله در عمرو ما ابلغه ، الا ترى الى ادماجه المسألة في الإخبار ، واعفائه سلطانه عن الإكثار .

وكان عمرو بن مسعدة وكنيته ابو الفضل ابيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه وكان يخضب وتوفي بأذنة سنة سبع عشرة ومائتين . ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيذه وغاية ماعرفناه انه كان احد أخوة اربعة احسن ابوهم — وكان كاتباً ايضاً — تربيتهم كل الاحسان حتى جاءت من احدهم هذه البلاغة النادرة التي كان من اثرها ان أصبح عشير المأمون ، وكان هو وابو عباد ثابت بن يحيى يكشبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه . ولكي يصل الرجل الى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة المعظم في كل شؤونه يجب ان ينطوي على صفات عالية يعزّ مثلها في الأقران والأتراب .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم فرمى بها اليّ وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهري وقال : ايُّ وزير في جلدك . وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه : انه أبلغ الناس ، ومن بلاغته ان كل احد اذا سمع كلامه ظن انه يكتب مثله فاذا رامه بَعُدَ عليه . وهذا كما قيل لاحد البلغاء ما حدُّ البلاغة فقال : التي اذا سمعها الجاهل ظن انه يقدر على مثلها ، فاذا رامها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو انه الف في موضوع خاص وأفرد مسألة في التأليف ، وعده ابن النديم في الشعراء الكتاب ولم يذكر الا ان له ولاخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر وهي من الضائع ايضاً . والغالب ان مهام الدولة لم تترك له وقتاً يصرفه في درس خاص ، او وضع كتاب او رسالة : وما تلقطه العلماء والادباء من كلامه ، فهو مما صدر عنه بالمناسبات ، ورواه له المعجَبون به ، وما أعظم المفقود منه . والمظنون ان لو كانت جمعت له رسائله على ايجازها لكان منها ديوان كبير ، لان من صرف أعواماً طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات السياسية والادارية في ذاك المجتمع العظيم لا شك انه تجتمع له صفحات كثيرة مهما كان مقلاً معروفاً بالايجاز .

وأفادنا ابن عساكر مؤرخ دمشق ان عمرو بن مسعدة زار هذه العاصمة مع المأمون ، وانه من رجال الحديث فأسند حديثاً عن المأمون في سند ذكره عن عمرو بن مسعدة قال : سمعت المأمون امير المؤمنين يقول حدثني ابي عن ابيه عن عمه عبد الصمد بن علي ابن عبد الله بن عباس عن ابيه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : علقوا السوط حيث يراه اهل البيت فانه أدب لهم . وفي الامثال « علق سوطك حيث يراه اهلك ، والمعنى اجعل نفسك بحيث يهابك اهلك ولا تغفل عنهم وعن تخويفهم وردعهم » .

ولم نعلم نوع الدراسة التي انصرفت اليها همة عمرو بن مسعدة في صباه حتى بلغت به البلاغة ذاك المقام ، بيد ان ظواهر الحال تدل كل الدلالة على ان من كان هذا شأنه من الانشاء في ذاك العصر الزاهي بين يشار اليهم بالبنان في البيان ، يستحيل ان يبلغ هذا المبلغ الا بادوات كثيرة ، بل لا يتأتى له ذلك الا بجميع أدوات البيان والشريعة ، يجمعها الى ماخصت به فطرته من سلامة الطبع وجودة الابداع ، وفوق ذلك لا بدّ له من التخرّج بهذه الصناعة أعواماً طويلة . وصحف التاريخ لم تعرفنا الى عمرو بن مسعدة الا انه تام الادوات ، كأن بلاغته مما ارتجل ارتجالاً او وهبته اياها الفطرة عرضاً . وصرف عمرو ايام حياته على مايظهر بانفاذ امر ولي امره وجعل نفسه وقفاً على مهام الخلافة ، فأقبلت عليه الدنيا اقبالاً عظيماً فنعم ولذ واغتبط وقصده القاصدون ، وطابت نفسه باصطناعهم والاحسان اليهم ، وعطف على العفاة والقصاد فاستكثر من الأنصار ، وانبسطت نفسه و يده بالعطاء فتعشقته نفوس الناس واهل الدولة ، والخليفة من وراء ذلك يمده و يطلق يده في المال والنوال . ومن جعل كده في هذه الأعمال يتعذر عليه ان ينقطع الى نفسه اياماً يصرفها في عمل يخلد به ذكره و يعم القاصي والداني والحاضر والمقبل نفعه وذلك لان هذا العمل مما يستغرق العمر ، ولا يبرز فيه الا من حكموا على أوقاتهم ومُتّعوا بالفراغ ، ولا سبيل الى ان يجمع التطال الى ذلك بينه وبين شيء آخر من أعمال العالم وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

واختلفوا في كون عمرو بن مسعدة ولي الوزارة او لم يتولها فقال ياقوت : سماه

بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لانه كان وزيراً وهو قوله :

لقد اسعد الله الوزير ابن مسعدة   وبث له في الناس شكراً ومحمدة

وقال المسعودي : ان المأمون استوزر الفضل بن سهل ثم أخاه الحسن بن سهل فلما اظهر العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله ، عدل المأمون الى استكتاب كتاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم ، وانه ليس في عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم فاستوزرهم واحداً بعد واحد اولهم احمد بن ابي خالد ثم احمد بن يوسف ثم ابو عباد ثابت بن يحيى وعمرو بن مسعدة بن صول ، وكان يجري مجراهم ولا يعده كثير من الناس في الوزراء ، قال : ولم يكن يسمى بين يدي المأمون احد من كتابه وزيراً ، ولا يكاتب بذلك فلاجل هذا ترك كثير من الناس ان يعد من ذكرنا في الوزراء . ومهما كان فالرتبة التي بلغها عمرو بن مسعدة وزارة وزيادة .

روى البيهقي ان المأمون قال لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكثم : اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي انهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي الا بانفسهم ، انه من تبع منكم صغار الامور تبعه التصغير والتحقير وكان قليل ما يفتقد من كبارها اكثر من كثير ما يستدرك من الصغار فترفعوا عن دناءة الهمة ، وتفرغوا لجلائل الامور والتدبير واستكفوا الثقات وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش بل بجليلها وكبارها واعلموا ان اقدامكم ان لم تتقدم بكم فان قائدكم لا يقدمكم ولا يغني الولي عنكم شيئاً ما لم تعطوه حقه . وكان اليه ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والازمة ويندبه الخليفة في مهام السلطنة .

وسواء تقلد ابن مسعدة الوزارة ام لم يتقلدها فان المهمات السياسية التي كان يندب اليها مهمة للغاية تدل على الثقة به ، فقد حكى ابن منصور وكان على بريد عبدالله بن طاهر يخبر المأمون ان عبدالله بن طاهر يخرج في كل ليلة من عسكره ويخرج اليه نصر بن شبث فيجتمعان ويتحدثان ، فدعا المأمون بعمرو بن مسعدة فأمره ان يظهر علة يحتاج ان يقيم لها في منزله وان يخرج على خمس عشرة دابة من دواب البريد ، ولا يعلم احداً حتى يصير الى عبدالله بن طاهر ويقول له : يا ابن الفاعلة لقد هم امير المؤمنين ان يأمر عبداً اسود ثم يوجهه مكانك ويحملك سائساً له . وامر عمراً ان لا يسلم عليه ولا يسمع

له جواباً · فخرج عمرو فلما اجتمع مع عبدالله لم يسلم عليه حتى بلغه الرسالة على رؤوس الناس ثم انصرف ، ولم يسمع منه جواباً · فلما كان يوم الاربعين من مصير عمرو وافى نصر بن شبث · ونصر هذا كان عصى على المأمون وعبد الله بن طاهر من أجل قواد المأمون ·

وذكروا ان المأمون(١) قال لعمرو بن مسعدة وهو في الرقة : ما زلت تسألني في الرخجي حتى وليته الأهواز ، فقعد في سرة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً ، ولم يوجه الينا بدرهم واحد ، أخرج اليه من ساعتك ، قال عمرو : فقلت في نفسي أبعد الوزارة أصير مستحثاً على عامل خراج ، ولكن لم أجد بداً من طاعة اميرالمؤمنين ، فقلت اخرج اليه يا امير المؤمنين فقال : احلف لي انك لا تقيم ببغداد الا يوماً واحداً ، فحلفت له ، ثم انحدرت الى بغداد في سفينة فلما صرت بين ديرهزقل ودير العاقول اذا رجل يصيح يا ملاح رجل منقطع · فأمر بان يركب معه ، وكان من حديثه معه بعد ان ادعى انه حائك فكان حائك كلام ، وأعجز عمرو بن مسعدة باسئلته ما هو مدون في كتب الادب ، ولما عاد الى الخليفة اخبره خبر الحائك وحدثه حديثه ، فقال له الخليفة فلاي شيء يصلح هذا الرجل فقال هذا أعلم الناس بالمساحة والهندسة فولاه المأمون البناء والمرمة ·

شيء من كلامه

ومن كلام عمرو بن مسعدة : أعظم الناس أجراً ، وأنبههم ذكراً ، من لم يرض بموت العدل في دولته ، وظهور الحجة في سلطانه ، وايصال المنافع الى رعيته في حياته ، وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق في ايامه ، وبعد وفاته وانقراضه · وقال : الخط صور الكتب ترد اليها أرواحها ·

---

(١) في رواية ابن عبد ربه في العقد ان المعتصم هو الذي عهد الى عمرو بن مسعدة وليس ذلك بصحيح لان عمراً مات قبل المأمون وعزا ابن قتيبة القصة الى الرشيد ولم يعلم من طريق مأمون ان عمراً بلغ الوزارة في ايام الرشيد بل ان المأمون هو الذي رفعه اليها ·

وقال عمرو بن مسعدة (او ثابت ابو عباد) لا تستصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثر من امتاعه لك بشكر لسانه وفوائد عمله ، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك فان هذا لا يكون الا رديء الغيب ، سريعاً الى الذم.

وكتب الى الحسن بن سهل : اما بعد فانك ممن اذا غرس سقى ، واذا أسس بنى ، ليستتم تشييد أسه ، و يجتني ثمار غرسه ، وثناؤك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مشفٍ على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقي ماغرست ان شاء الله .

وكتب الى بعض أصحابه في شخص يعز عليه : اما بعد فموصل كتابي اليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يديرونني عن سالم واديرهم   وجلدة بين العين والانف سالم

اي يحل مني هذا المحل .

وكتب الى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضاً : « اما بعد فقد استشفع بي فلان باامير المؤمنين لتطولك علي ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرزقون به ، وأعلمته ان امير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته والسلام » فكتب اليه المأمون قد عرفنا توطئتك له وتعريضك لنفسك وأجبناك اليها ووافقناك عليها اه . وقوله : « ان اميرالمؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته » من الكلام السري الذي يدل على مبلغ أدب عمرو وبعد غوره في السياسة ووقوفه على روح عصره ونفسية الخلفاء .

قدم رجل من أبناء دهاقين[1] قريش على المأمون لعدة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظار خروج امر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : توصل مني رقعة الى اميرالمؤمنين تكون انت الذي تكتبها تكن لك علي نعمتان . فكتب : « ان رأى امير المؤمنين ان يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ، او يأذن له بالانصراف الى بلده فعل ان شاء الله » فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً فجعل يعجب من حسن

(١) الدهاقين الزعماء ارباب الاملاك بالسواد واحدهم دهقان بكسر الدال معرب .

لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نتيجتها ياأميرالمؤمنين . قال : الكتاب له في هذا الوقت بماوعدناه ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائةألف درهم ، صلةً عن دناءة المطل ، وسماجة الإغفال اه . وهذا مما يدل على سعة عقل المأمون وولوعه بالبلاغة وتقديره اهلها حق قدرهم، دع ماهنالك من نفس ماأحبت الاالجود والعطاء .

ومن حكم عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الإخاء ، لا عبودية الرقّ . الود أعطف من الرحم . ان الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة . عليكم بالاخوان فانهم زينة في الرخاء ، وعُدة للبلاء . مَثَل الاخوان مثل النار ، قليلها متاع وكثيرها بوار . النفس بالصديق ، آنس منها بالعشيق ، وغزل المودة ، أرق من غزل الصبابة . من حقوق المودة ، عفو الاخوان ، والاغضاء عن تقصير ان كان . ذكر رجل رجلاً فقال حسبك انه خلق كما تشتهي اخوانه . المودة قرابة مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما ، الا لفضلهما او فضل احدهما . أسرع الاشياءانقطاعًا مودة الأشرار . المحروم مَن حرم صالحي الأخوان . لقاء الخليل ، شفاء الغليل . قلة الزيارة ، أمان من الملالة . اخوان السوء كشجر النار يحرق بعضه بعضًا . علامة الصديق اذا أراد القطيعة ان يؤخر الجواب ، ولا يبتدئ بالكتاب . لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الانس ، أثمرت مودته ندما . اذا قدمت الحرمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب ، خير من باطن الحقد . ما أكثر من يعاتب لطلب علة . ويبقى الود مابقي العتاب . كون الحقد في الفؤاد ككون النار في الزناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمنن عدوك وان كان مقهوراً ، واحذره وان كان مفقوداً ، فان حد السيف فيه وان كان مغمودا . لا تعرض لعدوك في دولته فانها اذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يومًا وقد خرج من باب البستان ببغداد فصاح به رجل بصري : يا امير المؤمنين اني تزوجت بامرأة من آل زياد وان ابا الرازي فرّق بيننا وقال هي امرأة من قريش قال : فأمر عمرو ابن مسعدة فكتب الى ابي الرازي : انه قد بلغ امير المؤمنين ما كان من الزيادية

وخلعك إياها اذ كانت من قريش فمتى تحاكمت اليك العرب لا أمَّ لك في أنسابها ، ومتى وكلتك قريش ياابن الخناء(١) بان تلحق بها من ليس منها ، تخلّ بين الرجل وامرأته . فلئن كان زياد من قريش انه لابن سمية بغي عاهرة لا يفخر بقرابتها ولا يتطاول بولادتها ، ولئن كان ابن عبيد لقد باء بأمر عظيم اذ ادعى الى غير ابيه لحظ تعجله وملك تهره اه .

وامر المأمون عمرو بن مسعدة ان يكتب لرجل به عناية الى بعض العمال في قضاء حقه وان يختصر كتابه ما امكنه ، حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد لا زيادة عليه فكتب عمرو : كتابي كتاب واثق بمن كتبت اليه ، معني بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكتب الى بعض الرؤساء وقد تزوجت أمه فساءه ذلك ، فلما قرأها ذلك الرئيس تسلى بها ، وذهب عنه ما كان يجده ، وقيل ان هذه الرسالة من إنشاء ابن العميد وهي : الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة ، وهدانا لستر العورة ، وجدع بما شرع من الحلال انف الغيرة ، ومنع من عضل الامهات ، كما منع من وأد البنات ، استنزالاً للنفوس الأبية ، عن الحمية حمية الجاهلية ، ثم عرّض لجزيل الاجر ، من استسلم لواقع قضائه ، وعوّض جليل الذخر من صبر على نازل بلائه ، وهنأك الذي شرح للتقوى صدرك ، ووسع في البلوى صبرك ، والهمك من التسليم لمشيئته ، والرضا بقضيته ، ما وفقك له من قضاء الواجب في احد ابويك ، ومن عظم حقه عليك ، وجعل الله تعالى جده ما تجرعته من أنف ، وكظمته من أسف ، ممدوداً فيما يعظم به اجرك ، ويجزل عليه ذخرك ، وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها ، المنتظر من ارتماضك بدفنها ، فتستوفي بها المصيبة ، وتستكمل عنها المثوبة ، فوصل الله لسيدي مااستشعره من الصبر على عرسها ، بما يكتسبه من الصبر على نفسها ، وعوضه من امرة فرشها ، أعواد نعشها ، وجعل تعالى جده ما ينعم به عليه بعدها من نعمة ، معرى من نقمة ، وما يوليه بعد قبضها من منحة ، مبرأ من محنة ، فأحكام الله تعالى جده وتقدست اسماؤه ، جارية على

(١) الأخناء الأمة المنتنة المغابن .

غير مراد المخلوقين ، لكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين ما هو خير لهم في العاجلة ، وابقى لهم في الآجلة ، اختار الله لك في قبضها اليه ، وقدومها عليه ، ماهو أنفع لها ، واولى بها ، وجعل القبر كفواً لها والسلام .

أقول وهذه رسالة أشبه بكلام ابن العميد للتوازن والترصيع والمزاوجة الظاهرة في اسجاعها ، ثم للطول الذي لم يكد يؤثر في شيء مما انتهى الينا من كلام عمرو بن مسعدة ، وكلامه بايجازه اشبه بالتوقيعات . وهناك قرينة أخرى وان كانت ضعيفة جداً وهي ان عمرو بن مسعدة لما سأله حائك الكلام في السفينة وهو قاصد الى الاهواز كما مرّ بنا قبل هذا عن طبقات الكتاب وقال له انا كاتب رسائل قال الحائك لعمرو : « فصديق لك تكاتبه في المحبوب والمكروه تزوجت أمه كيف تكتب اليه تهنئه او تعزيه . قال عمرو : هو والله الى التعزية أقرب قال : كيف تعزيه قلت : لااجد الى ذلك سبيلاً . الى ان عاد ذلك الحائك واجاب عن طبقات الكتاب طبقة طبقة ثم قال في حل الاشكال : « اما الرجل الذي تزوجت أمه فتكتب اليه ان الأقدار تجري بخلاف محابّ المخلوقين ، وستر في عافية خير من شائنة في اهلها ، والله يختار للعباد ، فخار الله لك في قبضها اليه ، فان القبور أكرم لها والسلام » . و بهذا رأينا ان الذي اجاب في هذه المسألة هو الحائك لا سيد الكتاب عمرو بن مسعدة الذي نجذته التجارب وراجت بضاعته بهذا الضرب من الكتابة فقد قال عن نفسه انه كتب الى عامل دستبي كتاباً اطاله فأخذه المأمون بيده و كتب « قد كثر شاكوك فإما عدلت ، وإما اعتزلت » .

ولا ارى ان نمرّ بهذا الايجاز بل الاعجاز دون ان نعرض له بشيء يبقى على ذكر منا . فالايجاز في اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل . وقال ابن الاثير هو حذف زيادات الالفاظ ، وهذا نوع من الكلام شريف لا يتعلق به الا فرسان البلاغة ممن سبق الى غايتها وما صلى ، وضرب في أعلى درجاتها بالقدح المعلى ، وذلك لعلو مكانه ، وتعذر إمكانه ، والنظر فيه هو الى المعاني لا الى الألفاظ ، فرب لفظ قليل يدل على معنى كثير ، ورب لفظ كثير يدل على معنى قليل ، ومثال ذلك الجوهرة الواحدة بالنسبة الى الدراهم الكثيرة فمن ينظر الى طول الالفاظ

يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر الى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها . والبلاغة كما قال ارسطاطاليس ان تجعل في المعنى الكثير كلاماً قليلاً ، وفي القليل كلاماً كثيراً . وهذه البلاغة الموجزة يلمسها المرء في كلام هذا الفنان الفتان الذي فتن نظراءه بفنه ، ولسان حال ما يقوله المناطقة العبرة بالكيفية لا بالكمية .

لا تجد في الفاظ عمرو شيئاً من الوحشي ولا السوقي ، فألفاظه مختارة متخولة ، ترتضيها وتفهمها عامة طبقات القارئين والسامعين . اما تركيبه ونسجه ، وهناسر نصاحته ، فهو أيسر تركيب يجري مع الطبع ، كأنه في ايراده يتكلم كلامه المعتاد معرباً و يسطره في الورق . نعم وهناك صعوبة تحدّ به في جوامع كلمه . الاحجار الكريمة والمعادن الثمينة قد تتنقل في الايدي ويعجب بها ناظروها ، ويفاخر بها مالكوها ، ولكن متى وصلت الى ايدي الصائغ الحاذق والجهبذ النقاد ، تزيد بهاء ورُواء ، وتجلي فيها يد الصناع وفكر الفنان . فالسبك الحسن في كلام عمرو هو الذي تفرد فيه ، ولما رأى انه أبدع فنه زاد في تجويده وطال مرانه عليه ، لانقطاعه معظم حياته الى الخدمة ، والسامي من جملة خصائصه ان يوجز و يجمجم احياناً ويعرّض لئلا يؤخذ باقراره وتؤول له عباراته ، فكان في ذلك اكبر عون لعمرو على النبوغ في هذه الطريقة طريقة ابن المقفع وسهل ابن هرون واضرابهما .

نقلنا أمثلة قليلة من نثر عمرو بن مسعدة اما شعره فقليل جداً . ذكر المترجمون له انه كان له فرس أدهم أغر ، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسناً ، فبلغ المأمون خبره وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك ، فخاف ان يأمر بقوده اليه فلا يكون له فيه محمدة ، فوجه به اليه هدية وكتب معه :

يا اماماً لا يدا	نيه اذا عدّ امام
فضل الناس كما يفـ	ـضل نقصاناً تمام
قد بعثنا بجواد	مثله ليس يرام
فرس يزهى به للـ	ـحسن سرج ولجام
دونه الخيل كما دو	نك في الفضل الانام
وجهه صبح ولكن	سائر الجسم ظلام

والذي يصلح للمو لى على العبد حرام

وعمرو هو القائل :

ومستعذب للهجر والوصل اعذب أكاتمه حبي فينأى وأقرب
اذا جدتُ مني بالرضا جاد بالجفا ويزعم اني مذنب وهو أذنب
تعلمت الوان الرضا خوف هجره وعلمه حبي له كيف يغضب
ولي غير وجه قد عرفت طريقه ولكن بلا قلب الى اين أذهب

قالوا وهذان البيتان الاخيران متنازعان . على ان محمد بن عمرو بن مسعدة ذكر ان اباه لم يقل من الشعر شيئاً الا بيتاً واحداً نوقع في ظهر رقعة لرجل :

اعزز علي بأس انت طالبه لم يكن النجح فيه وانقضى أمده

محاسنه للشعراء والادباء والعلماء

ثبت ان عمرو بن مسعدة كان يعطف على الشعراء و يرتاح الى الشعر والادب كل الارتياح ، وذكروا ان شقيقه مجاشع بن مسعدة كان صديقاً لابي العتاهية الشاعر يقوم بحوائجه كلها ، و يخلص مودته ، فمات ، وعرضت لابي العتاهية حاجة الى اخيه عمرو بن مسعدة فتباطأ فيها فكتب اليه ابو العتاهية :

غنيت عن العهد القديم غنيتا وضيعت وداً بيننا و نسيتا
ومن عجب الايام ان مات مألفي ومن كنت تغشاني به وبقيتا

فقال عمرو : استطال ابو اسحق اعارنا وتوعدنا ، ما بعد هذا خير ، ثم قضى حاجته .

ومرّ عمرو بن مسعدة مرة بابي العتاهية وهو جالس على الطريق ، فوقف عليه يسأل عن حاله ، فما قام اليه ورفع اليه رأسه وهو يقول :

أقعدني اليأس منك فما أرفع رأسي اليك من كسلي

وعرفنا من هذا ان ابا العتاهية كان يدلّ على عمرو بن مسعدة وكلاهما كان يعرف لصاحبه قدره .

وهجا شقيقه مجاشع حماد عجرد وهو صبي حينئذ فشبب حماد بامه فبلغ الشعر عمرو

ابن مسعدة فبعث الى حماد بصلة ، وسأله الصفح عن اخيه ، ونال اخاه بكل مكروه ، وقال له : ثكلتك أمك أتتعرض لحماد ، وهو يثاقف [1] بشاراً ويقاومه ، والله لو قاومته لما كان لك في ذلك فخر ، ولئن تعرضت له ليتهكنك وسائر اهلك وليفضحنك فضيحة لا يغسلها ابداً عنا .

لما أعيت الحسينَ بن الضحاك الحيلةُ في رضا المأمون عنه رمى بامره الى عمرو بن مسعدة وكتب اليه :

انت طودي من بين هذي الهضاب | وشهابي من دون كل شهاب
انت يا عمرو قوتي وحياتي | ولساني وانت ظفري ونابي
أتُراني أنسى اياديك البيـ | ـض اذا اسود نائل الاصحاب
اين عطف الكرام في مأقط [2] الحا | جة يحمون حوزة الآداب
اين اخلاقك الرضية حالت | فيَّ ام اين رقة الكتاب
انا في ذمة السحاب وأظما | إن هذا لوصمة في السحاب
قم الى سيد البرية عني | قومة تستجر حسن خطاب
فلعل الاله يطفئ عني | بك ناراً عليَّ ذات التهاب

قال : فلم يزل عمرو يتلطف للمأمون حتى اوصله اليه ، وادرَّ رزقه .

وفي عمرو بن مسعدة يقول ابو محمد عبد الله بن ايوب التيمي :

أعني على بارق ناصب | خفي كوحيك بالحاجب
كأن تألقه في السما | ء يدا كاتب او يدا حاسب
فروّى منازل تذكارها | يهيج من شوقك الغالب
غريب يحن لأوطانه | ويبكي على عصره الذاهب
كفاك ابو الفضل عمرو الندى | مطالبةَ الامل الكاذب
وصدقُ الرجاء وحسنُ الوفاء | لعمرو بن مسعدة الكاتب
عريض الفناء طويل البنا | ء في العز والشرف الثاقب

(١) يثاقف يخاصم . (٢) المأقط موضع القتال .

هو المرتجى لصروف الزما ن ومعتصم الراغب الراهب
جواد بما ملكت كفه على الضيف والجار والصاحب
بأدم الركاب ووشي الثيا ب والطرف والطفلة الكاعب
نؤمله لجسام الامو ر ونرجوه للجلل الكارب

وختمها بقوله :

كسبت الثناء وكسب الثنا ء افضل مكسبة الكاسب
يقينك يجلو ستور الدجى وظنك يخبر بالغائب

وأنشد محمد بن داود بن الجراح لمحمد البيدق النصيبي وقيل لمسلم بن الوليد في عمرو بن مسعدة وقد اشتكى :

قالوا ابو الفضل معتل فقلت لهم نفسي الفداء له من كل محذور
يا ليت علته بي ثم كان له اجر العليل واني غير مأجور

وكان بين عمرو بن مسعدة وابراهيم بن العباس الصولي مودة وقرابة فحصل لابراهيم ضائقة بسبب البطالة في بعض الاوقات فبعث له عمرو مالاً فكتب اليه ابراهيم :

سأشكر عمراً ما تراخت منيتي ايادي لم تمنن وان هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى اذا النعل زلت
رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

وذكر دعبل الشاعر ان عمرو بن مسعدة كان يقوم بامر عمرو بن ابي بكر يعني الموصلي قاضي دمشق وكان محمد بن داود يحمل عليه فقال :

لشتان بين المدعين وزارة وبين الوزير الحق عمرو بن مسعدة
فمنهم في الناس ان يجبهوهم وهم ابي الفضل اصطناع ومحمدة
فأسكن رب الناس عمراً جنانه وأسكنهم داراً من النار موصدة

قال حميد بن بلال : ولي عمرو بن مسعدة فارس وكرمان فقال له بعض اصحابه : ايها الامير لو كان الحياء يظهر سؤالاً ، لدعاك حيائي من كرمك ومن جميع اهلك الى الاقبال عليّ بما يكثر به حسد عدوّي ، دون ان اسألك . فقال عمرو لا تبغ ذلك

بابتذالك ماء وجهك ، ونحن نغنيك عن إراقته في خوض السؤال ، فارفع ما تريده في رقعة يصل اليك سراً . ففعل .

ولقد جرى ذكر عمرو بن مسعدة في رسالة الحَيْدَة وفيها وصف ما جرى من المناظرة بين عبد العزيز بن يحيى المكي وبين بشر بن غياث المريسي بحضرة امير المؤمنين المأمون في مسألة خلق القرآن جاء فيها كلام لعمرو بن مسعدة . ومنه ما قاله عبد العزيز : فلما كان يوم الاثنين صليت الغداة في مسجدي الذي كان على باب منزلي فلما فرغت من الصلاة اذا بخليفة عمرو بن مسعدة قد جاءني ومعه جمع من الفرسان والرجالة فحملني مكرماً على دابته حتى صار الى باب امير المؤمنين فأوقفني حتى جاء عمرو بن مسعدة فدخل فجلس في حجرته التي كان يجلس فيها ثم أذن لي بالدخول عليه فدخلت فلما صرت بين يديه أجلسني ثم قال لي : انت مقيم على ما كنت عليه او قد رجعت عنه فقلت : بل مقيم على ما كنت وقد ازددت بتوفيق الله تعالى اياي بصيرة في امري فقال لي عمرو بن مسعدة : ايها الرجل قد حملت نفسك على امر عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهها ، وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة امير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لاحد غيرك ، وليس وراءك بعد الحجة عليك الا السيف ، فانظر لنفسك و بادر امرك ، قبل ان تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة ، فلا تنفعك الندامة ولا يقبل منك معذرة ولا تقال لك عثرة ، فقد رحمتك واشفقت عليك مما هو نازل بك ، وانا أستقيل لك امير المؤمنين وأسأله الصفح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك اذا اظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وآخذ لك الامان منه والجائزة ، فان كانت لك ظلامة ازلتها عنك وان كانت لك حاجة قضيتها لك ، فانما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة ان أقمت على ما انت عليه ورجوت ان يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه .

عظمة أخلاقه

روى ابن ناقيا في كتاب ملح المالحة قال : دخل الحسن بن سهل على المأمون فقال له : كيف علمك بالمروءة قال : ما أعلم ما يريد امير المؤمنين فأجيبه . قال :

عليك بعمرو بن مسعدة قال : فوافيت عمراً وفي داره صناع وهو جالس على آجرة ينظر اليهم فقلت : ان امير المؤمنين يأمرك ان تعلمني المروءة . فدعا بآجرة فأجلسني عليها وتحدثنا ملياً وقد امتلأت غيظاً من تقصيره بي ثم قال : يا غلام عندك شيء يؤكل قال : فقدم طبقاً لطيفاً عليه رغيفان وثلاث سكرجات[1] في احداهن خل وفي الاخرى مري[2] وفي الاخرى ملح فأكلنا وجاء الفراش فوضأنا ثم قال : اذا شئت فنهضت محنقاً ولم أودعه فقال لي : ان رأيت ان تعود الي في يوم مثله . فلم اذكر للمأمون شيئاً مما جرى . فلما كان في اليوم الذي وعدني لقياه سرت اليه فاستؤذن لي عليه فتلقاني على باب الدار فعانقني، وقبل بين عيني، وقدمني أمامه ، ومشى خلفي ، حتى أقعدني في الدست[3] وجلس بين يدي ، وقد فرشت الدار وزينت بانواع الزينة واقبل يحدثني ويتنادر[4] معي الى ان حضر وقت الطعام، فأمر فقدمت أطباق الفاكهة فأصبنا منها ونصبت الموائد فقدم عليها انواع الاطعمة من حارها وقارها وحلوها وحامضها ثم قال : اي الشراب أعجب اليك فاقترحت عليه . وحضر الوصائف للخدمة ، فلما أردت الانصراف حمل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفرش وكسوة وقدم الى البساط فرس بمركب ثقيل فركبته ، وامر من بحضرته من الغلمان الروم والوصائف حتى صعوا بين يدي وقال : عليك بهم فهم لك ثم قال : اذا زارك اخوك فلا تتكلف له واقتصر على ما يحضرك واذا دعوته فاحتفل واحتشد ولا تدعن ممكناً ، كفعلنا بك عند زيارتك إيانا وفعلنا يوم دعوناك .

وما الحسن بن سهل الذي يُعلم المروءة وهو الوزير العظيم العاقل العالم الذي كان مثال المروءة زوج ابنته بوران من المأمون فعمل « من الولائم والافراح مالم يعهد مثله في عصر من الأعصار وكان ذلك بفم الصلح وانتهى امره الى ان نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فاذا علم ما فيها مضى الى

(١) السكرجة قصاع يؤكل فيها صغار . (٢) المري رب يملح وتقول له سلامورة . (٣) الدست صدر البيت . (٤) تنادر علينا حدثنا بالنوادر .

الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم مافيها سواء كان ضيعة او ملكاً آخر اوفرساً او جارية او مملوكاً ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر » وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين الف الف درهم . لا جرم ان في امر المأمون عمه بالذهاب الى عمرو بن مسعدة يتعلم منه المروءة مايشعر بمنزلة عمرو من الخليفة وانه عظيم في أخلاقه ويعرف كيف يربي الناس عليها .

قال ابراهيم بن الحسن بن سهل كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع فجاءته عطسة ، فلوى عنقه فردها ، فرآه المأمون فقال : يا عمرو لا تفعل فان رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعاً في العنق . فقال بعض ولد المهدي ما أحسنها من مولى لعبده ، وامام لرعيته ، فقال المأمون وما في ذلك ؟ هذا هشام اضطربت عمامته فأهوى الأبرش الكلبي الى إصلاحها ، فقال هشام انا لا نتخذ الاخوان خولا ! فالذي قال هشام أحسن مما قلته . فقال عمرو : يا امير المؤمنين أن هشاماً يتكلف ما طبعت عليه ، فما تعدل[1] به ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا قيامك بحق الله وانك والملوك كما قال النابغة الذبياني :

الم تر ان الله أعطاك سورة[2] يرى كل ملك دونها يتذبذب
لانك شمس والملوك كواكب اذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ثروته ونعمته

ظهر أن عمرو بن مسعدة كان ذا نعمة وافرة وثروة طائلة ، على كثرة ما بذل من العطاء للعلماء والشعراء ، والاحسان على قاصديه ومن انتمى اليه ، ومت اليه بسبب من الاسباب . وقد كان له قصور في دارالسلام وله ساباط يعرف به يقال له ساباط[3] عمرو بن مسعدة وهو فوق الجسر ومن منازله منزل بحضرة طاق الحراني ابراهيم بن ذكوان . جمع كل هذا من مال دولة خدمها بالاخلاص والعقل وربما كان فيها مأخذ

(١) يقال ما يعدلك عندي شيء اي مايشبهك . (٢) السورة الشرف والفضل والرفعة . (٣) الساباط سقيفة بين دارين او جدارين والطاق عقد البناء حيث كان والجمع أطواق وطيقان .

من غير حله ان صح ما روي ان المأمون وقّع في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : « يا عمرو عمّر نعمتك بالعدل فان الجور يهدمها » ولما مات عمرو رُفع الى المأمون انه خلف ثمانين الف الف درهم · فوقع على الرقعة « هذا قليل لمن اتصل بنا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » · اي ان عمراً خلف ثمانية ملايين دينار واذا جعلت نسبة بين قيمتها منذ نيف واحد عشر قرناً وقيمتها اليوم لا يبعد ان يكون ماخلفه نحو اربعة وعشرين مليوناً من الجنيهات · وروى المسعودي انهم عرضوا المال عمرو ولم يعرض لمال وزير قبله والرواية الاولى أصح وهي عن الصولي ابن عم عمرو ابن مسعدة · والمسعودي يقصد بقوله هذا الحط من قدر المأمون لعداوة مذهبية كأن المأمون كان يخاف عمراً في حياته فيغضي عنه وأراد الانتقام منه بعد مماته بان يصادر اولاد احد رجاله بعده ·

خلف عمرو هذه الثروة من مال الدولة التي أخلص لها الخدمة في سره وجهره بعد ذاك البذخ والرفاهية في زمن كانت الخلافة العباسية الكل في الكل ، وفي ايام خليفة يعرف أقدار الرجال و يرى انه يقل في اصطناعهم كل برّ ومكرمة ، وكان يعتمد على عقلهم وإخلاصهم في تدبير ملكه ، وللعقل قيمة عظيمة دونها كنوز الارض وركازها في نظر المأمون · ولقائل ان يقول ومن اين لفرد ان يجمع مثل هذه الثروة العظيمة وهو مقيد بخدمة الدولة ، لا يعمل فيما يجهد له الناس في الجمع ليكون بعض مال حسن القومة عليه · فالجواب ان الخلفاء كانوا يُقطعون رجال دولتهم الولايات العظيمة وربما نزلوا لهم عن خراجها السنة او السنين · و يهبونهم من ضروب العطايا من ناطق وصامت وعقار ومتاع ما يتأثلون به و يرتاشون · والدولة التي قدرت مساحة ممالكها بنحو مساحة قارة اوربا اليوم وضمت جميع الاقطار العامرة في آسيا وافريقية — اذا جمعت جميع دخلها لا تحتاج اليه ، وتقف الحركة الاقتصادية في البلاد لا محالة ، فترى من الحكمة ان تنتقل الثروة في الايدي · وما كانت الدولة في الحقيقة تحتاج يومئذ الى نفقات كبيرة لإطعام الجيوش وإعداد الاساطيل وتجهيزها بالمدمرات والمهلكات شأن دول اليوم ، والحروب المدمرة في هذه الحضارة الحديثة لم تُعرف في عصر العباسيين · وليس غير الحروب تستنزف الاموال وتذهب بارواح الرجال ·

ولقائل ممن تشبع بروح الديمقراطية في هذا العصر وهل هذا هو المعقول في قيام الملك من الإفراط في الإفضال على الراد يُسَوِّغون جباية قطر او أقطار صبرة واحدة وهي تُجمع بالدانق والدرهم . وهل يمثل هذا نجح الخلفاء الأُول او ارباب الدول الغربية اليوم . فالجواب ان طبيعة القرن الثاني والثالث غير طبيعة القرن الاول وهذان القرنان الاخيران لا يشبهان بحال قرون البشر منذ عشرة قرون خصوصاً اذا وضعنا موضع النظر ايضاً اتساع رقعة الملك، وعمران العراق وحده دع غيره من الاقطار، فان كل هذا أعظم حامل على البذل . ولهذا كان للخلفاء في هذا العطاء بعض مبرر لاعمالهم ، وان كان لا مبرر من إسراف ، لكن حالة العمران اقتضت ذلك في الدهر السالف . وكان الاولى ان يعمدوا الى القصد في الأخذ والقصد في العطاء ، ويقيموا بما يفضل المصانع والمعالم في أرجاء المملكة والمنصف يقول ان هذا النظام البديع في تنظيم الموازنات هو وليد العصور الجديدة . وهذا التقدير وهذا التقتير . ثم في التانق والقطمير هما من خلق دول الغرب . وكان ذلك على حالة ابتدائية في عصر الأُمويين والعباسيين ولم تكن أسباب الحياة تشعبت هذا التشعب . ولا الاوضاع هذه الاوضاع ولا الابداع في النُظُم هذا الابداع .

هذا أقصى ما أبقته لنا الايام من أخبار هذا الوزير العربي النابغة بدهائه السياسي وبلاغته ، ومن الأسف فَقْدُ ما فاضت به قريحته البراقة التي عرفت بالبلاغ الممتع وعرفنا من سيرته ما أطلعنا به من نافذة ضيقة على ما خُصت به نفسه وانطوى عليه من الصفات السامية التي كانت بها عظمته . وربما لم يخل عصره من بلغاء أمثاله لو فتح لهم الطريق لاغنوا غناءه ولكن الطبائع تختلف وهذه الرقة في السياسة يصعب ان يبرز فيها كل انسان فهو كما كتب الحسن بن سهل الى محمد بن سَماعة القاضي وقد احتاج الى رجل يوليه بعض الاعمال فقال انه يريد رجلاً جامعاً لخصال الخير ذا عفة ونزاهة طِعْمة[1] . قد هذبته الآداب . وأحكمته التجارب . ليس بظنين في رأيه . ولا بمطعون

(١) في الاساس : ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطِعمة بالكسر وهي الجهة التي منها يرتزق بوزن الحرفة .

في حسبه . ان اؤتمن على الأسرار قام بها وان قُلد مهماً من الامور أجزأ [1] فيه . له سن مع أدب ولسان . تقعده الرزانة ويسكنه الحلم . قد فُرّ [2] عن ذكاء وفطنة . وعضّ على قارحة [3] من الكمال . تكفيه اللحظة . وترشده السكتة . قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها . وقام في امور فحمد فيها . له أناة الوزراء . وصولة الامراء . وتواضع العلماء . وفهم الفقهاء . وجواب الحكماء . لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده . يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه . وحسن بيانه . دلائل الفضل عليه لائحة . وأمارات العلم له شاهدة . مضطلعاً بما استنهض . مستقلاً بما حُمّل اه .

ومثل هذه الصفات هي صفة عمرو بن مسعدة . وأنعم به وبسيده وسقياً ورعياً لعصر أخرج عظماء يحق لنا التمجد بهم مهما بَعُدَ عهدنا بهم .

---

(١) أجزأني كذا : كفاني وهذا مُجْزِئ . (٢) اي جرّب واختبر فيهما واصله من فرّ الدابة كشف عن اسنانها لينظر ما سنها . (٣) قوله وعضّ على قارحة الخ كناية عن بلوغه درجة الكمال .

مناقشة لغوية

عثر رصيفنا الفاضل الاب انستاس الكرملي في (عثرات الأقلام) التي ينشرها المجمع العلمي — على ثلاثة مواضع حسبها مجلاً للنقد والمؤاخذة فذكرها في مجلته (لغة العرب) (جزء ٧ ص ٤) وعلق عليها تخطئة ونقداً . وقد رأينا ان ننبه الى تجنينا فيها :

(١) قلنا في عثرات الأقلام ان قولهم (طاف جسده على وجه الماء) صوابه (طفا جسده) فرد الاب هذا وعلق عليه كلاماً ذكر فيه (ان طاف مقلوب طفا) يعني يجوز استعمال كل منهما مكان الآخر . ولا نظن هذا صحيحاً لوجوه : الاول ان جمهور اللغويين قالوا (طفا الشيء فوق الماء اذا علا عليه ولم يرسب) وقالوا (طاف حول الشيء وبالشيء اذا دار حوله . (الوجه الثاني) ان القلب في مثل هذا سماعي كما نص عليه الرضي في شرح الشافية . ولم نظفر بنقل عن اللغويين يصرح بان (طاف مقلوب طفا) . (الوجه الثالث) على فرض صحة ان (طاف مقلوب طفا) لا يلزم منه ان يصح حلوله محله في كل استعمال . نعم ورد الجواز في مثل (عاث) مقلوب (عثا) و (راء) مقلوب (رأى) و (ناء) مقلوب (نأى) اما في (طاف) على فرض انه مقلوب (طفا) فقد خصوا الاول بالانتقال من مكان الى آخر او الاستدارة حول الشيء ويقال في ضده ثبت وسدك ولزم مكانه كما خصوا الثاني وهو (طفا) بالجسم الذي يعلو وجه الماء سواء انتقل او لم ينتقل وضده رسب . ومثل (طاف وطفا) في تخالف الاستعمال قولهم : (غام وغمى) خصوا الاول بتغطية السماء بالسحاب . والثاني بتغطية سقف البيت بالطين والخشب .

(٢) قلنا في (عثرات الأقلام) في تخطئة من يقول (الإركان على النفس علامة النجاح) : انه لم يرد (أركن رباعياً) بدليل ان الموثوق بهم من ارباب المعاجم لم يذكروه كصاحب اللسان والتاج والصحاح والأساس . فخطأنا الاب في هذا وقال ان صاحب الكشاف روى جواز (أركن) رباعياً في قراءة من قرأ (ولا تُركنوا الى الذين ظلموا) على البناء للمفعول من أركنه اذا أماله . ونقول في الجواب اننا في

(العثرات) انما خطأنا من استعمل (الاركان) اي الرباعي اللازم بمعنى (ركن) الثلاثي اللازم اي بمعنى مال كما اذا قال قائل (أفهم زيدٌ) يريد (فهم زيد) فنقول له هذا لايجوز اذ لم يرد في كلام العرب (أفهم) رباعيًا ولا شك ان السياق يعيّن مرادنا واننا انما نعني ان (أفهم) الرباعي لم يجيء لموافقة (فهم) الثلاثي فلايصح ان يعترض علينا بانه ورد (أفهم) رباعيًا متعديًا . ويعلم الله اننا رأينا (أركن) الرباعي المتعدي بمعنى أمال في تفسير البيضاوي وابي حيان عند قوله تعالى (ولا تركنوا الى الذين ظلموا) بالبناء للمجهول كما رأى الاستاذ ذلك في الكشاف . لكننا لم تنبه عليه في (عثرات الأقلام) خشية التطويل الذي نجتنبه جهد طاقتنا في (العثرات) . والحاصل ان (أركن) رباعيًا لم يرد بمعنى (ركن) كما ورد(أقاله) البيع بمعنى قاله . وانما ورد (أركنه) بمعنى أماله على ان تكون همزته للتعدية لا لموافقة الثلاثي وهذا خارج عن موضوعنا .

(٣) آخذنا الاب الفاضل في كلمة ثالثة وقبل ان نوردها نقدم بين يديها ملاحظة لنا على رصيفنا وعضو مجمعنا المحترم: ذلك انه كلما رأى احدًا فتح نافذة لاصلاح اللغة العربية وتنمية كلماتها وتسهيل قواعدها والتوسعة على الناطقين بها في بعض ماحظره الاقدمون — بادر الى سد تلك النافذة قائلاً ان في هذا الفتح الضر والبرح . وعلى العكس اذا رأى احدًا سدّ نافذة يكون من شأنها الإفساد في اللغة عارضه وفتحها متأليًا ان سيكون في هذا الفتح الربح والنجح . فمثال النافذة التي سدّها المجمع ففتحها هو قولنا في العثرات انه لا يجوز ان يقال (مكثنا مع الاخوان فويق ناقة) على ان يكون (فويق) تصغير (فواق) وعللنا ذلك بانه من الامثال والامثال لاتغير . ولا نريد بذلك الامثال نفسها بل ما يعمها ويعم ما كان من قبلها ثقة منا بان قراء مجلتنا انما هم من اهل الفضل الذين يفهمون المراد من مثل هذا الإطلاق . فلم يعجب الاب سدّ النافذة على هذه الصورة وقال ما نصه : « نحن لا نعتبر قولهم فويق ناقة من الأمثال بل من الأقوال السائرة مسير الامثال ولهذا لا نرى مانعًا من اعتبار (فويق ناقة) بتصغير فواق — من الغلط » اه فالأب اعطى فتوى بجواز استعمال (فويق ناقة) بالتصغير وان لم ينطق به العرب الخلّص . ولا غرو ان يكون في قوله هذا توسعة وتخفيف واغراء لنا باستعمال نظائر (فويق) مما فيه مخالفة لاهل اللسان فنقول من دون ان يكون ثمّ ضرورة (على

طرف الثميِّم) بالتصغير مكان (الثمام) بالتكبير و (حمى الوطيِّس) مكان (الوطيس) و (لحم على وُضَيِّم) مكان (وضم) و (مات حُتيف أُنيفه) مكان حتف أنفه وضغيث على أبيبيلة مكان ضغث على ابالة في نظير ذلك مما يشكره عليه ارباب (الباب المفتوح) في اللغة !!! ·

اما مثال النافذة التي فتحناها للإصلاح اللغوي وقام هو فسدّها في وجهنا ووجه الناطقين بالضاد فهو قولنا في اثناء الكلام (وتبعه على ذلك صاحب أقرب الموارد الخ) فانتقد تعدية فعل تبع بعلى · نروي عبارتنا هذه قائلاً هكذا (وتبعه على (كذا) ذلك) يشير بكلمة (كذا) الى هذا الخطإ الفاضح · ولعله يريد ان الواجب ان يقال (وتبعه في كذا) · وحجتنا نحن في ذلك او في فتح هذه النافذة ما اشتهر بين علماء اللغة من ان حروف الجر ينوب بعضها عن بعض وان (على) خاصةً تنوب مناب (في) كقوله تعالى : (ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها) اي في حين غفلة كما صرّح بذلك اهل اللغة والتفسير · ولعله يقول ان معاجم اللغة لم تنقل (تبعه على كذا) بخصوصه فالواجب ان نتابعهم على ما قالوا · أرأيت كيف ان الأب المحترم سدّ هذه النافذة الموصلة الى تلقي الهواء الطلق كيلا تموت اللغة اختناقاً · بل أرأيت كيف ان الاب يصرّح في نفس رده علينا بقوله : (عدم ورود كلمة أركن في دواوين اللغة لا ينفي وجودها اذ لغتنا اوسع من ان تضمها دفتا منجم فهي بحر لجيّ لاقرارله) اسمع ما أحسن هذا التصريح وما أحسن فتح النوافذ على هذه الصورة لإصلاح اللغة · ولو فتح غيره هذه النافذة لعارضه لعمري وقام في وجهه كما عارضنا وقام في وجهنا مذ قلنا (تبعه على كذا) وان لم تنقله المعاجم ونحن نريد ان نفتح نافذة استعمال حرف جر مكان حرف جر كما جوزه اهل اللسان فمعنى (تبعه على كذا) تبعه في كذا · ثم ان كان رصيفنا الأب يسد علينا هذه النافذة فهل يسد علينا نافذة أخرى في تصحيح هذا الاستعمال ؟ (نافذة التضمين) اي ان فعل (تبع) ضمناه معنى (وافق) فعدي تعديته والتضمين في اللغة إشراب كلمة معنى كلمة أخرى فتتعدى تعديتها · فنحن أشربنا فعل (تبع) معنى (وافق) فعديناه بعلى مثلها · ويكفي حجة لنا في جواز هذا التضمين ما قاله ابن جني في الخصائص وهذا هو نص عبارته : (وجدت في اللغة من هذا الفن (التضمين) شيئاً كثيراً لا يكاد يحاط به ولعله

او جمع اكثره لاجميعه لجاء كتاباً ضخماً فاذا مر بك شيء منه فتقبله وانس به فانه فصل في العربية لطيف حسن اه) فالنافذة التي فتحها ابن جني وتبعناه نحن على رأيه في فتحها يقوم صديقنا العلامة فيوصدها و يقول للناس انظروا الى المجمع العلمي كيف يريد ان يفسد اللغة !! ألا يفهم من هذا انه يحاول احتكار فتح النوافذ في الإصلاح اللغوي ؟ و يوشك ان نبارك له نحن فيما يريد ولكن بشرط ان ينتبه فلا يفتح ما سد ولا يسد ما فتح ·

اعضاء المجمع العلمي

« في الغرب »

الاستاذ ادوار مونته (Montet)

ولد السيد مونته في ليون سنة ١٨٥٦ وعاش في تلك المدينة حيث درس الدروس الثانوية وجاز فحوص البكالوريا (العالمية) الى سنة ١٨٧٤ ثم اخذ يدرس دروساً عالية تامة وذلك بالاشتغال في جامعات جنيف و برلين وهايدلبرغ ثم في جامعة باريز حيث نال رتبة دكتور في اللاهوت (مدرسة اللاهوت البرتستانتي) وذلك في سنة ١٨٨٣ وقد قدم كتاباً اسمه في اصول الفرقتين الصدوقيين والفريسيين وتاريخهم الى ولادة السيد المسيح · وفي سنة ١٨٨٥ عين المسيو مونته في جامعة جنيف استاذاً للعبرية والارامية والعهد العتيق · ومنذ سنة ١٨٩٤ اخذ يدرس في تلك الجامعة ايضاً العربية وتاريخ الاسلام ·

ان مقدرة السيد مونته التي عرفها الخاص والعام في كل ما له مساس بالمدنيات السامية ولا سيما بالاسلام قد دعت الحكومة الافرنسية مرتين لتندبه الى مراكش في بعثة علمية · والمرة الاولى كانت سنة ١٩٠١ والمرة الثانية سنة ١٩١٤ وفي سنة ١٩١٠ دعي ليلقي سلسلة من المحاضرات على الاسلام في كوليج دي فرانس بباريز · وكان الاستاذ مونتيه رئيس جامعة جنيف من سنة ١٩١٠ — ١٩١٢ ·

ان المقالات التي نشرها هذا العالم في كثير من المجلات والصحف وقائمة أهم تآليفه

التي تقرأونها في أسفل هذه المجالة تشهد شهادة ناصعة بان جهاد هذا الاستاذ قد قسمه خلال حياته بين الدروس التي لها علاقة بالعربية والعهد العتيق والدروس الاسلامية ·

« قائمة أهم كتب ادوارد مونتيه باللغة الافرنسية »

باكورة في اصول الفرقتين الصدوقية والفريسية وتاريخها الى ولادة السيد المسيح (باريز ١٨٨٣) ·

مختصر نحو العبرية والارامية الكتابية (باريز ١٩٠٥) ·

مبادئ النحو العربي (جنيف ١٨٩٦) ·

تاريخ لسكان مقاطعة القو من البيمون (باريز ١٨٨٥) ·

الدرس الشريف وهو نص غريب نشره عن نسخة كمبردج وذكر اختلاف النسخ بينها وبين نسخة جنيف ودوبلين مع ترجمتها بالافرنسية وترجمتها بلغة القو الحديثة (باريز ١٨٨٨) ·

تاريخ شعب اسرائيل أخذاً من العهد القديم (باريز ١٩١٠) ·

سياحة في مراكش (سياحة العالم) (باريز ١٩٠٣) ·

حاضر الاسلام ومستقبله (ترجم الى الايطالية والمجرية والعربية) (باريز ١٩١٠) ·

الاعتقاد بالاولياء المسلمين في افريقية الشمالية ولا سيما في مراكش (جنيف سنة ١٩٠٩) ·

دروس شرقية ودينية (باريز ١٩١٧) ·

الاسلام (باريز ١٩٢١) ·

وقد انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي منذ اول نشأته ·

الغزَالي ام الغزّالي

لما وجدت الخلاف قديماً وحديثاً في ضبط هذا الاسم رأيت ان اجمع أقوال العلماء لتصحيح هذا الرسم ·

قال ابن خلكان (ط · مصر ١٣١٠ ج ١ ص ٢٩) في ترجمة ابي الفتوح احمد اخي ابي حامد الغزالي : والغزالي بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة وبعد الالف لام هذه النسبة الى الغزّال على عادة اهل خوارزم وجرجان فانهم ينسبون الى القصّار القصّاريّ والى العطّار العطّاريّ · وقيل ان الزاي مخففة نسبة الى غزَالة وهي قرية من قرى طوس وهو خلاف المشهور ولكن هكذا قاله السمعاني في كتاب الأنساب والله اعلم ·

اما ما نسبه ابن خلكان للسمعاني فهو غير موجود في كتاب الأنساب المطبوع في ليدن سنة ١٩١٢ بل ليس فيه ذكر لهذه النسبة ·

ولكن قال ابن تنري بردي في النجوم الزاهرة (ط · بركلاي ١٩٠٩—١٩١٢ ج٢ ص ٣٥٨) في حوادث سنة ٥٠٥ ان السمعاني ذكره في الذيل ولعل هذا الذيل هو ذيل تاريخ بغداد لابي بكر الخطيب ·

ونقل ابو الفداء في تاريخه في حوادث سنة ٥٠٥ ما ذكره ابن خلكان فيما يخص التشديد فقط ·

وذكر السيوطي في لُبّ اللباب (ط · ليدن ١٨٤٠ ص ١٨٦) القولين مع تضعيف التخفيف ·

وقال ابن الوردي في تاريخه في حوادث سنة ٥٠٥ وتخفيف الزاي وتشديدها من الغزالي مشهور وانشد [1] بيتاً فيه التخفيف :

(بدر تمّ اضحى بسيط غرامي فيه يروي عن طرفه الغزَالي)

---

(١) قوله (وانشد بيتاً فيه التخفيف) راجعنا تاريخ ابن الوردي فوجدناه قد استشهد بهذا البيت من دون ان يصرح انه شاهد على التخفيف والظاهر انه شاهد على التشديد · (المجمع)

وقال اليافعي في روض الرياحين (ط · مصر ١٣١٠ ص ٢٣٦) وفي مرآة الجنان (ط · حيدر اباد ١٣٣٨ ج ٣ ص ١٨٦) قصيدة في مدح الغزالي فيها هذا البيت ·

(ابو حامد غزّال غزل مدقق   من العلم لم يغزل كذاك بمغزل)

وقال الشيخ مرتضى في تاج العروس في مادة (غ ز ل) : وغزالة كسحابة قرية من قرى طوس قيل واليها ينسب ابوحامد كما صرح به النووي في التبيان وقال ابن الاثير : ان الغزالي مخففًا خلاف المشهور وصوّب فيه التشديد وهو منسوب الى الغزّال بائع الغزل او الغزّالي على عادة اهل خوارزم وجرجان كالقصّاري الى القصّار ، و بسط ذلك السبكي وابن خلكان وابن شهبة ·

وقال محمد طاهر الفتني في المغني (دهلي ١٣٢٠ ص ٦٠) بعدما ضبط الغزالي بالتشديد وروي عن الغزالي انه انكرها وقال انما انا الغزَالي بخفة زاي نسبة الى غزالة قرية بطوس ·

وحكى طاش كبري زاده في مفتاح السعادة (حيدراباد ١٣٢٩ ج ٢ ص١٩٢) ان والد الغزالي كان يغزل الصوف و يبيعه بدكان بطوس وروى ايضًا ان الغزالي حكي ان اباه كان فقيراً صالحًا لا يأكل الا من كسب يده في عمل غزل الصوف ·

ويتخلص من هذه النقول ان التشديد هو المشهور الجاري على لسان العلماء قديمًا وحديثًا وان التخفيف مبني على قول السمعاني في الذيل الذي ذيل به تاريخ الخطيب البغدادي لانه يُعرف له ذيل لكتابه في الانساب ؛

ومن جهة أخرى فاني راجعت معاجم البلدان المطبوعة في اوربا مثل معجم ياقوت وكتاب الجبال والأمكنة والمياه للزمخشري والمكتبة الجغرافية فلم أعثر على قرية اسمها غزالة كما ذكر السمعاني وانما الموجود فيها ان طوس مشتملة على بلدتين يقال لاحداهما نوقان وللاخرى طابران و بها مات ابو حامد ودُفن بظاهرها ·

ومما يؤيد التشديد العصّاري نسبة الى العصّار قال السمعاني في كتاب الانساب المذكور (ورقة ٣٩٢ وجهًا) هذه النسبة الى العصارة وقد ذكرناه وقد جرت عادة عدة من البلاد ان ينتسب اهلها الى الحرف مثل خوارزم وجرجان وآمل طبرستان

وذكر هذه النسبة السيوطي في لب اللباب (ص ١٨٠) وذكر ياقوت في معجم البلدان ابا محمد العباس بن محمد العصّاري الطوسي من أصحاب طابران ٠

واقتطفت من لب اللباب للسيوطي التبّاني نسبة الى بيع التبن والجوّازي الى بيع الجوز والجلاّبي الى جلب السلع والحدّادي الى الحديد كالحدّاد والحنّاطي كالحنّاط الى بيع الحنطة والخبّازي كالخبّاز الى الخبز والخفّافي كالخفّاف الى الخفاف والخيّاطي كالخيّاط الى خياطة الثياب والروّاسي كالروّاس الى بيع الرؤوس والصائغي كالصائغ الى الصياغة والمطرّزي كالمطرّز الى الطرازة ٠

الجزائر : محمد بن ابي شنب

عضو المجمع العلمي العربي

حول الكراس الشارد

كنت كتبت في مجلة المجمع (جزء ١١ من السنة الماضية) مقالاً في وصف كرّاس مخطوط ظفرت به في مكتبتي وسألت اهل العلم والفضل ان يذكروا لنا من امر المخطوط الذي شرد منه هذا الكراس ٠ ولقد كتبت ذلك المقال وانا على يقين ان الصديق احمد تيمور باشا سيكون اول من يحقق امر ذلك الكراس ويكشف عن نسبته الغموض والالتباس فكان ماقدرته وروّزته في نفسي صحيحاً فقد جاءني كتاب من العلاّمة المشار اليه قال فيه ما يلي :

الكراس الشارد الذي تكلمتم عنه في المجلة هو من رحلة كبيرة لاحمد الادهمي اسمها (تحفة الادب في الرحلة من دمياط الى الشام وحلب) عندنا منها نسخة تقع في ٤٧٩ صفحة منقولة من دار الكتب المصرية واول مافي كراسكم يقع في ص ١٠ منها ٠ وقد أورد المؤلف أبياتاً لوالده في ص ٧٠ ترجم لها بقوله : « وليعجبني قول الوالد الهام في مدح طرابلس الشـام » وكتب بعضهم على حاشية نسخة الاصل (اي والده صالح افندي الادهمي) ٠ وترون في سلك الدرر جزء ١ ص ١٦٩ ترجمة له جاء فيها انه احمد بن صالح بن منصور المعروف بالادهمي الحنفي الطرابلسي وانه نشأ بدمياط وتولى

الافتاء بها ثم نقابة الاشراف بمصر وتوفي سنة (١١٥٩ هـ) ولكن ليس بهـا ذكر هذه الرحلة . وقوله في ص ٤٨٣ من المجلة (فتوجهت الى المذبة) صوابه (العزبة) بالزاي وهي الضيعة او القرية بلغة عوام مصر ولم تزل هذه القرية باقية الى الآن على الشاطيء الشرقي للنيل شمالي دمياط وتسمى بعزبة البرج . والبكري الذي ذكره يغلب على الظن انه احد أفراد أسرة البكري الباقية الى اليوم بدمياط . واذا شئتم الاطلاع على الرحلة لكتابة شيء عنها أرسل بها اليكم في البريد . اهـ المراد من كتاب العلامة وهو آية عظمى على فضله وولوعه بخدمة العلم ونشر أسفاره . والنبش عن كنوزه وآثاره . اما تصويبه (للمذبة) (بالعزبة) فصحيح ولكننا نحن أبقينا الكراس على أخطائه وأشرنا لذلك في اول هامشة علقناها عليه . وقوله : « ان (البكري) الذي ذكره صاحب الكراس يغلب على الظن انه احد أفراد أسرة البكري الباقية الى اليوم في دمياط » فيه نظر لانه لم يقل (البكري) وانما قال (الحاج بكري فتح الله) وهذا يدل على ان (بكري) اسمه لا اسم أسرته وان اسم أسرته (فتح الله) وربما كانت هي أسرة فتح الله المشهورة في بيروت الى اليوم . واما أسرة الادهمي المذكورة فمازالت من أسر طرابلس المشهورة بعراقة النسب ونعرف منها اشخاصاً مارسوا الادب والشعر أشهرهم السيد اسحق الادهمي وهو شاعر مشهور له ديوان شعر مخطوط وله قصائد في مدح الامير عبد القادر الجزائري ولم يخلف سوى ولد ذكر لا نعلم ان كان حيًا او لا وقد توفي السيد اسحق في أوائل هذا القرن الهجري .

المغربي

مطبوعات حديثة

المرأة في شرع الاسلام

« للسيد عبد الله الياني — الدكتور في الحقوق »

Condition pxivée de la femme dans le Droit de l'Islam

رأى فريق من فتيان هذه الامة النابهين ممن قصدوا الى الغرب في طلب العلم، ان من مصلحة الوطن ، وحق الامة عليهم ، تعريف قومهم الى الغربيين تعريفاً صحيحاً كي لا يظل بعض هؤلاء على رأيهم الفاسد في هذه الامة العربية · فجدّوا في وضع أطروحاتهم لنيل العالمية ، عن المسائل العربية · تنويراً للاذهان الغربية في الشؤون الاسلامية الشرقية · فجاءت رسائلهم غربية اللفظ ، عربية الروح ·

وفي جملة من قصد هذا القصد ، السيد عبد الله الياني · فلقد جعل موضوع أطروحته « مكانة المرأة في شرع الاسلام » · والمرأة العربية — ولا سيما من حيث حقوقها — هي أحوج ما تكون الى التعريف · لذلك احسن الدكتور الياني الى أمته برسالته هذه ، إحساناً لا يفيه بعض حقه ، الا ان يشار الى الموضوعات الممتعة التي عالجها فيها ·

قسم السيد الياني أطروحته الى : مقدمة · وثلاثة ابواب · وخاتمة ·

تناول في المقدمة العهد الجاهلي · فوصف شيئاً من عادات العرب واديانهم وطباعهم · وحالة المرأة في ذلك العهد · واما في الباب الاول فقد بحث عن المرأة في العهد الاسلامي ، ورد مزاعم الغربيين الذين ينعون على محمد (ص) معاملته للمرأة · واثبت انه ليس في المتقدمين من المشترعين من عطف على المرأة عطفه · وعاملها بالرحمة والعدل مثله · ذلك على الرغم مما كان يعترض احكامه هذه من قسوة العرب ومستحكم عاداتهم · وذكر في فصول هذا الباب عمل المرأة من حيث هي أم ، وما اوجبه لها الشرع الاسلامي من الحرمة والمكانة · وان الاسلام اذا كان رغب للمرأة ان تكون قيمة منزلها ، وفضّل لها الاشتغال بتدبير المنزل ، فليس في شيء مما جاء به ما يدل على

انه حرم عليها الاتجار والعناية بالشؤون الاجتماعية ، بل السياسية . وهو اذا لم يكن جعلها ربة المنزل ، فلقد جعلها فيه مساوية للرجل .

ثم انه سرد جملة من الاحاديث التي تدل على قيمة المرأة في الاسلام وعلى معاشرة الرسول لنسائه بالإحسان ، ومعاملته لهن بالمعروف . واشار الى الاسباب الاجتماعية التي ابقت في الاسلام شيئاً من الفرق بين الرجل والمرأة . على انهما امام الله والقضاء سيان . واتى بادلة بينة على ان حقوق المرأة هي في كثير من القوانين الغربية ، دونها في الشريعة الاسلامية . وان المرأة في الاسلام قد تولت الملك والحكم . على حين لم تتمتع في بلجيكا وايطاليا واسوج ونروج وفي فرنسا — الى اواخر ايام الملكية فيها — بشيء من هذا الحق . قال : واذا كانت المرأة قد ضُربت في الاسلام ، فقد ضُربت ظلماً وعدواناً ، لابحق شرعي اقرته القوانين ، كما كانت الحالة في الغرب ، والى هذا اليوم في البورتغال . ثم تكلم عن حق المرأة في النفقة والمسكن وما اليهما . وعن حقوقها في عقد العقود مستقلة عن الرجل . وعلل الاسباب لنقصان حظها في الارث والشهادة تعليلاً مقبولاً ، مستشهداً في ذلك كله بادلة نقلية وعقلية . مثبتاً ان حظ المرأة الغربية من قوانينها ، لم تكن بافضل من حظ نسائنا شهادة وإرثاً .

وفي الباب الثاني : وعنوانه (الحقوق الموضوعة) فصل شيئاً من مسائل الزواج والوجهة الاجتماعية الاسلامية فيه . وشرائطه الشرعية . وتعدد الزوجات ، واسبابه وفوائده ومضاره . وجاء بما ينفي ان تكون الشريعة اجازت لابوي البنت ان يزوجاها كيفما ارادا . ثم عقد فصلاً للحجاب . وقال انه اثر من آثار الروم والفرس ، اكثر منه عادات عربية موروثة . واشار الى مالاقته المرأة من التضييق في كل أمة من أمم الغرب . ثم نوّه بالامتيازات التي منحتها الشريعة للمرأة : كالحضانة ، والمهر ، وان هذا لا يراد به شراء المرأة بالمال كما يتوهم بعضهم ، بل هو تلطيف لعادة قديمة ، ومعاونة للمرأة على قضاء حاجاتها وسداد عوزها .

ثم اجمل في الخاتمة ما كان بسطه في الفصول السابقة . والذي يزيد في قيمة هذا الكتاب ان مؤلفه مضى فيه بروح مشبعة من الاعتدال ، نكتب ما كتب ورائده الحقيقة ، يمليها عليه عقله وعلمه ، لا نزعته وحسه .

واري قبل ان أنهي هذه الكلمة ان ألفت نظر السيد اليافي الى ان بعض العبارات ترجمت ترجمة لا تخلو من شيء من التوسع ٠

من ذلك ما استشهد به من قول صفية للرسول « تتحدث مع ابنة اليهودي في يومي وانت رسول الله » — وهذا قول لم تقله صفية بل قالته لها ام سلمة — وقد جاء في الترجمة « وانت تزعم انك رسول الله » ولا ادري من اين جاءت « تزعم » هذه ٠ فلا ظاهر العبارة المترجمة يدل عليها ٠ ولا ما في نفس ام سلمة وهي زوجه المؤمنة ينمّ بها ٠ ومثل ذلك « ان دين الله الاسلام » بدلاً من « ان الدين عند الله الاسلام » وبين العبارتين فرق ٠

وشيء آخر نخالف الصديق فيه ، وهو ما ذكره في سياق كلامه عن المعاملة الحسنة التي ارادها الرسول للمرأة : مساواة بالرجل احياناً ، وتفضيلها عليه حيناً ٠ فلقد قال : « ومع ذلك كله لم يُنفّس عن المرأة ٠ والسبب في ذلك ان الرسول كان في الاصلاحات الاجتماعية يلجأ الى الدين ، ويعتقده عاملاً كافياً لتحول جوهري في الاخلاق» الى ان يقول : « وليس — في الوعد والوعيد بالثواب في الآخرة والعقاب — غناء عن القصاص العاجل ٠ ولا سيما في قوم عصاة كانوا كالعرب ٠ ولكن النبي لم يأخذ بهذا ، ورأى في العقوبة الدينية الكفاية » ولست ادري كيف رأى السيد عبدالله هذا الرأي ، وهو يعلم جد العلم ان الشرع الذي جاء به صاحب الرسالة كان شديداً في الحق ، صارماً في العقاب ٠ ردعاً لتلك الامة عن روح الاجرام والعصيان ٠ ولم يُنظر النبي العربي الى الآخرة جرماً يجب ان يُعاقب به في هذه الدنيا ٠ اما الوعد بالآخرة ترغيباً في حرمة الام ، وإحسان ادب البنت ، واسباغ النعمة عليها ، مما استشهد به المؤلف ٠ فتلك اقرب الى النوافل التي تدخل في الحقوق الطبيعية ٠ ولا عقوبة على من لا يفعلها حتى اليوم ٠ فكأن محمداً (ص) اتخذ لها من الآخرة شبه قوة منفذة ٠

اما ان المرأة لم ينفّس عنها التنفيس الذي اراده لها صاحب الرسالة كله ٠ فذاك لا يعود الى نقص في الشرع ، ولا الى خطإ في ترتيب العقوبة ، ولكنه يرجع الى قوة في الرجل وضعف في المرأة ٠ والصديق أعزه الله يعلم ما تفعل القوة والضعف بالامم فكيف بالنساء ؟ ٠

عارف النكدي
من اعضاء المجمع العلمي

مصنفات الامير عمر طوسون

تفضل صاحب السمو الامير عمر طوسون واهدى المجمع العلمي خمس مجلدات من تآليفه ، في النيل وتاريخه ، وفي مالية مصر منذ عهد الفراعنة الى ايامنـا هذه ، وفي جغرافية مصر على عهد العرب كتبها بالفرنسية على احدث اصول في التأليف وجود موضوعاتها وشفعها بصورات وخطط بديعة دلت على علو كعبه في العلم وشدة شغفه بالبحث وقدمهـا الى المجمع المصري فنشرت تحت رعاية صـاحب الجلالة الملك فؤاد الاول ملك مصر المعظم . وقد كنا رجونا العلامة الاستاذ احمد زكي باشا احد اعضاء مجمعنا العلمي ان يتفضل بالكتابة على هذه الاجزاء كتابة علمية ليستفيد منها القراء علماً منا بان ابن النيل أحق النـاس بالكلام على نيله المبارك وعلى عمران قطره المحبوب ، وعساه يفعل و يبرّ بوعده . ولا يسعنا هنا الا شكر الامير المؤلف على هديته وأفضاله على الآداب . فقد اشتهر بالامس الامير باحسانه وصدقاته ، واليوم يعرف باحسانه في العلم والتأليف . أقر الله به عين الامة العربيـة . وهذه اسماء هذه التـآليف الممتعة بالافرنسية .

(١) Memoire sur les anciennes branches du Nil (époques ancienne et arabe)

(٢) Memoire sur les Finances de l' Egypte (depuis les pharaons jusqu'à nos jours)

(٣) Memoire sur l' Histoire du Nil, « 2 Vol. »

(٤) La Géographie de l' Egypte à l'époque Arabe « T.I »

م . ك

النشر في القراآت العشر

عني المتقدمون من علماء الاسلام بالاختصاص فبلغ كل منهم شـأواً عظيماً فيما اختص به ، وممن حفظ لهم التاريخ بين طياته صفحة بيضاء لحياتهم الطيبة (الامام

الحافظ ابو الخير محمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن الجزري) المتوفى سنة ٨٣٣ تخصص المذكور في علمي التجويد والقراآت فحاز قصب السبق فيهما حتى شهد له بذلك علماء عصره ومن اتى بعدهم — رغماً عما يوجد بين المعاصرين من الحسد — قال الحافظ ابن حجر: انتهت اليه رياسة علم القراآت في الممالك ، وقال الحافظ السخاوي : فهو الذي مهر فيه القراآت ، وقال العمادي في الشذرات عنه : مقرئ الممالك الاسلامية — وفي موضع آخر — الامام الاعظم ، ولقبه الحافظ السيوطي في اتقانه بامام القراء ، وحافظ القراء ، وفي الشقائق النعمانية : ان تيمور أولم وليمة عظيمة وعين جانب يساره للامراء وجانب يمينه للعلماء وقدم في ذلك المجلس الشيخ الجزري على السيد شريف الجرجاني .

بلغ المترجم من إتقانه لهذين العلمين ان ألف فيهما وفي غيرهما كتباً قيمة بقيت أثراً خالداً بعد وفاته . حتى قال الحافظ السخاوي عنه ، وكذلك نظم الهداية في أئمة العشرة وسماه الدرة وله ثمان عشرة سنة وربما حفظها او بعضها بعض شيوخه . واذا كان بعض شيوخه يحفظ ما نظمه وهو لم يتم العقد الثاني من عمره فما ذا تقول عن كتابه : (النشر في القراآت العشر) الذي الفه وهو في العقد الثامن من عمره ؟ .

لقد احسن — أجزل الله مثوبته — الى فن القراآت في كتابه هذا كل الاحسان . وما ذا اقول عن كتاب كفانا مؤنة المراجعة في نحو سبعين كتاباً لجمع مسائلها وفرائدها فيه . ويكفي تقريظ الحافظ ابن حجر له : بانه جوده . ولم يشأ رحمه الله الا ان يجعل كتاباً عاماً ينتفع به المقرئ وغيره فضمنه مسائل علم التجويد وقواعده ، واتى بنحو مئتي ترجمة لمشاهير المقرئين حتى لو جردناها لأصبحت كتاباً جامعاً وهذا عدا ماذكره من المسائل الاصولية والفقهية والتاريخية مما لايسمح لنا المقام بشرحها . واليك كلمة للمؤلف يصف كتابه هذا : وجمعتها في كتاب يرجع اليه ، وسفر يعتمد عليه غير مافيه من فوائد لاتحصى ولاتحصر ، وفرائد دخرت له فلم تكن في غيره تذكر ، فهو في الحقيقة نشر العشر ، ومن زعم ان هذا العلم قد مات قيل له حيي بالنشر .

هذا ما أملاه المقرئ الحجة الشيخ محمد القطب من قراء دمشق المشهورين وقد ظل هذا الكتاب على جلالة قدره نادراً لا ينتفع به الا أفراد قلائل لندرة نسخه المخطوطة حتى قام الاستاذ الشيخ محمد احمد دهمان من قراء دمشق وصححه على اصول معتبرة

وطبعه (في مطبعة التوفيق بدمشق سنة ١٣٤٥ والجزء الاول منه في ٤٠٥ صفحات) وقد عني بمعارضته والتعليق عليه وقدم له مقدمة تبين الغرض من نشره وترجم لمؤلفه الامام المشهور في هذا الفن فشكره كل من يهتمون لعلوم الكتاب العزيز . ولا غرو فانه من الاسفار التي تتشرف بها الخزائن ويتنافس في اقتنائه المتنافسون . جزاه الله عن هذا العلم الجزيل الفائدة خير جزاء . م . ك

ارشاد الاريب الى معرفة الاديب

المعروف بمعجم الادباء اوطبقات الادباء لياقوت الرومي . نشره وصححه السيد (د . س مرجليوث) الجزء السابع بمطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩٢٥ ص ٣٦٦

أتم رصيفنا الاستاذ مرجليوث ماعثر عليه من هذا الكتاب النفيس في خزائن الكتب المعروفة في العالم ، فبقي فيه نقص وهو حروف الخاء والدال والذال والراء والزاي والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء . وتمت بقية حروف المعجم فانتهى الجزآن الاول والثاني والقسم الاول من الجزء الثالث بالحسن بن ميمون . ونقص من الاجزاء القسم الثاني من الجزء الثالث والجزء الرابع برمته . اما الجزء الخامس فكله في حرف العين وفي السادس تكملة حرف العين وانتهى بمحمد بن الحسن والسابع هذا انتهى بحرف الياء ، ولعل الزمان يظفر الاستاذ الناشر ببقية الحروف فيكمل بها هذا الكتاب الممتع الذي كشف لنا في الرجال عن طبقة مهمة ليس لها ما يعرفها فيما لدينا من كتب التراجم المطبوعة الا قليلاً . وان فضل الناشر لا يقل كثيراً عن فضل المؤلف فان من عانى مثل هذه الموضوعات بالنشر في هذا العصر وليس لديه نسخ متعددة مقروءة على الثقات يعرف مقدار الجهد الذي بذله الاستاذ محيي الكتاب ، فخدم بذلك الادب العربي كما خدم في القرن الماضي الاستاذ وستنفيلد الجغرافيا والتاريخ بنشره كتاب معجم البلدان لياقوت ايضاً . و بهذين الكتابين « معجم الادباء » و « معجم البلدان » وبكتابه « المشترك وضعاً والمفترق صقعاً » عرفنا ايضاً مبلغ المؤلف رحمه الله من العلم الناضج وما طالع من الكتب وكيف رحل في بلاد الاسلام لعهده اواخر المئة السادسة

الى ثلث المئة السابعة رحلات زادت فوائد كتبه ومادته العلميـة . وما نظن الاجادة تكتب لعالم من علماء العصر اكثر من ذلك على تيسر اسباب التـأليف والتنقل اليوم لذلك ما زال ياقوت الرومي الحموي موضع إعجاب علماء المشرقيـات من الغربيين ، وبفضلهم ظهر فضله لامته ولغيرها ، وبفضل كتبه عرفنا طرفاً صالحاً من مدنية قومنا واجتماعهم وأصقاعهم ومجالسهم ومراميهم وأخلاقهم . وقد حوى هـذا الجزء الأخير ٢٠٧ تراجم ليست في طولها على مثال ماورد للمشهور ين من نوعها في الاجزاء السالفة .

ومن المشاهير التي وردت تراجمهم فيه ابن الاعرابي (محمدبن زياد) وابن السراج البغدادي (محمدبن السري) والجمحي (محمدبن سلام) وابن زهر (محمدبن عبدالملك) وغلام ثعلب (محمدبن عبدالواحد) وابن النعاويذي (محمدبن عبيدالله) والهروي (محمد ابن علي) والمرزباني (محمدبن عمران) وابن القوطية (محمدبن عمر) والواقدي (محمد بن واقد) والحافظ الحميدي (محمد بن فتوح) وابو العيناء (محمد بن القاسم) وابو بكر بن الانباري (محمدبن القاسم) وابن لنكك (محمدبن محمد) والعماد الكاتب (محمد بن محمد) والوطواط (محمد بن محمد) وابن شرف القيرواني (محمد بن ابي سعيد) وابن ظفر الصقلي (محمد بن ابي محمد) ومحب الدين محمود النجار وقطرب وابن القيسراني الحلبي وابن عنين الدمشقي وابن هاني الاندلسي وابن ولاد وابو عبدالله المرمي الخطيب المصقع والثمالي الأزدي البصري (محمدبن يزيد) وابو القاسم الزمخشري والمعافا بن زكريا النهرواني وابو عبيدة معمر ابن المثنى والمفضل بن سلمة والمفضل الضبي ومكي بن ابي طالب ومنذر بن سعيد البلوطي الخطيب المصقع ومؤرج بن عمرو البصري والجواليقي والمطرزي ونشوان الحميري ونصر بن عاصم الليثي وابو عبدالله الشيرازي خطيب شيراز ونصيب بن رباح والنضر بن شميل وواصل بن عطاء والبحتري ووهب بن منبه وابن سناالملك والبديع الاسطرلابي (هبةالله بن الحسين) وامين الدولة بن التلميذ وابن الشجري وابن الكلبي وهلال الصابي حفيد ابي اسحق والفرزدق (همام بن غالب) والهيثم بن عدي والشهاب السهروردي (يحيى بن حبش) و يحيى بن خالد ابن برمك و يحيى بن زياد ويحيى بن بقي الاندلسي والخطيب التبريزي (يحيى بن علي) واليزيدي (يحيى بن المبارك) وابن طباطبا العلوي (يحيى بن محمد) وابن ماري المسيحي وابن السكيت (يعقوب بن اسحق) والسكاكي وابو الحجاج الشنتمري المعروف بالاعلم النحوي و يونس بن

حبيب الضبي وغيرهم . وقد شفع الناشر كتابه بفهرس لاعلام هذا الجزء واسماء الكتب الواردة فيه . فنهنئه بهذه التحفة التي أتحف بها العلم العربي ، ونشكر له همته وكثرة تحقيقه ، ونستمطر الرحمة على جيب المستشرق الانكليزي الذي وقف اهله مبلغاً من المال لإحياء كتب العرب والفرس والترك فطبع منها حتى الآن ٣٩ كتاباً معظمها من الامهات واكثر من ثلاثة أرباعها من كتب العرب . وأنعم واكرم بكل من خدم لغتنا وآدابنا .

محمد كرد علي

مبادئ الفلسفة

تأليف (أ . س . رابوبرت) ونقله من الانكليزية السيد احمد امين

طبعة ثانية بمطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٩٢٢ ص ٢٢١

هذا الكتاب الصغير الجرم العظيم الخطر فيه خلاصة المنازع الفلسفية على ما يعرفها الغربيون ، واذ قد أغفل المؤلف الاصلي التعرض لفلسفة العرب حشي الناقل كتابه بجملة صالحة في الفلسفة عند العرب ونشأتها . وقد تخير في الترجمة كرائم الالفاظ وأجمل التعابير ، والموضوع شاق صعب . فقرب المعاني من الاذهان ولم يخرج عن مصطلح العرب في الحكمة ، ووضع بعض الفاظ للاعراب عن الفاظ من مصطلح الفلسفة الحديثة ، وترجم للفلاسفة الذين ورد ذكرهم تراجم موجزة فعرفهم الى القارئ العربي ، فاستحق المترجم شكر الآداب على هذه العناية وهذا الفضل .   م . ك

مؤتمر الآثار الدولي

« في سورية وفلسطين ١٩٢٦ »

G. Contenau : Le Congrès international d'archéologie de Syrie-Palestine, avril 1926

هذه رسالة ذكر فيها الاستاذ كونتو أعمال المؤتمر الأثري في الشام خلال شهر نيسان من السنة الفائتة وما قيل في بيروت والقدس من الخطب مما ألقاه الاعضاء

او رئيس الوفد الفرنسي الاستاذ دوسو وما لقيه اعضاء المؤتمر من حفاوة الحكومتين المنتدبتين في سورية وفلسطين ومن بعض أعيانها · وكذلك ما شاهدوه من العناية في المدن الاثرية التي زاروها مثل تدمر وبعلبك وجرش وعمان ووادي موسى وار يحا وحصن الاكراد وحبرون والناصرة وطبرية وسبسطية على ذلك بصور الاماكن التي تجري الحفريات فيها مثل جبيل وتدمر والسامرة وكفرناحوم وجرش وغيرها ، وفيه ثناء على مديري الآثار في المفوضية العليا في بيروت المسيو فيرولو ومدير الآثار في فلسطين والشرق العربي لما يبذلانه من الاهتمام بالعاديات وإخراجها · وقد جاء في هذا البيان ان مندوب الجزائر دعا المؤتمرين لما تقوض مجلسهم الاخير الى عقد اجتماعهم القادم في سنة ١٩٣٠ في مدينة الجزائر وهي السنة التي يتم بها قرن كامل لافتتاح فرنسا مدينة الجزائر · وقال ان تدمر الآن على خمس ساعات في السيارة من حمص وان بلاد الشام اذا صرفت العناية بفنادقها تصبح مقصد السياح من اهل الارض الخ ·

م · ك

جامع التصانيف الجديدة

لجامعه ومرتبه السيد يوسف اليان سركيس الدمشقي طبع بالمطبعة العربية بمصر لصاحبها السيد خير الدين الزركلي ١٣٤٥ — ١٩٢٧ ص ١٦٣

هذا كتاب في الاسفار والرسائل التي نشرت باللغة العربية في ست سنين في الغرب والشرق رتبها الاديب جامعها بحسب الفنون فكانت ١٢٠٧ كتب يخرج منها ما لا بال له من الروايات · وقد اعتمد المؤلف في ذكر بعض هذه الكتب على ما قرأه عنها في المجلات ولعله في الطبعة القادمة يدقق في الكتب التي وضعها في فن وهي ليست منه ويبحث عما فاته من المطبوعات ومنها المفيد جداً · وأجمل ما في هذا الكتاب فهرس أسماء جميع المصنفين على حروف المعجم يسهل معه الاهتداء الى مصنفاتهم على أيسر وجه · وهذه فكرة جديدة جميلة فيها دعوة الى التعريف بالكتب المطبوعة واقتصاد في وقت الباحثين في المؤلفات والمؤلفين فنشكر اباعذرها ونأمل ان تكون طبعته من قابل أنفع وأمتع ·

م · ك

عقلاء المجانين

للعلامة ابي القاسم الحسن النيسابوري نشره وعلق حواشيه السيد وجيه فارس الكيلاني بدمشق والكتاب في ١٦١ صفحة

لم يكد ينتشر كتاب (الحمقى والمغفلين) في أيدي الناس حتى تذكر فضلاء دمشق الكتاب الآخر المسمى (عقلاء المجانين) للنيسابوري اذ ان الكتابين وضعا على غرار واحد وهما لمؤلفين واعظين كبيرين : ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ . والنيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦ هـ . وكان الفاضل السيد وجيه فارس الكيلاني شرع منذ حين بنشر كتاب (عقلاء المجانين) لكنه لم يوفق الى إنجاز طبعه الا في هذه الآونة فطبعه طبعاً حسناً وعلق عليه بعض الحواشي . والغرض من وضع الكتاب الاول أعني (الحمقى والمغفلين) الذي الفه ابن الجوزي هو ان نتعظ بحماقاتهم فلا نحذو حذوها ولا نتورط في مثلها كما ان الغرض من الثاني (عقلاء المجانين) هو ان نتعظ بحكمة المجانين التي تصدر عنهم أحياناً مما قد يندر صدور مثله من العقلاء : فان سماعنا كلمات الحكمة من المجانين له هزة في النفس وارتياح يحمل على الانتفاع بما قالوه ووعظوا به . وهذا كتأثير المواعظ والأمثال التي تقال على ألسنة الطيور والحيوانات . فمما جاء في كتاب (عقلاء المجانين) ما روي عن بعضهم انه قال لمجنون لمار مجنوناً أعقل منك قال : المجنون ما انت فيه : تأكل رزق الله وتطيع عدوه (يعني ابليس) . وقال الحسن بن علي بن جعفر الخياط بالكوفة سمعت ابي يقول : رأيت مجنوناً في سوق دمشق وهو يقول :

(يا غافلاً مقبلاً على امله وجاهلاً والقصور في عمله)

(كم نظرة لامرىء يُسرّ بها لعلها منه منتهى أجله)

واتفق لكاتب هذه السطور امس انني صادفت في سوق دمشق رجلاً من ابناء اعيان الشام . وعهدي به انه يجُنّ ويفيق – فسلم عليّ وسلمت عليه وسألته عن حاله وقلت له : اني لم أرك من مدة فأين كنت ؟ قال : في مكة ! وكشف جبته فاذا تحت إبطه رسائل ظننتها دلائل الخيرات اونحوها . وقال: انه كان يشتغل بامثال هذا في مكة . مشيراً الى الكتاب ثم فارقته وسألت بعض من يعرفه عن أمره فضحك وقال: ان الرجل كان في

البيمارستان طول هذه المدة · فقضيت عجباً من هذا وقلت : ان هذه النكتة ينبغي ان تسطر في كتاب (عقلاء المجانين) · اذ ربما كان مراده من وجوده في مكة ان الاقامة في البيمارستان تطهّر المجانين من لوث الجنون · كما ان مكة المكرمة تطهّر المذنبين من من لوث الذنوب · وبالجملة فان كتاب (عقلاء المجانين) مما يحسن بكل عاقل ان يقرأه ويشكر لمن طبعه ونشره ·

المغربي

عدة الاديب

وضعه وشرح ألفاظه اللغوية السيدان سليم الجندي ومحمد الداودي جزآن طبع الاول في مطبعة الترقي بدمشق ١٩٢٦ ص٨٤ والثاني ايضاً في مطبعة الترقي في ٨٨ ص سنة ١٣٤٥ — ١٩٢٦

هذا كتاب في مبادىء الادب اختار لها الاستاذان واضعا هذا السفر جملة صالحة مما تخيراه من الكلام المنظوم والمنثور او تخيره العلماء الذين شيدوا بنيان الادب مما حاكته قرائح الشعراء والخطباء والحكماء واصحاب المقامات والمقالات على اختلاف موضوعاتها وقد شرحاه شرحاً مستوفى يقرب متناولها من اذهان الطالبين الذين يرغبون في ان يشدوا شيئاً من أدب العرب وجملا الحظ الاوفر للشعر القديم ، فدلّ على حسن ذوق في الاختيار ومعرفة بجمل المعقول على تدبر كلام البلغاء وعسى ان يوفق الاستاذان المحققان الى انجاز هذه السلسلة التي تغني طلاب الادب عن المطولات وتندرج بهم في مراقي الكلام ·

م · ك

كتاب الاخلاق

تأليف أستاذ علم الأخلاق بمدرسة القضاء الشرعي سابقاً ، والقاضي بالمحاكم الشرعية في مصر ، السيد احمدامين ، طبعته دارالكتب المصرية على نفقة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة طبعة ثالثة أكمل من سابقيتها وأوسع وقعت في ثلاثمائة صفحة ونيف ، فيه كفاية لمن اقتصر عليه وإعداد لطالب التبحر في علوم الأخلاق

والنفس والاجتماع ، قد أحسن مؤلفه في اختيار أهم المباحث الأخلاقية وانتقى له أفضل الشواهد ، آخذاً من زهاء ثلاثين كتاباً من الكتب الاسلامية واليونانية والانكليزية ، بعبارة فصيحة صحيحة وطبع متقن ، الا هنات لا خطر لها .

هذا الكتاب وأمثاله من المؤلفات الحديثة في الأخلاق ، مما يجب ان لا تكون قراءته مقتصرة على تلامذة المدارس ، بل يجدر بكل قارئ ان يقرأها بامعان ، فان فيها إرشاداً لمحاسن الأخلاق التي عليها مدار السعادة في الدنيا والآخرة ، فللمؤلف واللجنة الناشرة الشكر على هذه الطرفة النفيسة .

من اعضاء المجمع العلمي

مسعود الكواكبي

الكشاف

هي مجلة بديعة صدرت في بيروت جاءنا العدد الاول منها وقد جعلت شعارها العمل على خدمة الإصلاح الاجتماعي عن طريق التربية والتهذيب . وحوت هذه الصحيفة مقالات جميلة منقحة للاساتذة ، صاحبها الرئيس الاستاذ السيد محيي الدين النصولي ومقالة لشيخ الكشافة ومؤسسها السر روبرت بادن باول وثالثة للاستاذ السيد عبد الباسط فتح الله ورابعة في تأليف الكشافة وخامسة في الفلك اسمها نظرة الى السماء للاستاذ منصور جرداق وسادسة في حياة بيروت وتحولاتها للاستاذ السيد عبد القادر القباني وخطب للاساتذة السادة عمر فاخوري وعبد الله اليافي ومصطفى فروخ في التصوير وما اليه الى غير ذلك من الفوائد والاخبار العلمية التي تهم الكشافة وغيرهم وقد زينت بعض صفحاتها بصور جميلة . فنحث الادباء على اقتناء هذه المجلة ومناصرتها خدمة للآداب .

م . ك

الآثار

هي مجلة عامة كان أصدرها في مدينة زحلة العلامة السيد عيسى اسكندر المعلوف احد اعضاء المجمع العلمي ثلاث سنين قبل الحرب ، فكانت من عوامل النهضة السورية

ودعامة من دعائم البحث . وها قد عاد الآن الى نشرها في تلك المدينة فسررنا بعودتها الى خدمتها النافعة للآداب . وليس صديقنا منشئ هذه المجلة بالذي يحتاج الى تعريف . فان قراءنا يعرفونه حق المعرفة وعلماء الامة يقدرون جهاده في التاريخ والادب والأبحاث العلمية التي عالجها فيما كتب ونشر ، ولذلك كانت عودة مجلته الى الصدور مما تبتهج له القلوب وتثلج له الصدور . م . ك

كتب ورسائل مختلفة

(١) المختصر في ترغيب وترهيب حديث سيد البشر صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الغرر للاستاذ الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي (ص ٦٣) من القطع الكبير . ومعه اللطائف البهية في شرح الاربعين الحديث السيلقية (ص٤٤) . والبدر المزيل للحزن في فضائل اليمن ومحاسن صنعاء ذات المنن (ص٣٢) تطلب في مصر من المطبعة السلفية ومكتبتها .

(٢) تفسير سورة الفاتحة وحل مشكلاتها القرآنية للاستاذ الشيخ طنطاوي جوهري طبع بمطبعة السيد مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر (ص ٦٤) .

(٣) فهرست مكتبة السيد مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر عن سنة ١٣٤٥ (١٩٢٧)

(٤) رواية رفائيل خزامي في آداب المعاشرة بقلم المطران جرمانوس معقد بمطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) ص ١٠٨

(٥) دقائق تاريخية للكرسي الملكي الانطاكي — البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم سنوه الاخيرة (١٨٤٨ — ١٨٥٥) بقلم ابن اخيه الشماس توما مظلوم بمطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان) ص ١١٠

(٦) النفس الحائرة رواية اجتماعية خلقية غرامية بقلم الاستاذ فريد حبيش عني بنشرها الاستاذ السيد الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر .

(٧) بول دي سويف الفاجرة . ترجمها الاستاذ توفيق عبد الله نشرها السيد الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر .

الجزء ٦ — المجلد ٧

مجلة المجمع العلمي العربي

(دمشق) : حزيران سنة ١٩٢٧ م — الموافق ذي الحجة سنة ١٣٤٥ هـ

محاضرة

في الكرم وتأثيره في عالم الاجتماع

ايها السادة : لقد أسمعكم هذا المنبر منذ عامين محاضرات جمة . وخطباً عديدة في الأدب واللغة وانواع شتى من العلوم والفنون . فلاق بي الآن ان انتقل بكم في محاضرتي هذه الى موضوع أخلاقي عمراني . هو مزية من مزاياكم . ومكرمة من مكارم أسلافكم . له عظيم تأثير في حالة الاجتماع الانساني شرقاً وغرباً . بدواً وحضراً . الا وهو الكرم . وفي يقيني انكم تجدون فيه لذة وفكاهة . وارتياحاً وعبرة . فأقول :

(الأغنياء يعظمون لانهم — أقوى على الإمداد والإحسان)
(فاذا تباخل ذو غنيً أضحى الفـ — قير أجلّ نفعاً منه للعمران)
(فعلامَ يُكرمُ منعم ذو ثروة — لم يُجد خيراً عالم الانسان)
(والامَ يُزرى بائسٌ ذو حرفة — يشقى لينعم ذو الغنى المتواني)
(سبحان ربي كم نرى في ذا الورى — حيفاً وظلماً واضح البرهان)

الكرم ، والجود ، والسخاء ، والحباء ، والسماحة ، والعرف ، والمعروف ، والعرفان ، والنوال ، والنائل ، والرفد ، والإحسان ، والبذل ، والجدى ، والندى ، والمنح ،

---

(١) للاستاذ الشاعر الناثر سليم بك عنحوري احد اعضاء المجمع تليت في ردهة المجمع العلمي العربي في ٧ ايلول سنة ١٩٢٣ .

والنفح ، والسيب ، والنفل ، والهبة ، والصلة ، والهدية . كلمات مترادفة تدل مع بعض الفوارق على معنى واحد . يراد به العطاء نبلاً وأريحية . او عطفاً وشفقة . او إغاثة ومعونة بلا مقابل مادي . او موجب ديني او قضائي .

فالكرم إذن يقتضي هذا التحديد والتعريف لا يكون اداء لدين اوسابق حق . ولا وفاء لزكاة او نذر . ولا جزاء لعقوبة . او ضماناً لغرامة . او صلحاً عن خصومة . او قياماً بما يلزم المرء عيالته من اليتامى والاقربين . فان هذه المعدودات وأشباهها انما هي من قبيل ايفاء الحقوق وابراء الذمم والنهوض بالفروض والواجب فلا تحسب من الكرم في شيء كما تعلمون .

والكرم نوعان اما خاص واما عام . فالخاص ما شمل شخصاً او أسرة او جماعة في حال من الاحوال . فيكون نفعه موقتاً ومحصوراً بالمحسن اليهم دون سواهم . والعام ما يبذل في سبيل خيري او علمي . بحيث ينفع قوماً بجماعتهم او أمة بأسرها أمداً مديداً . وكلاهما مفيد ولازم للجامعة الانسانية . وان كان الثاني أنفع وأبقى وأعم وأتم .

ولا فرق من حيث النتيجة بين ان يكون العطاء عفواً قبل الطلب . او تلبية للسائل بعد الطلب . وان كان الاول منهما أوضح دلالة . وانصع برهاناً على علو كعب الكريم الجواد واتساع مروءته . ونزاهة غايته .

قال الحسن رضي الله عنه : المعروف ما كان ابتداء من غير مسألة . فمن تعطيه بعد المسألة انما يأخذ بما بذل لك من ماء وجهه .

وكان قد دخل على أسامة بن زيد وهو يجود بنفسه فرآه يتأوه لدين عليه : ستين الف درهم لا يجد له قضاء فحملها عنه قبل السؤال ومضى .

والى فضل هذا النوع من العطاء أشار يزيد بن محمد المهلبي مادحاً الوزير سليمان بن وهب :

(وكم ملحف قد نال ما رام منكم ويمنعنا من مثل ذاك التجمل)

(وعودتمونا قبل ان نسأل الغنى ولا بذل للمعروف والوجه يبذل)

وشر العطاء ما جاء بعد وعد ومطل . وتسويف وتأجيل . ولذلك قيل : « خير البر عاجله » .

مدح بشار بن برد احد الامراء فوعده بجائزة ثم مطله زماناً ، ثم حجبه فاعترضه يوماً في الطريق بعد ان سمت نفسه وقبض على شكيمة فرسه وأنشد :

(أظلت علينا منك يوماً سحابة أضاءت لنا برقاً وأبطا رشاشُها)
(فلا غيمها يصحو فييأسُ طامعٌ ولا غيثها يهمي فتروى عطاشُها)

فخجل الأمير وبذل له صلته .

وقد تعجبون يا سادتي لكثرة الكلمات الدالة على معنى الكرم : ولكن هذا العجب يزول متى عرفتم ان العرب من شأنهم اذا أحبوا شيئاً ، او خافوا شيئاً ، او تفاخروا وتنافسوا في شيء اكثروا له من اسماء الذات والصفات حتى لقد يتجاوزون في بعضها المئات : كالإبل والأسد والخيل والحية ، والسيف والرمح والمرأة ، والخمرة ، وغيرها وغيرها . تلك مزية انفردت بها هذه اللغة الشريفة فلا يضارعها بها غيرها من سائر اللغات .

والكرم كما تعلمون من مميزات هذه الامة . وأسمى مفاخرها . وبه اشتهرت في كل دور من أدوارها — اي حال جاهليتها واسلامها . وفي أطوار بداوتها وحضارتها . وفي عهد تقدمها وتأخرها — فلا عجب اذا تكاثرت فيها اسماؤه وتعددت صفاته . وهو في عرف اهلها سجية من سجايا النفس يهتزلها الجواد اهتزاز المهند في كف الشجاع . فتفيض يده بما تفيض إحساناً على من يريد ، فيضاً تنبسط له روح المحسن كما تُسرُّ به نفس المحسَن اليه . على حد قول القائل :

(تعوَّد بسط الكف حتى لو انه اراد انقباضاً لم تطعه أنامله)
(يفيض سروراً كلما فاض سيبه كأنك معطيه الذي انت نائله)
(فلو لم يكن في كفه غير روحه لجاد بها فليتق الله سائله)

وهذه السجية موهبة من مواهب الله عزَّ وجلَّ يخصُّ بها من طاب عنصره . وسمت أعراقه من عباده . فلا تأتي تكلفاً ولا تطبعاً : فان البخيل اذا تظاهر بالجود حيناً من الدهر لغرض في النفس . او حياء من الناس او تطاول لمنزلة الاجواد لا يبطئ ان يعود الى سالف حاله . وسابق رخصه . ولقد صدق من قال :

(كل امرئ راجع يوماً لشيمته وان تخلّق اخلاقاً الى حين)

وكفى بالكرم شرفاً انه من صفات الجمال المطلق والكمال الالهي ولله فيه من الاسماء الحسنى . الكريم . والاكرم . والجواد . والمعطي . والمحسن . والواهب . والوهاب . والرازق . والرزاق . وما بعد ذلك من حاجة لمستزيد .

وللعرب في الكرم كما قلنا الطراز المُعْلَم . والحظ الأوفر . والذكر الشائع . وان أمة نشأ فيه امثال (كعب بن مامة) الإياديّ الذي آثر رفيقه على نفسه بنصيبه من الماء وهو يموت من الظماء . واضراب (حاتم الطائيّ) الذي ذبح ايام المجاعة فرسه ليطعم ضيوفه واهلَ حيه ، وهو جائع لا يبقي لنفسه قوتاً . واشباه (هَرِم بن سنان) المرّيّ الذي كان يحمل الديات عن ذوي الثأرات ليصلح بين القبائل حجباً للدماء ، وإزالة للشحناء . وأنداد (صعصعة بن ناجية) الدارميّ التميميّ جد الفرزدق الشاعر المشهور محيي الوئيدات اي البنات اللواتي اعتاد العرب في جاهليتهم ان يدفنوهن حيات ليأمنوا شرّ إملاقهن في المجاعات وعار سبيهن في الغارات : فان (صعصعة) هذا كان يفتديهن من آبائهن بالمال استحياء لهن حتى جاءهم الاسلام فحرم فيما حرم الوأد . ومنعه بعد اذ كان (صعصعة) استحيى اربعمائة فتاة وفي ذلك يقول حفيده الفرزدق :

(وجدّي الذي منع الوائدات واحيى الوئيدَ فلم يوأدِ)

أجل ! ان أمة نبغ فيها امثال هؤلاء الاجواد في الجاهلية . ومئات بل الوف غيرهم في الاسلام ممن تضرب بجودهم الأمثال . وتفيض بذكر مآثرهم الاندية والاودية — لجديرة بالقول انها المجلية في مضمار البذل والعرفان بين أمم الأكوان . منذ خلق خطان حتى هذا الزمان .

ولم يقتصر الكرم العربي على الرجال فقط فقد نبغ في نسائهم من حاكينهم فيه : فسفّانة بنت حاتم كانت كأبيها تقري الضيوف وتهب الالوف وتكسو الفقراء الشفوف . ولا تبالي .

وأم البنين بنت عبد العزيز الأموية تعتق في كل يوم رقبة وتحمل عتيقها على فرس وتقول « لو كان البخل قميصاً ما لبسته . ولو كان طريقاً ما سلكته » .

وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : ارسل اليها عبدالله بن الزبير مئة وثمانين الف درهم فقسمتها بين الناس فما امست وعندها منها درهم واحد . ولقد روي عنها ايضاً انها احسنت بسبعين الف درهم في يوم واحد وهي في درعٍ مرقّعٍ لا ثوب لها سواه .

وسكينة بنت الحسين رضي الله عنهما كان يحتكم اليها مجيدو الشعراء كالفرزدق وجرير وجميل وكثير ونصيب فتسمع ما يقولون وتحكم بينهم ثم تحسن اليهم حتى انها اعطت جميلاً العذري في يوم واحد كسوة وطيباً وخمسمائة دينار ولكل من رصفائه مئة مئة .

وزبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد : لقيها نُصيب (الصغير مولى المهدي) في طريق الحج فترجل وأنشد ابياتاً منها :

(سيستبشرُ البيتُ الحرامُ وزمزمٌ بأم وليّ العهد زين المواسم)
(ويعلمُ من وافى المحصّب أنها ستحمل ثقل الغرم عن كل غارم)

فجادت عليه بعشرة آلاف درهم وفرس .

والعباسة بنت المهدي مدحتها جنباء بنت نصيب هذا باربعة ابيات آخرها :

(عليك ابنة المهديّ عوذي ببابها فان محل الخير في حيث حلّت)

فأمرت لها بثلاثة آلاف درهم و كسوة وطيب .

وأم سلمة زوج السفاح سمعت كلاماً مستحسناً قاله خالد بن صفوان لزوجها فأمرت له بخمس بدر وخمس حلل .

وفيما ذكر غنىً عما لم يذكر من امثال هذه النوادر الدالة على جود ربات الحجال فان المقام مقامُ إلماعٍ وايجاز لا مقام تفصيل وإسهاب .

ولم يبلغ الكرم باهله الى هذا الشأو ، ويرتفع بصاحبه الى الأوج الاسمى من المجد والسؤدد الا لانه المرآة الصافية التي تتجلى من شعاعها عاطفة الانسان نحو اخيه الانسان . ومبلغ ما تكنّه الافئدة النقية من شواعر الرقة والرأفة والحنان . فهو كما لايجهلون ابن الرحمة وأثرها الظاهر للعيان : فان الأريحية لا تنبعث في النفوس فتفيض على الأكف فتنهلل لها الوجوه بحيث تكشف ضيماً ، وتزحزح بلاءً ، وتدفع مصيبة . الا اذا مست الرحمة قلوب أصحابها ، وتسربت الشفقة الى صميم شغافها . فتحدو بها الى إغاثة ذي المحنة بالمال — الذي يسمونه سيد الارض ، وعديل الروح ، وقاضي الحاجات — وما إطلاقه من الايدي بالهين السهل — لولا ذلك الشعور الفاعل بالاعصاب الحساسة فعل الكهرباء الا وهو الرحمة الباعثة على المكارم .

ولقد جاء في الحديث النبوي الكريم « ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » فالمراد من الرحمة هنا ليس التوجع والتفجع لمصائب الناس فحسبُ ، بل يراد بها مع ذلك ظهور آثارها بالمعونة والاغاثة والإمداد مالاً وجاهاً وعملاً على قدر الوسع والطاقة بلا منّ ولا إذاعة ولا استعلاء . لان الرحمة غير المقرونة بالإحسان والإسعاف

لا نفع لها ولا جدوى مادامت مقصورةً على التأوه والتألم فقط ولا تتعداه الى الإغاثة والمعاونة التي هي أس العمران ودعامة الحياة وركن الاجتماع .

يظن بعض النـاس ان التعاون انما يراد به ان يكون احدنا مثلاً نساجاً والآخر حراثاً ، والآخر تجاراً . فيتبادل كل منا حاجته من الآخرين بالشراء بحيث تستغني الافراد عن تعـدد الاعمال التي تقتضيها الحيوة . وهو ما يقال له (توزيع الاعمال) وتبادل المنافع . وعليه تجري جميع أمم الارض . و به تقوم الحضارة . ويصلح شـأن الجماعات في كل عصر ومصر .

أجل ان ما وصفناه هنا انما هو ضرب من ضروب التعاون الذي هو نتيجة ضرورية وطبيعية لحياة المجموع . وليس هو التعاون كله : فان له ضروباً أخرى أهمها ما كان صادراً عن عاطفة الرحمة : فان الحياة الدنيا كثيرة المعاثر والصدمات والجوائح والامراض . فاذا لم يكن كل فرد عوناً لصاحبه او لمن حوله من بني نوعه حال عثاره ومحنته سقط المجموع لتخاذل الافراد وآل امره الى التعس والشقاء المؤديين الى الضعف والبوار والانقراض وهيهات يتوفر لأمة حظ او يستقيم لها شأن الا بهذا الضرب من التعاون المجاني الطوعي الذي نسميه هنا كرماً وإحساناً وعاطفة ورحمة بل بمقدار ما يزداد عدادُ الرحماء الكرماء المحسنين في قوم زادت حياتهم بسطةً ومنعةً ومعيشتهم راحةً ودعةً . وظهر في أفرادهم ومجموعهم من آثار القوة والنعمة ما ينيلهم الغبطة والسعادة والنعيم والهناء والعكس بالعكس . ولكن قل من ينكرون .

لقد مرّ بكم ياسادتي عن الكرم واسمائه ومعانيه وحدوده ومنزلته وأنواعه وتأثيره في المجتمع الانساني مايحتمله المقام . ولقد رأيت قبل ان أعالج تقسيمه الى اقسام تميز فيها منافعه من مضاره ان أروي لكم لمعاً من مكارم الأجواد من السلف مما فيه فكاهة وعبرة وذكرى .

فمن هؤلاء (حاتم الطائي) الذي مرّ بكم ذكره وهو أشهر أجواد العرب ذكراً وأبعدهم صيتاً . واليه ينسب الكرم في الجاهلية . فيقال (كرمٌ حاتميٌّ) كما ينسب في الاسلام الى البرامكة وزراء الرشيد فيقال (كرم برمكي) .

وكان حاتم هذا مع جوده شـاعراً مطبوعاً وبطلاً مغواراً وغازياً مظفراً اذا قاتل

غلَب ، واذا غَنِم أنهب ، واذا سُئل وهب ، واذا ضرب بالقداح فاز ، واذا سابق سبق ، واذا أسر أطلق ·

ومما تفوّق به على اقرانه حتى كان سبباً لشهرته وإذاعة صيته انه كان يرسل عبيده في ليالي الشتاء الباردة المظلمة فيضرمون النار على رؤوس النجاد ، وفي مفارق الطرق ، ليهتدي بها أبناء السبيل ، فيقصدونه للقِرى والمبيت · فاذا جلبت النار ولو ضيفاً واحداً عتق موقدها من الرق سروراً بضيفه · وفي ذلك يقول مخاطباً عبده :

(اوقد فان الليل ليلٌ قرُّ   عسى يرى نارك من يمرُّ)

(ان جلبتْ ضيفاً فأنت حر)

وكان اذا أهلّ الشهر الاصم الذي تعظمه العرب في الجاهلية نحر كل يوم عشراً من الابل · فيطعم الناس · فلما زاد إتلافه للمال وهو لا يزال في حجر اوليائه ارسله ابوه وقيل جده الى المراعي ليبعده عن الناس · فمرّ به هناك ثلاثة من الشعراء وهم عبيد بن الابرص و بشر بن ابي حازم ونابغة بني ذبيان · ففرّق بينهم مالاً هله من الابل وقفل الى الحيّ مسروراً كمن عاد من ظفر او غنيمة · ولما سأله جده سعد عن الابل قال له « طوّقتك بها طوق الحمامة مجداً وكرماً » فقال مغتاظاً (شهد الله انني لا أساكنك بعد اليوم ابداً) ثم ترك له جارية وفرساً ذات فلو ورحل عنه · وفي ذلك يقول حاتم من ابيات :

(وما ضرّني ان سار سعدٌ باهله   وافردني بالدار ليس معي اهلي)

(سيكفي ابتناء المجد سعد بن حشرجٍ   واحمل عنكم كل ما ضاع من نفلي)

فما عتم ان جاءه جماعةٌ من بني أسد وقيس · وقالوا له : ان لنا صاحباً فقد راحلته فقال حاتم خذوا فرسي هذه واحملوه عليها · فلما اخذوها تبعها المهر فجرت الجارية وراءه لتمسكه وتعيده فصاح حاتم بالقوم « ماتبعكم فهو لكم » فذهبوا بالجميع اي بالفرس والمهر والجارية · وبقي وحده لا يملك شيئاً ·

ومرّ في احد الاشهر الحرم بقوم من بني عنزة واذا باسير لهم يدعوه باسمه و يقول له : انقذني فقدا كلني الإسار · فقال له : ويحك ماانصفتني فقد نوهت بي واستجديتني وانا هنا غريب ولا مال لي · ثم ساوم القوم وافتداه منهم على مال معلوم · وقال لهم :

خلّوا سبيله · وانا أُقيم مكانه في قيده حتى أُعطي الفداء فغعلوا وما برح اسير القوم يقاسي الذل والامتهان حتى تيسر له الوفاء ·

وقيل نزل عليه ضيف ولم يكن عنده شيء فنحر ناقة الضيف واطعمه منها · ثم قال له قد نحرت ناقتك فاحتكم قال (راحلتين) قال حاتم لك عشرون أرضيت قال نعم قال فلك اربعون · ثم قال لمن لديه من قومه من اتاني بناقة الآن فله ناقتان بعد الغارة فاتوه باربعين فدفعها للضيف · وأداها لهم ثمانين ·

وكان قيس بن عاصم المنقري من سادات العرب وأجوادهم فنزل به ذات يوم ضيف فأطعمه واكرمه جرياً على عادته · واذا بقومه يتصارخون ونسائه يبكين · فسأل ماالخبر؟ فقالوا له ان ابنه قُتل · وان القاتل هو الضيف · فقال مالكم اليه من سبيل · فقد دخل في ذمامي وتحرّم بطعامي · ثم عزل من ماله دية القتيل ودفعها الى أمه · وما زال يرعى ضيفه ويحارسه حتى بلغ حماه ·

وكان قيس هذا اذا قدموا له طعاماً يقول التمسوا اكيلاً اي ضيفاً يأكل معي فلم يأكل مرة وحده ·

وسرّ تنافس العرب بايواء الضيف وإطعامه كائناً من كان انما هو كونهم اهل مضارب وخيام واصحاب إبل وشاء · يدفعهم الاحتفاظ بها · والقيام على تربيتها وانمائها الى انتجاع منابت الكلاء وارتياد مناهل الماء فهم ابداً متنقلون من مرتع الى مربع · ومن سهل الى واد · لا يستقر بهم مكان · ولا يقوم لهم بنيان · فلا يجد المسافرون منهم في طول تلك البوادي وعرضها نزلاً او خاناً او دسكرةً للبيت او الطعام كما يوجد في المدن والعواصم على النحو المعروف منا الآن · فيلجأون بحكم الضرورة الى استضافة بعضهم بعضاً التماساً للراحة والنوم والقوت · وتخلصاً من وحشة الانفراد في حنادس الليل · ووقايةً لنفوسهم مما قد يفاجئها في تلك الفلوات الخالية من عدوٍّ غادر ، او اسد كاسر ، او وحش جائع نافر ·

فمن كان من سادتهم واشرافهم كريم النفس ، واسع النعمة ، طلاباً للشهرة رفع عماد سرادقه ، وتوسطبه الحي تمييزاً له عن سواه ليقصده المسافرون فيبذل طعامه للصادرين والواردين والرائحين والغادين ، ولو كابد في ذلك عرق القربة ومنتهى المشقة ·

ولقد شاعت هذه المكرمة فيهم . وتمكنت من خاصتهم وعامتهم . حتى عُدَّ الإضراب عنها والزهد فيها عاراً وسبة تشم فيها الابناء عن الآباء . وتذم الاحفاد عن الأجداد . ولقد يطرق الضيف ارملة عجوزاً وحيدة لا مال لها الا شاة او عنز تقتات بدرّها وتكتسي بصوفها اوشعرها فتذبحها اكراماً لضيفها وهي طلقة الوجه مبذولة الانس ثم تبقى الى ما شاء الله أليفة الفقر حليفة البؤس فيحسب عملها هذا مأثرة لها يتحدث بها فتيانهم . ويتناقلها ركبانهم الى امد مديد .

ولا يزال ذلك شأن البدو وبعض اهل المدر حتى يومنا هذا : فكم وكم في بلادنا هذه من شيوخ عشيرة او قرية لاتطفأ ابداً نارهم ولا تنزل قدورهم يبسطون كل يوم عشرات من الاسمطة للذاهبين والآيبين ويبذلون العلف والماء لخيول المقيمين والراحلين لايلتمسون عن ذلك بدلاً ولا يبتغون اجراً . الا طيب الاحدوثة ونباهة الذكر . وغاية مايتطاولون اليه من دواعي الفخر ان ينزل بهم ضيف خطير فينحرون له كبشاً . ويطبخون ارزاً . ويجمعون اهل الحي او القرية على جفانهم فيأكلون هنيئاً مريئاً . وينقلبون حامدين شاكرين .

واذا استقرأنا ياسادة مامرّ بكم من اخبار الكرم الجاهلي نجده ينحصر في اربعة انواع : وهي بذل الديات عن مخاربي القبائل والعشائر كما كان يفعل هرم بن سنان ، واستحياء الموؤدات من البنات بافتدائهن من آبائهن بالمال كالمأثور عن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق . وافتداء الاسرى بالمال او بالنفس كما فعل حاتم بأسير بني عنزة . وقرى الضيوف وايواء ابناء السبيل كما هو شائع عند الجميع .

وهذه الأنواع الاربعة منبثة بالضرورة عن الحاجة فهي والحالة هذه متلائمة مع عادات ومعايش الوسط الناشئة فيه . موافقة كل الموافقة لاقوام رحالين ذوي غزوات لاتنقطع ، وأسفار لا تهدأ ، وعداوات لا تزول . وفي ذلك برهان على ان اولئك البدو أقدر من كثيرين منا على إنزال مكارمهم مواضعه . بخلاف مافعل حاتم من توزيع مال جده برمته بين ثلاثة من الشعراء سرفاً وتبذيراً . واعطائه ضيفه بدل الناقة التي نحرها لإطعامه اربعين ثم أداء الاربعين الى قومه ثمانين بينما هو فقير وقير لا يملك من حطام الدنيا الا مايؤمل اغتنامه من سلب ونهب عن طريق الغزو والحرب . فان في ذلك من سفه الرأي ما لا يصدر عن عاقل مفكر بصير .

بند ان ظهور الاسلام وانضواء متفرقي القبـائل وشذاذ القوم كافةً تحت لوائه بعد ان كادت تطحنهم الأحقاد والضغائن . وتأكلهم الحروب والغارات . ثم دخولهم عن طريق الجهاد والفتح في بلاد الفرس والروم وما وراءهما من شواسع البلاد وأطراف الممالك وانتقالـــ الخلافة من الحجاز الى الشام على العهد الأموي ثم الى العراق على العهد العبـاسي . كل ذلك قد وسّع نطاق الكرم العربي وحوّله الى جهـات أخر . فتفنن فيه أجواد ذلك العصر الذهبي تفنناً ينطبق على حضارتهم المكتسبة وثروتهم المغتنمة . وترقيهم الناشيء حتى صار امير كمعن بن زائدة الشيباني — وهو من صنائع المنصور ورجاله — يركب في قسيّه نصالاً من الذهب فيرمي بها العدو والصيد وفي ذلك يقول الشاعر :

(يركب في القسيّ نصال تبرٍ و يرمي للعدى كرماً وجودا)
(فللأمرى شفاءٌ من جراحٍ وأكفانٌ لمن سكن اللحودا)

ومعن هذا رجل عصاميٌّ . نشأ في بني شيبان وكان أدلّ بيدٍ على الخليفة المنصور بانْ أنقذه من تهلكة فرفع شأنه . وأسنى مقامه . حتى صار أميراً ممدَّحاً يشار اليه بالبنان . وقد اشتهر بالحلم كما اشتهر بالكرم حتى قيل انه لم يغضب . ولم يغتظ قط .

ولما شاع عنه هذا الخُلق وتداولته الألسن تراهن احد شعراء الأعراب مع قوم على مئة بعير يُعطاها اذا استطاع إحراجه وإخراجه عن حلمه ويعطيهم مثلها اذ أخفق . فجاءه يوماً وهو على سريره بين أشراف قومه وخاصة اهله . وابتـدره بلا تحية ولا سلام بقوله :

(أتذكر اذ لحافك جلد شاة واذ نعلاك من جلد البعير)

فبُهت الحضور من نخـة الرجل وسوء أدبه وتعمده الحط مرن كرامة الامير . اما معن فبقي محافظاً على سكينته وأجابه بلا حدة ولا استياء قائلاً : نعم اذكر ذلك ولا انساه . فقال الشاعر :

(فسبحـان الذي أعطاك ملكاً وعلّمك الجلوس على السرير)

فقال معن : سبحانه على كل حال . فقال الشاعر :

(اميرٌ يأكل الفالوذَ سراً ويطعم ضيفه خبز الشعير)

فقال معن : الزاد زادنا . نأكل منه ما نشاء . ونطعم ما نشاء . فقال الشاعر :

(فلست مسلّماً ان عشت دهراً على معنٍ بتسليم الامير)

فقال معن : السلام سنة تأتي بها كيف شئت . فقال الشاعر :

(سأرحل عن بلاد انت فيها ولو جار الزمان على الفقير)

فقال معن : إن جاورتنا فمرحباً بك . وان رحلت فمصحوب بالسلامة . فقال الشاعر :

(فجد لي يا ابن ناقة بشيء فاني قد عزمت على المسير)

فقال معن : أعطوه الف درهم . فقال الشاعر :

(قليلٌ ما أتيت به واني لأطمع منك بالمال الكثير)

فقال معن : أعطوه الفاً أخرى . فتقدم الشاعر الى سرير معن وقد يئس من إغضابه فقبل يده وقال :

(سألت الله ان يبقيك ذخراً فمالك في البرية من نظير)

فقال معن : أعطيناه على هجونا الفين فأعطوه على مدحنا اربعة آلاف . ولما عرف منه قصة الرهان الباعثة له على هذا التهجم أعطاه ايضاً مئة بعير مكان التي خسرها بالرهان . ومئة أخرى بدل التي كان يتوقع ربحها .

واحاديث معن في الكرم اكثر من ان تحصى . ومما قيل فيه رثاء له بعد موته :

(كأن الشمس يوم أصيب معنٌ من الظلماء مُلبَسة جلالا)

(وكان الناسُ كلهمُ لمعنٍ الى ان زار حفرته عيالا)

وقيل دخل يزيد بن مزيد مسجداً باليمن فوجد في قبلته مكتوباً :

(مضى معنٌ وخلّفني بعيثي على معن بن زائدة السلام)

فسأل يزيد عن قائله ولما اهتدي اليه أعطاه الف دينار . فقال الرجل يرحم الله معناً : فقد أحسن اليّ حياً وميتاً .

ومن فنون السماحة عند العرب قبل الاسلام وبعده ان يقصد الرجل جواداً منهم يؤدي عنه مهر فتاة أحبها فخطبها ولا مال له فيحمل عنه المهر مهما كان جسيماً ويعطيه ما ينفق في وليمة بنائه بها . كما فعل عمرو بن ابي ربيعة الشاعر غير مرة . وهو ايضاً من أفضل أنواع الكرم وأنجعها في الحسن اليهم كما لا يخفى .

اما صلات الشعراء بالالوف وعشرات الالوف فهو شأنهم بدواً وحضراً وجاهليةً

وإسلاماً . وقد فاضت باخبارها كتب التاريخ . والأدب العربي حتى لم تبق حاجة لمستزيد .

ومن لطيف فكاهات هذه الصلات . ان عليّ بن جبلة مدح ابا دُلف القاسم بن عيسى العجلي احد كبار قوّاد المأمون ثم المعتصم بقصيدة منها هذان البيتان :

(انما الدنيا ابو دُلفٍ بين باديه ومحتضره)
(فاذا ولّى ابو دُلفٍ ولّت الدنيا على أثره)

فأعطاه الف دينار . ثم بينما كان بعد أعوام يسير ابو دُلف في بعض الأزقة مع رفيق له اذ أشرفت فتاتان من قصر فسمع احداهما تقول للاخرى « انظري : هذا ابو دُلف الذي يقول فيه الشاعر» « انما الدنيا ابو دُلف الخ » فقالت الاخرى : أوَهذا هو ؟ قدر الله كنت أحب ان أراه منذ سمعت ماقال فيه ذلك الشاعر . فالتفت ابو دُلف الى رفيقه . وقال له : ما انصفنا عليّ بن جبلة ولا وفيناه حقه . فانه اعطانا مجداً باقياً . واعطيناه مالاً زائلاً . وان ذلك لمن اكبر همي . ثم بعث الى عليّ وكان مريضاً لا يقوى على مفارقة بيته بالف دينار ولازال يبرّه ويواصل إحسانه اليه حتى مات .

ومن عجيب امر ابي دُلف هذا انه مع فرط سخائه با لمال كان بخيلاً بالطعام حتى اشتهر عنه ذلك فقيل فيه :

(ابو دُلفٍ يجود بالف الفٍ ويضرب بالحسام على الرغيف)
(ابو دُلفٍ لمطبخه قتارٌ ولكن دونه ضرب السيوف)

ومن أغرب نوادره في الصلات انه لكثرة جوده قد ركبته الديون حتى لزم داره واشتهر عنه ذلك فدخل عليه بعض الشعراء وأنشد :

(أيا ربَّ المنايا والعطايا ويا طلق المحيا واليدين)
(لقد خُبّرتُ ان عليك ديناً فزد في رقم دينك واقض ديني)

فقضى دينه ووصله . وابو دُلف كان مع كرمه الذي تجاوز حد الاسراف وحلمه الذي لم يتقدمه ولم يتأخر عنه من يضاهيه فيه ذا رأيٍ اصيل وغناء رخيم وشعر جيّد وبأس شديد . وهي صفات ومحامد قلما اجتمعت في غيره . ومن شعره متحمساً ومفتخراً :

(أجود بنفسي دون قومي دافعاً لما نابهم قِدْماً واغشى الدواهيا)
(واقتحم الامرَ المخوفَ اقتحامه لإدراك مجدٍ او أعاود ثاويا)

وله الابيات المشهورة في الغزل الممزوج بالفخر :

(أحبك يا جنان فأنت مني مكان الروح من جسد الجبان)
(ولو اني أقول مكان نفسي خشيت عليك بادرة الزمان)
(لإقدامي اذا ما الخيل حامت وهاب كماتها حرّ الطعان)

فما مرّ بكم من اخبار معن وابي دُلف هذين يظهر لكم مبلغ إسراف أولئك الناس وإغراقهم بالجود والبذل حتى كانوا يستدينون و يهبون ويُغنون غيرهم ويفتقرون وكلما توسعوا في العطاء على طالبي رفدهم ومستجدي فضلهم كان هؤلاء يتفننون في استنباط الحيل واختراع الأساليب للمبالغة باستدرار النعم منهم واستزادة أنواع الصلات والهبات لهم . متزلفين اليهم بضروب من الوسائل لا تمر على خيال مفكر ولا تخطر على فؤاد لبيب . حتى صار الشعراء والرواة والمغنون في تلك العصور أكثر الناس مالاً . وأعظمهم جاهاً . وأوسعهم نفوذاً وتبسطاً وترفاً .

فالأخطل التغلبي الشاعر كان يدخل على الخلفاء والامراء من بني أمية وهو يتبختر ثملاً وعجباً وفي عنقه قلادة الذهب ثم يخرج وفي يده الصلات الكبار والهبات الجسام ثم يشفع فيمن يريد فلا تردّ شفاعته . كل ذلك لانه مدّاحهم المجيد القائل فيهم :

(شمس العداوة حتى يستقادَ لهم وأكرم الناس أحلاماً اذا قدروا)

وجرير التميمي اخذ من عبد الملك بن مروان عشرة آلاف درهم وعشرين راحلةً وجاريةً حسناء . لقوله في المروانيين :

(ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راحِ)

ومروان بن ابي حفصة كان يرفل بالحرير والخزّ ويتقلب على الاستبرق والديباج ويأخذ من المهديّ العباسيّ فما بعده من الخلفاء حتى المتوكل مئات الالوف من الدراهم والدنانير لانه رجّح أحقية الخلافة للعباسيين على الفاطميين من آل البيت بقوله :

(أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات وراثة الأعمام)

قيل لما دخل على المهديّ اول مرة وأنشده الشعر الذي يقول فيه هذا البيت وصله بسبعين الف درهم . وقال له ثي لك مني في كل حول مادمت حياً . وفي ذلك يقول مروان مفتخراً :

(يسبنه ين القنا راشني من حبائه وما نالها في الخلق من شاعر قبلي)

وأبانُ بن عبد الحميد اللاحقي اخذ من الرشيد عشرين الف درهم في اول مرة دخل عليه لقوله ضاربًا على الوتر ذاته الذي ضرب عليه مروان بما يتعلق بإرث الخلافة :

(نشدت بحق الله من كان مسلماً أعمُّ بما قد قلته العجم والعربْ)
(أعمُّ رسول الله اقرب زلفةً لديه ام ابن العم في رتبة النسبْ)
(وأيهما اولى به وبعهده ومن ذا له حق التراث بما وجبْ)
(فان كان عباسٌ أحقَّ بتلكمُ وكان عليٌّ بعد ذاك على سببْ)
(فأبناء عباسٍ همُ يرثونه كما العم لابن العم في الإرث قد حجبْ)

وابو العتاهية مات عن سبعة عشرة بدرة من المال لانه كان ملازمًا باب الرشيد وأعقابه من بعده متقربًا الى قلوبهم بما يبدو في شعره من آثار الزهد في الدنيا مع انه كان من أشد الناس حرصًا عليها وطمعًا بها .

وابن الخياط الشاعر دخل يومًا على المهدي مستجديًا مادحًا فأمر له بخمسين الف درهم . فلما قبضها فرقها بين الناس وانشأ يقول :

(لمست بكفي كفه ابتغي الغنى ولم ادر ان الجود من كفه يعدي)
(فلا انا منه ما افاد ذوو الغنى أفدت واعداني فبددت ما عندي)

فأعطاه خمسين الف دينار :

ودخل اسحق الموصلي المغني على الرشيد بصحبة الاصمعي الراوية وكان الرشيد منقبضًا كئيبًا . فأنشده ابياتاً مطلعها :

(وآمرةٍ بالبخل قلت لها اقصري فذلك شيءٌ ما اليه سبيل)

وختامها :

(وكيف أخاف الفقر او احرم الغنى ورأي امير المؤمنين جميل)

فقال له الرشيد : « لله درّ ابيات تأتينا بها ما اشدّ اصولها . واحسن فصولها . واقلّ فضولها » . ثم احسن اليه بخمسين الف درهم . فقال له اسحق : ان وصفك لشعري يا امير المؤمنين احسن منه فعلامَ آخذ الجائزة ؟ فضحك الرشيد . وقال احملوها له مئة الف درهم . فقال الاصمعي الآن علمت ان اسحق احذق مني بصيد الدراهم .

ودخل يوماً ابو دُلامة الشاعر على ابي العباس السفاح وكان كثير الإدلال عليه فطلب منه كلب صيد فأعطاه . فطلب غلاماً يقود الكلب . فأعطاه . فطلب دابة تحمل الصيد فأعطاه . ثم طلب جارية تصلح الصيد فأعطاه . ثم طلب منه داراً تجمعهم فأعطاه . ثم مالاً ثابتاً ينفق عليهم من غلته فأعطاه ارضاً عامرة وارضاً غامرة ثم استبدل الغامرة بالعامرة فجعل له الاثنتين عامرتين .

فتأملوا يارعاكم الله كيف فرّق ابن الخياط الدراهم ليأخذها دنانير وكيف احتال اسحق حتى جعل الخمسين الف درهم مئة الف وكيف تذرع ابو دُلامة بطلب كلب للصيد حتى توصل ببعض كلمات الى نيل هذه النعم المتوالية التي تعود عليه بالخير الكامل والهناء الشامل . وفي ذلك من شدة الحرص على ابتزاز الاموال ما لا تجهلون .

وكل ما اشرت اليه من احاديث الجود على إفراطه . ومآثر الاحسان على عظمتها . لا يعدّ شيئاً في جانب ما كان يصدر عن البرامكة وزراء الهادي فالرشيد من مدهشات العطاء الذي يتجاوز حدّ المعقول . وكاد يحسب من مبالغات اهل التاريخ : فقد كان لآل برمك في هذا الخُلق القِدح المعلّى والسهم الأنفذ والنصيب الأوفر حتى قيل عنهم انهم شفاء اسقام دهرهم . وغياث اجداب عصرهم . ومنزع ملهوف في زمانهم لاسيما احدهم الفضل الذي قال فيه ابو النضير :

(وللناس معروفٌ وفيهم صنائعٌ ولن يجبر الاحزان الا جدا الفضل)
(اذا ما العطايا لم تكن برمكيةً فتلك العطايا ما تمرّ وما تُحلي)

وهم ولئن لم يكونوا عرباً في الاصل بل كان جدّهم الاعلى فارسياً الا انهم نشأوا في العراق وترعرعوا في دور الخلفاء . وخالطوا خاصة العرب وعليتهم واقتبسوا آدابهم وعاداتهم حتى اصبحوا كأنهم من صميمهم .

كان البرامكة يخرجون بالليل سراً وهم متنكرون معهم الاموال صرراً بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف فيطرقون الأبواب من بيوت المحاويج اهل الستر والحرمات فيدفعون الى اصحابها الصرة بعد الصرة . وربما طرحوا ما معهم في عتب الابواب فكان الناس لاعتيادهم ذلك يعدون الى العتب اذا اصبحوا فيأخذون ما يجدون .

واتصل بخالد المصريّ ان يحيى بن مُعاذ في حاجة وقد ركبه من الدين ثلاثمائة

الف درهم حتى أرغم على إغلاق بابه تواريًا عن غرمائه . فأخبر الفضل بن يحيى . فقال له : دللتنا على مكرمة . ثم امر له بمائة الف درهم . وحمل الى يحيى بن معاذ ثلاثمائة الف درهم فقضى دينه بها .

وخرج الواقدي من المدينة بعد ان ساءت حاله وركبه الدين قاصداً البرامكة وهو لا يعرفهم وهم لا يعرفونه . فدخل على يحيى بأسمال من الثياب تحيط به الكآبة والبؤس وقصارى مايتمناه الف درهم فدفع اليه كيساً ولم يعلم ما فيه . فلما تناوله خرج مهرولاً حتى اذا انتهى الى بيته فتحه فاذا فيه اربعة آلاف دينار . فكاد يغشى عليه من السرور ثم ما ابطأ ان ابتاع اثواباً اصلح بها حاله وبكّر من الغد على يحيى ليودعه ويشكره فتوسم فيه يحيى علماً وفضلاً وادباً فقال له أقم عندنا ولك مثلها في كل عام فأقام عنده عزيزاً مكرماً موسعاً عليه حتى فرّقت بينهما النكبة .

ونظم أبان ابن عبد الحميد كتاب كليلة ودمنة شعراً ليسهل حفظه مبتدئاً بقوله :

(هذا كتاب ادب ومحنه وهو الذي يدعى كليله دمنه)

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار . واعطاه ابنه الفضل خمسة آلاف دينار . وقال جعفر سأستظهر كتابك هذا . وحسبك مني ان اكون روايتك فيه .

وما المعت عنه من مكارم البرامكة ان هو الا صبابة من بحر مما يؤثر عن هذه الاسرة التي لم يقم بعدها ولا روي عن احد قبلها من يحاكيها او يتحداها بالجود الفائض والسخاء الاتم لاسيما على المحاويج من اهل النعمة وبيوتات المجد والعلم والفضل . خلافاً لسيف الدولة الحمداني صاحب حلب الذي كان يصادر اموال الناس ويبتز مواريثهم لينعل افراس شاعره ابي الطيب المتنبي بالعسجد . ويهب سائر من يقف ببابه . ويلتف حوله من الشعراء فأرات المسك ونوافج العنبر . ونفائس الخلع والالوف المؤلفة من الدنانير لقاء ما يسمعونه من الاطراء غير المعقول كقول ابي الطيب مخاطباً اياه :

(كأنك في ثوب . وصدرك فيهما على انه من ساحة الارض أوسع)

وفي ذلك وامثاله ما يخالف قواعد الاجتماع ، وسنن العطاء ، وقوانين الاقتصاد في هذا العصر الذي لكل نفقة فيه حساب ، ولكل بذل مقياس ، فان ابواب المثرين والمتمولين في الغرب من ملوك وامراء وسوقة محجبة . وخزائنهم مقفلة دون امثال

هؤلاء المداحين المحترفين · وانهم يبذلون الملايين في سبيل مشروع خيري او معهد علمي و يرصدون مئات الالوف لمن يكتشف مثلاً دواء ناجعاً للسل او السرطان او الطاعون · وليهبون ماهو فوق المأمول لمن يؤلف احسن كتاب في التربية اونوع من العلوم ، ولا يبذلون ديناراً واحداً لمستجد او مداح كاذباً كان او صادقاً بل يقولون له انصرف الى العمل مادمت قادراً عليه فان عجزت لك من ملاجئ العجزة ما يغنيك عن التسول المنافي لسنة الحياة · فان الانسان المعافى خلق ليعمل · لا ليعيش كلاً على عواتق الناس ·

وفي هذا القول ما ينطبق على ما اوحته الشرائع التي اجمعت على وجوب العمل وكراهة البطالة حتى عد العمل ضرباً من العبادة · وما دام الانسان معافى في جسمه وعقله لا يجدر به ان يكون ساقط الهمة ، دنيّ النفس ، يبذل ماءوجهه التماساً لما في ايدي غيره من ثمرات اتعابه ليعيش على بساط الراحة والدعة والخمول متنقلاً من معصية الى كبيرة · ولا بدع ولا غرابة فان رأس البطال مخزن الشيطان · والاحسان الشخصي انما يكون للارملة واليتيم والمريض والسجين والعاجز والمرهق · لا لرجال اشداء اقوياء يقاسمونك مالك استجداء وتحيلاً · ليبددوه في سبيل شهواتهم وهم وادعون ·

والكرم بوجه عام ينقسم الى ثلاثة اقسام : القسم الاول ما نسميه (الكرم العادل) و يُحق لصاحبه ان يسمى المحسن الجواد · والقسم الثاني (الكرم الجائر) و يقال لصاحبه المسرف المتلاف · والقسم الثالث (الكرم الاحمق) و يدعى صاحبه المبذر السفيه ·

❋ القسم الاول ❋
« الكرم العادل »

هو الكرم الحق الذي يستحق وحده ان يسمى كرماً · وله شرطان : الشرط الاول ان يكون من فضلة مال المحسن لا من صلبه · لانه اذا كان من صلب المال لا يلبث المحسن معها كان ثرياً واسع النعمة ان يفتقر فيظلم نفسه واهله وبلاده : اذ يصبح عاجزاً عن الكسب ، قاصراً عن الاحسان ، بل عالة على سواه · وهنا تتجلى حكمة الآية الكريمة (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط) : الشرط الثاني ان ينزل المرء احسانه منزلته و يضعه في محله بحيث ينفع المحسن اليهم نفعاً صحيحاً ، لا يضر بمستقبلهم واخلاقهم وعاداتهم ·

ولنضرب لذلك مثلاً — زيد متوسط النعمة ، ريعه السنوي الف دينار ، ينفق منها بلا تبذير ولا تقتير ثلاثمائة ، ثم يقسم الباقي وهو سبعمائة ، الى شطرين احدهما يضيفه الى رأس ماله انماءً له ، وتحوطاً لعثرات الايام ، والآخر يرصده للاحسان . ان شاء احتبسه الى ان ينمو ويتضاعف بما يليه في مستقبل الاعوام بحيث يصبح كافياً لاحسان ثابت عام : كإنشاء مدرسة او مكتبة اومأوى للايتام . تدوم فائدته ، ويعم نفعه ، ويُبقي لصاحبه الذكر الخالد . وان شاء أطلقه لوجوه بعض الاحسان الخاص كامداد عائلة أخنى عليها الدهر فسلبها نعمتها حتى كاد ينكشف سترها ، وينفضح امرها ، بحيث تصبح مضغة في أفواه الشامتين ، او إغاثة تاجر امسى على شفير الافلاس . فينقذه من ذل التقاضي ووبال السجن بأن يعاونه سراً على نفقاته وايفاء ما استحق اجله من ديونه الى ان يأذن الله بالفرج . او ان يتوسم باحد اولاد البؤس النباهة والذكاء فينفق على تثقيفه وتعليمه مايصيره نافعاً لأسرته . جلاباً للفوائد له ولوطنه . فلا يبقى تعساً يعيش كالحشرات ، عالة مفسداً ، ويموت ذميماً شقياً غير مأسوف عليه . الى غير ذلك من ضروب المكارم التي تخفف الآلام ، وتزيل الحزن ، وتفرج الكروب ، وتجلب الفوائد .

هذا هو الكرم العادل الذي تمشي عليه الأمم الراقية الآن . فيرضى عنه الصواب وتقرّ به عين الحكمة ، وتتوفر فيه شروط الإحكام والاتقان والانصاف . فلا يظلم المحسن بان يستهلك ماله في سبيل اريحيته ، ويصبح من المملقين بل يدوم راتعاً في نعمته ، مقيماً على كسبه ، قديراً على مواصلة الاحسان لبني جلدته ، مستغنياً عن استجداء من لاخلاق لهم ولا مروءة ، ولا يُظلم المحسَن اليه بان يكون ميالاً الى البطالة ، فيغريه بما يناله منه غنيمة باردة على الكسل وبغض العمل ، وتبديد ما يعطاه في سبيل اللهو والزهو والشهوات .

أجل ان هذا النوع من الكرم يا سادة هو المعوّل عليه عند بعيدي النظر من متمولي الغرب . وكل ماننظره ونسمع به . او نقرأ عنه من المرافق الحيوية والمعاهد الادبية والعلمية . والملاجئ الخيرية القائمة في طول البلاد وعرضها على تضارب أنواعها ، وتفاوت مراميها وغاياتها ، انما هو اثر من آثار هذا الضرب من الاحسان .

وهو لسوء الطالع مفقود ، او يكاد يكون مفقوداً تحت سماء هذه البقعة التي كتب عليها منذ مئين من السنين الغبن والحيف والجهل والحرمان .

أجل ثم أجل ياسادتي فان بهذا الكرم رُفع منار الانسانية ، وتمكنت دعائم العمران ، وتمهدت للامم الغربية سبل السعادة والغبطة والحضارة ، وخفت عنها وطأة شقاء الحياة وبؤسها . ولولاه لكان العجزة منهم يأنون منطرحين في زوايا الطرق ومنعرجات الأزقة ، شاكين آلام الامراض والجوع ، المتربة يلتمسون الموت فلا يجدونه . ولكان ايتامهم وناشئة النساء منهم هائمين على وجوههم ، يكتنفهم الجهل والفساد ، و يحيط بهم الذل والمسكنة مما نرى أمثولته بيننا كل يوم . والعين تقطر دماً ، والقلب ينفطر حزناً . فان بهذا النوع من الكرم لا بغيره أنشئت مكاتب وملاجئ للعمي والصم والخرس والمقعدين . يتعلمون بها القراءة والكتابة والحساب وضروباً من الصناعات التي تلائم أحوالهم . فيعيشون رغداً آمنين مطمئنين . فلا يكونون عبئاً ثقيلاً على عوائق الناس ، فيكرههم اهلهم ، وتنبو بهم الارض ، وتبكي عليهم السماء .

و به لا بغيره ترقت العلوم والفنون والصناعات ، وزاد الاكتشاف والاختراع حتى سخر الانسان المناصر لخدمته فغاص لمسافراً في الماء . وركب طائراً في الهواء واستنار بالكهرباء . واستخدم البرق لنقل الاخبار . والبخار لجر الاثقال وسرعة الترحال . الى غير ذلك مما لو رُوي الى اسلافنا لعدّوه خرافات وأساطير تحكى ولا تعقل ، وتروى ولا تخيل .

هذا هو الكرم الحق الذي يعرج بأصحابه الى مقام الاعلام المحمودي الاثر الخالدي الذكر لا ما افتخر به عنترة العبسي بقوله :

(ولقد شربت من المدامة بعدما ركد الهواجر بالمشوف المعلمِ)
(بزجاجة صفراء ذات أسرةٍ قرنت بأزهر بالشمال مفدمِ)
(فاذا شربت فانني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يُكلمِ)
(واذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلي وتكرمي)

فان من يفتخر بسكره و يستهلك ماله كله في سبيل أريحيته عادلاً كان اوجائراً ثملاً ارصاحياً هو الى الجنون أقرب . وخليقٌ بمثله ان يحجر عليه الى ان يصبح من العاقلين .

﴿ القسم الثاني ﴾
« الكرم الجائر »

وهو الذي يجور على صاحبه المثري فيستكثر ما لديه مما تركه له آباؤه او جاءه عن طريق الصدف والاتفاق . فيأخذ بالتوسع في العطاء والاسراف في الانفاق . فان مشى أحاطت به حاشيته من اهل البطالة واللهو . وان جلس طوّقه فريق من اهل الحرص والطمع والنفاق . وان ركب ركب في موكب يشبه مواكب الملوك . يقصده المحتالون المتخرقون من كل اوب وصوب . فيغدق عليهم النوال و يكيله لهم جزافاً ليقال عنه انه جوادٌ وهاب . يُعطي بغير حساب . فلا يمرّ عليه حين من الدهر حتى يصبح ككثيرين من اولاد البيوتات في بلادنا خاليَ الجيب باديَ الانفاض . متدهوراً في مهواة اليأس والبؤس ، فهو ظالم لنفسه ، لانه أفقرها وأذلها ، ظالم لعائلته وذوي قرباه لانه أحوجهم وأشقاهم ، ظالم لمن أحسن اليهم لانه أغراهم بالتسوّل والكسل ، وكرامة العمل . فأصحاب هذا القسم من الاحسان آفة الوطن الكبرى ، وبلاؤه الادهم ، وشره المستطير . ولو تدبروا ووعوا لكان لهم من تراث آبائهم وتليد أموالهم وطارفها ما يقوون به على استدرار أخلاف النعمة . واستعمال ما أودعه الله في فطرتهم من مزايا البذل في موضعه مع الاعتدال والرويّة والرفق . فعاش كل منهم سعيداً مجيداً ، ومات فقيداً حميداً ، حافظاً له الوطن واهلوه مكارم تعود عليه بحسن الاحدوثة وآثاراً غالد له الثواب ، ولكنهم لا يتدبرون .

﴿ القسم الثالث ﴾
« الكرم الاحمق »

ينشأ ابن النعمة في بيت ابيه طاعماً كاسياً مخدوماً مكفيَّ المؤونة لا يطالب بشيء الا ان يكون رجلاً كاسباً مقتصداً نافعاً . فيلج باب الاعمال مديراً او كاتباً في احدى الخطط الاميرية او المؤسسات التجارية براتب لو تدبر فاحتفظ به ، وحرص على انمائه في الطرق المشروعة لألف منه على تراخي الايام ثروةً يستطيع معها عند الحاجة ان يكون رب بيت ينفق عليه من سعة ثم يكون من المحسنين : فان اضافة شعرة الى شعرة تؤلف لحية كما يقول العوامّ . ومن لا يعبأ بالقليل لا يتسنى له الكثير .

(قليل المال تصلحه فيبقى ولا يبقى الكثير مع الفساد)

فبدلاً من ان يسلك هذا السبيل المادي الأمين الذي ينتهي به رويداً رويداً الى منزلة أفاضل الرجال العاملين ، يقول في نفسه انني لا أزال في رونق الصبوة وربيع العمر لا يطلب مني شيء ولا أسأل عن شيء ، فما ضرني لو بذلت راتبي باسداء الجميل واصطناع الاخوان ، فيبسط صدره ومجلسه لمن يعرض له من الاتراب والأقران فيستأنسون به و يتألبون حوله فتنفخه الكبرياء كالزق و يتوهم انه أصبح من مشاهير الاعلام المتميزين بالوجاهة والفضل : فاذا استقرضه احدهم ديناراً نفحه بدينارين ، وان استحسن لديه تحفة أهداه تحفتين . ثم ينتهز فرصة عطلته وأوقات فراغه فيدعوهم الى الولائم والمآدب ومعاهد النزهة والطرب . فلا يمضي من الشهر اسبوعان حتى ينفد راتبه فيستلف من بعض الصيارفة على راتب الشهر الآتي ولا يزال يتدرج في هذه الطريق حتى تتراكم عليه الديون ، و يضيق عليه الدائنون ، فيهرع بعضهم الى ابيه فيشكون وبعضهم الى رئيسه فيتظلمون .

هنالك تنقشع الغمامة عن عيني ذلك الغر المسكين فتتجلى الحقيقة له كما هي فلا يشعر الا وابوه ماقت له ورئيسه ساخط عليه ، وأصحابه متفرقون عنه ، يتجنب الظهور في الأسواق لئلا يرى يطالب أمام الناس . و ينقطع عن الأندية ، ومجتمعات الحلق ، كيلا يضطر الى الانفاق ولا مال لديه : يجلس في دائرة عمله ناكس الرأس ، خائر النفس ، متوزع الفكر لا تنبسط نفسه الى عمل ، ولا تصغي أذنه الى حديث ، ولا يبرح ذلك شأنه حتى ينتهي الى احد امرين : اما ان يرأف به ابوه فيفي ماعليه ثم يكون مسيطراً على حركاته وسكناته الى ما شاء الله وهو ذليل واجم كظيم . واما ان يتيسر له من غامض علم الله رزق جديد او زيادة في الراتب فيتخلص من شدته بعد ان تبلغ روحه الحلقوم فيتخذها عبرة تنكب به عن مثل هذه المهواة الى ان يوافيه الأجل المحتوم .

هذا اذا لم يدركه العزل وتنتابه الفضيحة من قبل . فيساوره الغم وتتقاسمه الامراض فيلزم البيت خاسئاً مخذولاً مقهوراً : يرى الدنيا وما حوت من زخرف ظلمات بعضها فوق بعض . ولبئست العاقبة لمن لا يزدجرون .

وهذا الفريق ايضاً حسك ينشب في حلق الاجتماع الانساني فيمنعه هناءه و يسلبه قراره . و يجعل حياة البلاد الاقتصادية الى الاحتضار أقرب . فالى الله المشتكى من قبل ومن بعد .

* * *

لقد طال بي ياسادة نفس الكلام حتى لم يبق سبيل للزيد على انني أرجو ان يأتي يوم ، وهو منا قريب ، يقف فيه متمولونا وناشئتنا موقف الاعتدال بين منزلتي التقتير والتبذير . و يختارون من ضروب الاحسان ما يجعله نافعاً مفيداً عاماً معززاً للعلم والصناعات وملاجئ الخير والمبرات مخففاً عن كواهل الانسانية مصابها وإحنها وأسقامها حيثما يعرجون بهذا الوطن العزيز الى المستوى الذي يستحقه اهله من الغبطة والسعادة والرغد . انه سبحانه ولي التوفيق .

عضو المجمع العلمي العربي

سليم عنحوري

منشأ اللغات

اختلف الباحثون من اللبين وغيرهم قديماً وحديثاً في مأخذ اللغات على أقوال :

فقال قائلون انها توقيف من الله تعالى · وفسر بعض هؤلاء ذلك بالوحي وبعضهم بالإلهام والإقدار وبعضهم بالأمرين ·

وقال آخرون انها من وضع البشر · وفسر بعضهم ذلك بمواضعة حكماء البشر على اختراع أصوات خاصة يتفاهمون بها ، وتابعهم في ذلك العامة · وبعضهم باشتراك أفراد الناس في ارتجال بعض الألفاظ · ولقن غيرهم عنهم من غير سابقة اتفاق · وبعضهم بالتدرج في بناء الألفاظ من محاكاة أصوات الحيوان وتفاعل قوى الطبيعة بحرف او حرفين الى التزيد بالتكرير والملحقات والقلب والتبديل ·

وقال قوم بالتوفيق بين الأمرين بالتوقيف من الله بمعنى الإلهام والإقدار على الارتجال احياناً ، و بالوضع بالقصد الى محاكاة الأصوات منه ومن غيره وتعديلها أحياناً ·

وعلى هذا الرأي جمهور المحققين من اللبين وغيرهم ·

وتفصيله ان الانسان كسائر الحيوان مفطور على ان يعبر عن انفعالاته النفسية باصوات مختلفة ، فانا نسمع الهرة مثلاً تموء بضعة أصوات مختلفة تظهر بها بإلهام من الله انفعالاتها ومطالبها ، فصوت الاستعطاء والاستعطاف غير صوت الزجر والغضب الخ ·

وشأن الانسان الناطق بالطبع في ذلك ليس أقل من شأن الحيوان الأعجم بما ركب فيه من قوة الارادة والتمييز ، وما أودع أداة صوته من الموهبة العظيمة التي جعلته يحكي كل صوت و ينوعه حروفاً منطقية ، فبالقدرة على الحكاية أمكنه ان يعبر عن المعاني المشعرة بها الأصوات الفطرية في نفسه وغيره بمحاكاتها بالحروف الشبيهة بها كما تفعل الببغاء التي هي دون الانسان في الادراك ، وبطبيعة القوة الناطقة التي أودعها الله اياه وميزه بها على سائر الحيوان أمكنه إرتجال بعض ألفاظ يعبر بها عن رغائبه القليلة في بدء نشأته ثم تولد عنها غيرها ·

فيتصور انه عندما كان يجيش صدره باظهار رغبة او رهبة يصيح بصوت مصور بصورة ما ، فيسمعه غيره و يفهم منه مراده باضافة قرينة حال او إشارة كما نشاهد

ذلك كثيراً في بعض الأطفال عند محاولتها النطق ، فاذا وجد انه أدى غرضه استعمله ثانية وثالثة في افهام رفقائه ، فيذاع بينهم و يعرف ، ولا يحتاج في استعماله الى قرينة ، وهكذا يفعل غيره فعله و يقلدهما ثالث ورابع حتى تتكون من هذه الالفاظ المرتجلة والمحكية اللغة الاولى الضرورية للبيئة التي يعيشون فيها ، و يتفق عليها طبيعة من غير تعمل ولا قصد الى الاتفاق . ثم تتسع هذه اللغة بعوامل النمو المعروفة من تنوع الوضع وتشعب الألفاظ بتشعب المعاني الكلية الى معان جزئية ، ومن الاشتقاق والقلب والابدال والزيادة والنقص والنحت والتحويل من الحقيقة الى المجاز ، فيشتهر المجاز ثم يصير حقيقة . والتجوز في اللفظ قد يكون من عمل المرء وحده ، او من عمل طائفة معه راقية تحاول علماً او صناعة وتضع لمانيها وأدواتها مصطلحات تشتهر وتصير حقيقة عرفية .

هذا وقد اختلف الحكماء فيما نطق به الانسان ابتداء ، فقال قوم انه نطق اولاً بالاصوات الدالة على الانفعالات الوجدانية كالتأوه والأنين والتأفف والقهقهة وأصوات الزجر والغضب والخوف . ثم كان يستعمل للمحسوسات الاشارة باليد وتزوية الوجه قياساً على التجاوات في ذلك . ثم وضع ألفاظ المحسوسات بالحكاية او الارتجال . ثم الالفاظ الدالة على حركة النفس الفكرية . وقال قوم انه ابتدأ بالاشارة الى المحسوسات ثم الوجدانيات ثم العقليات . والظاهر تساوي مرتبة الوجدانيات الفطرية ووضع اسماء المحسوسات ، وتأخر مرتبة العقليات في الوجود ، حتى لنرى جميع لغات البشر عاجزة عن التعبير عن كثير من المعاني التي تخالج النفس بل عن كثير من معاني المحسوسات كالفرق بين الروائح والطعوم .

ثم اختلفوا ايضاً في اي أقسام الكلام وضع ابتداء ، فقيل اسماء المفردات والمصادر ثم الافعال ، ونحت من كليهما اسماء الضمائر والاشارة والموصولات والحروف ، وقيل الأفعال ثم الاسماء الخ .

واذا قسنا نشأة النوع الانساني على نشأة الطفل كما يقول جمهور حكماء العصر فقد لحظنا في الأطفال الذين عنينا بتربيتهم انهم نطقوا بالاسماء الدالة على رغائبهم الفطرية وبعض المحسوسات المحيطة بهم ، ثم نطقوا باسماء المصادر ، ثم تلتها الافعال ،

وسبقوا المضارع فيها اخو به الماضي والامر ٠ ثم بعض اسماء الاشارة وجاءت الضمائر والموصولات والحروف متأخرة وتلتها بقية المشتقات ٠ و يؤيد هذا كثير من الحكايات التي تروى عن الامم المتوحشة بافريقية وجزائر المحيط الأعظم ٠

وكل ماذكرناه يقرب الى الذهن تصور نشأة اللغة الاولى للانسان ٠ اما اللغات المتفرعة منها ثم من أنفسها فتنشأ من هجرة بعض طوائف اهل اللسان الاصلي الى جهات متباعدة فيدفعهم التقاطع الى نسيان بعض الكلمات لعدم استعمالها في وطنهم الجديد والى تحريفها على طول الزمان ، ثم يرون في هذا الوطن ما لم يروه من قبل من أنواع الحيوان والنبات والجماد فيضطرون الى وضع كلمات على الوجه الآنف الذكر وهكذا ، فتتباعد اللغة الفرعية عن الأصلية كلما تباعد الزمان والمكان ، و يزيد مدى التباعد اذا جاوروا أمما تتكلم بغير لسانهم فيستعيرون من لغاتهم كلمات تتمثل بعد حين في بنية لغتها ، ثم اذا طال الأمد على أهل لغة وكثر عددهم وارتقت الصفات الانسانية فيهم اتسعت هذه وتعددت أساليب التعبير فيها وضاق حفظ اي فرد من علمائها عن ان يحيط بها ٠

القاهرة :

احمد الاسكندري

عضو المجمع العلمي العربي

الموازنة

بين الاعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

أجمع المؤرخون على ان مولد ابي العلاء المعري كان سنة ٣٦٣ هجرية وكانت وفاته سنة ٤٤٩ اي سنة ١٠٥٧ مسيحية ومنزلته من علوم اللغة والصناعة الشعرية فوق ان تحتاج الى بيان ، ومكانة بين امراء الكلام فوق ان يعزز ببرهان وكان له وقوف على سائر علوم عصره ولا سيما العلوم الفلسفية والدينية والهيئة ، اما ذكاؤه وحفظه فما يعد من خوارق الآيات بل من المعجزات ، ولولا ما لدينا من كتبه وشعره ، مع ثبوت فقده البصر منذ الرابعة من عمره ، لكان ما نقل الينا من ذلك الى التكذيب اقرب منه الى التصديق . بيد ان من كان يحفظ ذلك المقدار الجزيل من شتات اللغة والشعر والعلوم ، و يتكلم بما تكلم به نثراً ونظماً ، ويخوض في موضوعات سائر أحوال عصره وعلومه ، لحقيق بان يُصدَّق ما نقل الينا عنه ، فمن ذلك انه كان قاعداً يوماً في دكان يهودي ببغداد واتفق ان جاءه خصم له وتكلما بالعبرانية ، ثم مرت على ذلك ايام تحاكما بعدها الى القاضي فقال للمدعي هل عندك شاهدان على ما تقناله ، فقال عندي رجل يهودي وثان مسلم اعمى ، فأحضرهما القاضي ولما سأل ابو العلاء شهادته قال اني اعرف احدهما بصوته ولعلي أعرف الثاني ايضاً بصوته ، وهما قد تكلما في حضوري بالعبرانية ولم أفهم منها شيئاً ولكني أحفظ ما قالاه او ماقاله احدهما ، وأعاد العبارة بالعبرية وهو لا يفهم مايقول ، وكان في شهادته ربح الدعوى ، انقلها باختصار .

ومما اشتهر عنه انه اذ كان في بغداد سنة ٣٩٩ أنشده احد الشعراء قصيدة — ولعله ابو الخطّاب الجبلي — قال ابن الاثير في الكامل في حوادث سنة تسع وثلاثين واربعمائة وفيها مات ابو الخطاب الجبلي الشاعر ومضى الى الشام ولقي المعري وعاد ضريراً ومن شعره :

(ما حكمُ الحبِّ فهو ممتثلُ   وما جناه الحبيب محتملُ)
(تهوى وتشكو الضنى وكل هوىً   لا ينحل الجسم فهو منتحَلُ)

فلما اتى على آخر القصيدة قال له انت أشعر من بالعراق ، ثم عاد ابو العلاء الى الشام ولزم بيته في معرة النعمان ، وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ جاءه شاعر فأنشده قصيدة ولم يذكر اسمه له ، فلما اتى على آخرها قال ابو العلاء : ومَن بالشام ، فعجب الشاعر من فطنته وحذقه ، وسئل ما معنى ما قال لك فذكر للسامعين حكايته معه في بغداد وقوله له انت أشعر مَن بالعراق وانه عرفه الآن بنفسه فعطف على عبارته تلك بقوله ومَن بالشام .

وأمثال هذه الروايات عن ابي العلاء كثيرة ولم أرد بذكر ما أوردته منها اثبات المنقول او نفيه ، فلذلك مقام آخر ، وانما أوردت ذلك تمهيداً لما سيأتي في هذه الموازنة .

وانت تعلم انه قلما نبغ شاعر في فنون المنظوم ، او جاء عالم برأي جديد في علم من العلوم ، الا وقام له من الخصوم والحساد ، او المساجلين والنقاد ، قوم تدفعهم غرائزهم للتعريض به والطعن عليه ، وقد يكون بينهم أفراد لا غرض لهم الا تمحيص الحقائق ، والميل ماهم ، هذا شأن البشر في كل عصر ، ولاسيما في تلك القرون السحيقة ، يوم كانت الأديان في الشرق والغرب تجارة يتزلف بها العلماء الى مستبدي الحكام والامراء ، بعضهم للتمسك بالرزق ، وبعضهم للتكسب كيفما اتفق ، وآلة قاطعة في ايدي الملوك والحكام توصلاً لمطامعهم السياسية وأهوائهم النفسانية ، ولهذا لم يكن بدٌّ للفلاسفة والعلماء من إلباس ما يكتبون في اي علم غير علوم الدين ، ثوباً من التدين والورع ليأمنوا غائلة عدو يقدح او حسود يشي بهم وينم .

فاذا علم هذا فلننظر اولاً نظرة ناقد في رسالة الغفران هذه ، ففي بدء ما ينعى عليها طولها ، وهي رسالة من صديق الى صديقه ، ويُعتَذر عن ذلك ان رسائلهم لذلك العهد كانت طويلة لعسر وسائل النقل وبُعد المسافات ، مما كانت عليه حالة الطرق في تلك العصور من فقد الأمن ، ولم تكن البُرُد الا لحاجات الحكومات ، فاذا ما همّ القريب او الصديق بالمكاتبة ، لم يكن له بدٌّ من البحث عن مسافر امين يودع بين يديه رسالته ، وهذا لم يكن ميسوراً . ولذلك كانت رسائلهم طويلة ، الا ان المسألة

بين معرة النعمان وحلب ليست إلا ساعات على القافلة ، فلا ينطبق عليها ما ينطبق على الرسائل التي تقتضي خوض البحار وقطع المسافات الشاسعة في الصحاري والقفار . ثم ان هذه وان كانت جواباً عن رسالة وردت ابا العلاء من صديقه ابن القارح ، فلم تكن رسالة اخوانية ، اذ طولها وما فيها من الأغراض التي لا احسب المعري الا قصد لها وتوخاها ، يخرجها عن الاخوانيات ، و ينزلها منزلة معجم لغريب كلام العرب وغريب أشعارهم في ظاهرها ، وانما هي في الحقيقة مفاكهة بين صديقين في الاعتقاد متبادلين ، ولا أحسب الشيخ ابن القارح الا على مذهب الفلاسفة الزنادقة ، وسيأتيك الدليل فيما يجيء . اما ابو العلاء فقد كان فيلسوفاً قولاً وفعلاً ، أقول فعلاً لانه لم يكن بين فلاسفة العرب كلهم من طابق بين قوله وفعله سواه . فهذا الرئيس ابن سينا على فضله ورسوخ قدمه في العلوم الفلسفية ، كان نهماً شديد الشبق ، وكان هو ووالده يتقلدان الأعمال للسلطان في الدولة السامانية ، وقيل انه مات بالسجن . وقال فيه كمال الدين ابن يونس :

(رأيت ابن سينا يعادي الرجال وفي السجن مات أخس الممات)
(فلم يشف ما ناله بالشفا ولم ينج من موته بالنجاة)

والشفا والنجاة من أشهر كتب الرئيس كما هو معلوم .

اما ابن الصائغ وابو بكر بن طفيل وابو الوليد بن رشد فكلهم ممن اشتغل مع العلم بالسياسة ولم تصرفه الفلسفة عن الرئاسة ، بل ان أكابر فلاسفة اليونان قبلهم ، لم يحصلوا على منزلة المعري العالية . فان ديوجينوس المشهور بالكلبي لتقشفه وزهده في الدنيا ، قد اشتغل في صباه مع ابيه الصراف بالتزوير والتزييف ، ونفي من وطنه بعد التحقير والتعنيف . ورسطاليس نُسب اليه عقوق استاذه أفلاطون ، وأشياء ان صدق راووها الصقت به العار على مر القرون ، بل ان أفلاطون نفسه اشتغل بالسياسة وحام حولها ونُسبت اليه أفعال لم يجزم بصحتها ولم يقطع بتكذيبها .

واين من هؤلاء كلهم ابو العلاء ، فقد اجمع حساده وخصومه على زهده ونسكه ، وعفه بالعفاف ونهى عن الدنس . ومات وقد جاوز الثمانين ولم يدنس له عرض ، وحرّض على الفضائل ولزمها ، ذم الدنيا وأعرض عنها ، حرّم ذبح الحيوان منذ

الاربعين من عمره ، فمكث خمساً واربعين سنة لم يذق لحماً ، سمى نفسه رهين المحبسين لفقده بصره ولزومه منزله فمكث اثنتين وخمسين سنة بعد عودته من بغداد في بيته ·

وهو لم يكن يعتقد بدين من الاديان ، لا كما نحل له اصحابه والمتشيعين لفضله ، زعماً منهم ان القول بذلك مما يحط من قدره ، وقد علموا ان جل فلاسفة اليونان والرومان وغيرهم من الامم الخالية لم يكونوا على دين · وان منهم من كان على الوثنية والمجوسية لم يقدح ذلك في علمهم ، بيد ان عصور المتشيعين للمعري لم يكن يباح فيها لعالم ان يمالئ بمدح زنديق وان بلغ من العلم والفضيلة ما بلغه المعري ، ولم يكن اولئك المتشيعون بالعدد القليل منذ كان حياً · فقد بلغ مرتبة من تجلة الناس ووقارهم لم يروها تاريخ من تواريخ الارض كلها عن عالم اوفيلسوف او ملك · فقد روى الحافظ السلفي قال جلس على قبر ابي العلاء المعري عند دفنه نحو من مائة وثمانين شاعراً ورثاه اربعة وثمانون شاعراً منهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم صوفية وترجمهم باسمائهم ·

فلا بدع بعد ذلك اذا مارأى اولئك الفضلاء وأمثالهم ان يتخذوا له صدق الاعتقاد درعاً يتقون بها الوشايات ، ووسيلة يتوسلون بها لنشر مؤلفاته ، ولست التي القول على عواهنه فحسبك من قوله في لزومياته ·

(اذا رجع اللبيب الى حجاه   تهاون بالمذاهب وازدراها)
(فخذ منها ما أداه لب   ولا يغمسك جهل في صراها)
(وهت اديانهم من كل وجه   فهل عقل يشد به عراها)

وقوله :

(وجاءتنا شرائع كل قوم   على آثار شيء رتبوه)
(وغير بعضهم أقوال بعض   وابطلت النهى ماأوجبوه)

وقوله :

(هفت النصارى والحنيفة ماأهتدت   ويهود حارت والمجوس مضلله)
(اثنان اهل الارض ذو عقل بلا   دين وآخر دين لا عقل له)

وكثير من مثله في كتبه مما لا يحتمل التأويل ·

ولست أراه أراد برسالة الغفران الا الانتقاد على ما ذكره فيها ، وقد قلت قبل

هذا اني أحسب ابن القارح على مذهبه ، لا لان رسالة الغفران قد كتبت اليه فقط ، بل لانها جواب على رسالته التي لاخالها تضرب الا على هذا الوتر — وان لم يكن ذلك صريحاً — لقول المعري في اوائل رسالته : وقد وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها لاشك مأجور، اذ كانت تأمر بتقبل الشرع ، وتعيب من ترك اصلا الى فرع : أفلم يجد ابن القارح من طلبة العلم وغيرهم من محبي العلوم الشرعية في حلب يومئذ جديراً بتعلم الشرع وحدوده سوى ابي العلاء وهو بحر العلوم ، ولاسيما والمفهوم من جواب ابي العلاء انها تتضمن أغراضاً أخرى كثيرة ، وان عنونهـا بغير ذلك كما ذكر في اول رسالة الغفران .

وعلى الجملة فلا شك عندي انه لم يقصد برسالته تلك الا مذاكرة المعري في معنى كلاهما عليه متفقان واليه قاصدان . وحسبك من ذلك ان رسالة ابن القارح في تقبل الشرع ، فبدلاً من ان يجيبه المعري عليها بما يتعلق بذلك او بالاعتراض على شيء منها او بشرح ما يعنّ له في ذلك كله ، تراه يدعو له بالجنة ويحدثه عنها فيها وفي الجحيم من الغرائب ويقول له « ومثلها شفع ونفع ، وقرّب عند الله ورفع ، والفيتهـا مفتتحة بتمجيد صدر من بليغ مجيد وفي قدرة ربنا جلّت عظمته ان يجعل كل حرف منها شبح نور . . » الى آخر ما ذكر عن هذه الرسالة مما لا أراه فيها هازلاً منتقداً لا جاداً معتقداً وحسبك قوله « وانما أذكرها لانه قد يجوز ان يقرأ هذا الهذيان ناشئ لم يبلغه ذلك » .

واما ظاهر مافيها من ألفاظ التقوى ، فليس بحجة على نفي ما أقول واليك عبارته عن المتنبي : واذا رُجع الى الحقائق فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الانسان لان العالم مجبول على الكذب والنفاق و يحتمل ان يظهر الرجل تديناً وانما يجعل ذلك تزيناً الى آخر ذلك .

ولم يكن ابو العلاء ممن يحسب لفظ الزنديق شتماً او تحقيراً وانما هو وصف يراد به ان الموصوف بهذا اللفظ لايدين بمذهب من المذاهب ، وهو المعبر عنه في كتب اللغة ، وقد وصف به كثيرين ممن ذكرهم في رسالة الغفران ، لاتحقيراً بل بياناً وتمييزاً .

واما اختياره تسمية هذه الرسالة برسالة الغفران ، فلا أدري أهو الذي اسماها

ام ابن القارح ام سواه ، والارجح ان يكون هو المسمي ولعله استحب لها اسم الغفران لطلاوة وقعه في الآذان وقد أراد به التفاؤل لصاحبه بالغفران أسوة بمن ذكرهم من الزنادقة والملاحدة والكفار ، الذين سيراهم في الجنة راتعين وقد نجوا من عذاب النار ، وغفر الله لهم لكلمة خير قالوها ، او بيت فيه وصية صالحة ، يريد ان كتاب ابن القارح « في تقبيل الشرع » وذم من ترك الوقوف عند حدوده ، سيكون سبب الغفران له ودخوله الجنة كغيره من الزنادقة ، وهو برهان لما ذكرناه من ان ابن القارح ايضاً كان من الزنادقة ، وان كتابه لاينبئ عن اعتقاده ، وان ابا العلاء رام ممازحته في مضمون الكلام والثناء عليه في ظاهره ، ولعل تصدي ابن القارح لتأليف تلك الرسالة في تقبيل الشرع اي لزوم حدوده ، مما كان عليه من الزندقة التي كان يبوح بها لابي العلاء في خلواتهما ، هو الذي وحى اليه موضوع رسالة الغفران وابتكاره ، فكان آية في الهزل صوّره الجد ، وثوب تقريظ سداه التفضل ولحمته الحمد .

وقد آن لي ان أذكر جملاً منها نوضح لك غرضه في الانتقاد على ثوب الاعتقاد وهزلاً يضحك الثاكل والمتفجع ، ويشغل عن الراضع المرضع ، وتهويلاً ترتعش له المفاصل ، وترتعد منه الخصائل ، في بيان يعجز المصور عن تصويره بعد دقيق اللحظ ، بابدع وصف وابرع لفظ ، وقائله لم ير نوراً ولا تصويراً ، منذ كان طفلاً صغيراً .

« الطواف في الجنة »

قال بعد وصف خمور الجنة : فأما الانهار الخمرية فتلعب فيها اسماك هي على صور السمك بحرية ونهرية ، وما يسكن منه في العيون النبعية ، ويظفر بضروب النبت المرعية ، الا انه من الذهب والفضة وصنوف الجواهر ، المقابلة بالنور الباهر ، فاذا مدّ المؤمن يده الى واحدة من ذلك السمك شرب من فيها عذباً لو وقعت منه الجرعة في البحر الذي لايستطيع ماءه الشارب ، لحلت منه أسافل وغوارب ... وكأني به ادام الله الجمال ببقائه اذا استحق تلك الرتبة بيقين التوبة ، وقد اصطفى له ندامى من ادباء الفردوس ، كأخي ثمالة واخي دوس ، ويونس بن حبيب الضبي ... وهو ايد الله العلم بحياته معهم كما قال البكري :

(نازعتهم قضب الريحان مرتفقاً وقهوة مزة راووقها خضل)

وابو عبيدة؟ يذكرهم بوقائع العرب ... وتهش نفوسهم للعب فيقذفون تلك الآنية في أنهار الرحيق ....

ثم يرينا الشيخ علي بن منصور وهو ابن القارح نفسه ينتقل في أمصار الجنة فيسأل حميد بن ثور : وهو الذي يقول :

(ارى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داء أن تصح وتسلما)

كيف بصرك اليوم فيقول اني لاكون في مغارب الجنة فألمح الصديق من اصدقائي وهو بمشارقها وبيني وبينه مسيرة الوف أعوام للشمس التي عرفت سرعة مسيرها في العاجلة ... ثم يخطر له حديث شيء يسمى النزهة في الدار الفانية فيركب نجيباً من نجب الجنة خلق من ياقوت ودر ، في سجسج بعد عن الحر والقر ... ثم يصنع مأدبة في الجنان يجمع فيها ما أمكن من الشعراء و بعدد مافيها من ضروب الماعون العسجدية ، والخون الذهبية ، والفواثير [1] من اللجين والصحاف العجيبة والأقداح والكؤوس ذوات التصاوير والأباريق والزجاجات ، والبواطي والطاسات ، من أشكال الجواهر وأنواع الأطعمة وأجناس الطير والحيوان ، وكل طهاة حلب منذ عمرت الى ما بعد البعث ، وجميع المغنين والمغنيات ، تخدم بين ايديهم جوار من الحور العين ، وغلمان كأنهم اللؤلؤ المكنون ، و ينشئ الله بحكمته شجرة جوز تنفض عدداً لا يحصيه الا الله تنشق كل جوزة عن اربع جوار يرقصن على أبيات الخليل فتهتز ارجاء الجنة ... ثم يرى بين من يخاطبهم من الشعراء عُبيداً فيقول : السلام عليك يا اخا بني اسد فيقول وعليك السلام . واهل الجنة أذكياء ، لا يخالطهم الاغبياء ، لعلك تريد ان تسألني بم غُفر لي ... ثم يساجل الشعراء ويحضر مهاترتهم ونشاتهم و يفترق اهل ذلك المجلس بعد ان اقاموا فيه كعمر الدنيا اضعافاً كثيرة .

ومن هزله فيها: وبينما هو (اي الشيخ علي القارح) يطوف في رياض الجنة لقيه خمسة نفر فيقول ما رأيت أحسن من عيونكم من اهل الجنان فمن انتم خلد عليكم النعيم فيقولون نحن عوران قيس ...

(١) خوان الطعام او الموائد .

ومن هذا الباب طلب رضوان جوازاً منه ليدخله الجنة ونظمه قصيدة الى آخر هذه الحكاية البديعة ٠

وابدع من ذلك واغرب قصصه على لسان ابن القارح كيف حُشر وحوسب الى ان يقول : فلما خلصت من تلك الطموش (١) قيل هذا الصراط فاعبر عليه ، فوجدته خالياً لاعريب (٢) عنده ، فبلوت (٣) نفسي في العبور ، فوجدتني لا استمسك فقالت الزهراء صلي الله عليها الجارية من جواريها يافلانة اجيزيه فجعلت تمارسني (٤) وانا أتساقط عن يمين وشمال فقلت ياهذه ان اردت سلامتي فاستعملي معي قول القائل :

(ستِّ ان اعياكِ امري فاحمليني زَقَفونَهْ)

فقالت وما زَقَفونه ؟ قلتُ ان يطرح الانسان يديه على كتفي الآخر ويمسك بيديه ؛ يحمله وبطنه الى ظهره ، اما سمعت قول الجحجلول من كفر طاب ؟

صلحت حالتي الى الخلف حتى صرت امشي الى الورى زقفونهْ

فقالت ما سمعت بزقفونه ولا كفرطاب الا الساعة ؛ فتحملني وتجوز كالبرق الى آخر ما ذكر ؟ ٠ ومن هذا الباب ايضاً عربدة نابغة بني جعدة والاعشى ومنها : وَيَثب نابغة بني جعدة على ابي بصير فيضربه بكوز من ذهب فيقول اصلح الله به وعلى يديه لا عربدة في الجنان انما يعرف ذلك في الدار الفانية بين السّفلة والهجاج وانك يا ابا ليلى لمُتَترّع (٥) ٠

ومن بدائع مفاكهاته : فيأخذ سفرجلةً او رمانة او تفاحة او ما شاء الله من الثمار فيكسرها فتخرج منها جارية حوراء عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان فتقول من انت ياعبد الله ؟ فيقول انا فلان ابن فلان : فتقول اني أمنّى بلقائك قبل ان يخلق الله الدنيا باربعة آلاف سنة ٠٠٠ ويخطر في نفسه وهو ساجد ان تلك الجارية على حسنها ضاوية (٦) فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان عالج ، وانقاء الدهنا ، ورملة يبرين وبني سعد (٧) ، فيهال من قدرة الله اللطيف الخبير ٠

(١) البلايا والمصاعب ٠ (٢) اي لا احد ٠ (٣) جربت ٠ (٤) تلاعبني ٠
(٥) متسرع الى الشر ٠ (٦) نحيفة ٠ (٧) اسماء تلال من الرمل كالجبال الصغيرة مشهورة عند العرب ٠

ويقول يا رازق المشرقة سناها ، ومبلغ السائلة منــاها ، والذي فعل ما اعجز وهال ، ودعا الى الحلم الجمّال ، اسألك ان تقصر بوصن (1) هذه الحورية على ميل في ميل ، فقد جاز بها قدرك حد التأميل ...

(ستأتي البقية)

القاهرة : قسطاكي الحمصي

عضو المجمع العلمي العربي

اعضاء المجمع في الغرب

السيد پدرسن (Pedersen) الدنيمركي

ولد الاستاذ پدرسن يوم ٧ تشرين الثاني ١٨٨٣ واختلف منذ سن السابعة الى مدارس مختلفة حتى سنة ١٩٠٢ ودخل جامعة كوبنهاغ فدرس اللاهوت وعني عناية خاصة بدرس التوراة ولاسيما العهد القديم وقد اوصله درس اللغة العبرية التوراتية الى دراسة سائر اللغــات السامية ولما جاز الامتحان سنة ١٩٠٨ عني من سنة ١٩٠٩ — ١٩١٢ بالدروس السامية في المانيا وهولاندة وباريز وبودابست ونال سنة ١٩١٢ شهادة الدكتورا بتأليف كتبه على اليمين عند الشعوب السامية وفي الاسلام .

وفي سنة ١٩١٦ عين استاذاً للعهد القديم في جامعة كوبنهاغ وخلف استاذه القديم الاستاذ بول منذ سنة ١٩٢٢ في تدريس اللغات السامية . وعني عناية خاصة بالعبرية والعربية . وعاون من سنة ١٩١٣ — ١٩١٩ في المعجم العربي الذي يعده الاستاذ فيشر الالماني للنشر في ليبسيك وذلك بتهيئة شواهد عربية قديمة ولا سيما من الشعر القديم .

وفي سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ رحل الى مصر وفلسطين وسورية لدرس العربية الحديثة والتوسع في معرفة الاسلام . وله بضعة تآليف منها ما كتبه بالدانيمركية ومنها بالالمانية ومنها في بعض موضوعات التوراة ومنها نقول دينية اسلامية . ومن

(1) ردف .

ابحاثه رسالة في بلاد العرب الوسطى والوهابيين وأخرى في الدليل على اليوم الآخر من القرآن ورسالة على الازهر الشريف وتاريخ التعليم في الاسلام · وهو مؤازر في الموسوعات الاسلامية وفي عدة معاجم ومجلات كتب فيها مقالات او عارض فيها نصوصاً باخرى · وقد انتخب عضواً في المجمع العلمي العربي منذ سنة ١٩٢٢ ولنا به صحبة وأنسة ايام كونه في دمشق ·

مطبوعات حديثة

الذُنَف

« لابن رشيق القيرواني وزميله ابن شرف »

أودع اليَّ المجمع العلمي رسالةً بهذا العنوان مهداةً من رصيفينا الفاضلين محب الدين الخطيب وعبدالفتاح قتلان صاحبي المطبعة السلفية في مصر لاتجاوز صفحاتها المئة والعشرين من القطع الصغير وهي مما عني بجمعه السيد ابي البركات عبدالعزيز اليمني السائي الراجكوتي الاستاذ بالكلية الشرقية في مدينة لاهور (عاصمة بنجاب الهندية) مشفوعة برسالة أخرى تنطوي على ترجمة ابن رشيق هذا سأتكلم عنها في فرصة ثانية ان شاء الله ·

ولقد وضح لي بمطالعته في تلك الرسالة ان ابن رشيق لم يجمع شعره حال حياته و يدوّنه فبقيت فرائده مبعثرة تتلاعب بها ايدي الضياع الا ماروواه واستشهد به بعض المؤلفين من أساطنة التاريخ ونوابغ اهل الأدب مما جاء متفرقاً في كتب شتى فبعثت الغيرة السيد ابي البركات المشار اليه الى التماسه من مواطنه باذلاً الوقت والعناية حتى تسنى له الاشتمال عليه نتفاً ومقاطيع وابياتاً فذّة نسّقها في هذه الرسالة مرتبة على حروف المعجم وذيل صفحاتها بحواشٍ ذكر فيها المآخذ التي نقل عنها مع تعيين الصحيفة والطبعة واسم الكتاب المأخوذ عنه ثم شفع كل ذلك بشرح لطيف لما ورد في المتن من الالفاظ اللغوية التي قد تعزب معانيها على معظم القراء وهي طريقة حبذا لو تحداها عامة الكتبة والمنشئين لما ينجم عنها من الفائدة وصحة التثبت من الرواية لمن يعنيه ذلك ·

اما شعر الرجل فهو غاية الغايات في الرقة والطلاوة وحسن السبك ولصاحبه من سعة الخيال والقدرة على الإبتكار والاجادة في مختلف المناحي وشتى المقاصد مالا يضارعه فيه الا أفذاذ معدودون من فحول القريض . من اجل هذا رأيت ان أثبت هنا للقراء الافاضل طائفة صالحة من تلك النتف الغوال تفكهة وذكرى . من ذلك قوله في وصف الزرافة :

(جمعت محاسن ماحكت فتناسبت في خلقها وتنافت الاعضاء)
(تختال بين الخوافق مشية بادٍ عليها الكبر والخيلاء)
(وتمد جيداً في الهواء يزينها فكأنه تحت اللواء لواء)
(حطت مآخرها واشرف صدرها حتى كأن وقوفها اعياء)
(نعم التجافيف التي ادّرعت به من جلدها لو كان فيه وقاء)

وقوله متغزلاً وفيه معنى رائع :

(ان كنت تنكر مامنك ابتليت به فان برء سقامي عز مطلبه)
(اشمر بعود من الكبريت نحو في وانظر الى زفراتي كيف تلهبه)

وقوله وهو في غاية الابداع :

(سألت الارض لم كانت مصلى ولم كانت لنا ظهراً وطيبا)
(فقالت غير ناطقة لاني حويت لكل انسان حبيبا)

وقوله وفيه من لطف الصبابة ما شاء الوجد الصادق :

(ومن حسنات الدهر عندي ليلة من العمر لا تترك لايامها ذنبا)
(خلونا بها ننفي القذى عن عيوننا بلؤلؤة مملوءة ذهباً سكبا)
(وملنا لتقبيل الثغور ولثمها كمثل جنوح الطير تلتقط الحبا)

ومثله وهو اعذب واطرب وفيه من سلامة الاختراع ما لا يخفى :

(قبلت خداً منه أضرم لوعتي وجعلت اطفئ حرها برضابه)
(وضممته للصدر حتى استوهبت مني ثيابي بعض طيب ثيابه)
(فكأن قلبي من وراء ضلوعه طرباً يخبر قلبه عما به)

وله مماجناً :

(لك مجلس كلت بشارة لهونا فيه ولكن تحت ذاك حديث)

(غنّى الذباب فظل يزمر حوله   فيه البعوض ويرقص البرغوثُ)

ومن مبتكراته قوله من ابيات :

(كادت خلاخيل من اهوى تبوح به   سرًّا وغصت بما فيها دمالجه)

وله في ذمّ الصباح وهو من غرر معانيه :

(كيف لا ابغض الصباح وفيه   بان عني اولو الوجوه الصباح)

وله وهو انيقٌ رشيق :

(لو وُضع الورد على خده   ما عُرف الخد من الورد)
(قل للذي يعجب من حسنه   اقرأ عليه سورة الحمد)

وقال يصف خالاً بين الجيد والخدّ :

(حبذا الخال كامنًا منه بين الـ ـجيد والخد رقبة وحذارا)
(رام تقبيله اختلاسًا ولكن   خاف من سيف لحظه فتوارى)

وله وهو من الحكمة الرائعة بمكان :

(في الناس من لا يرتجى نفعه   الا اذا مُسّ باضرار)
(كالعود لا يطمع في طيبه   الا اذا أُحرقَ بالنار)

وله في وصف السحاب :

(سحاب حكت ثكلى أُصيبت بواحد   فعاجت له نحو الرياض على قبر)
(ترقرق دمعًا في خدود نوشحت   مطارفها بالبرق طرزًا من التبر)
(فوشيٌ بلا رقمٍ ونسجٌ بلا يدٍ   ودمعٌ بلا عين وضحك بلا ثغر)

وما جاء في الرسالة من شعر ابن رشيق فهو بالجملة آيات بينات ، اما زميله ابن شرف فهو شاعر متوسط الطبقة لا يدل ماورد في الرسالة من منظومه على خيال سامٍ وأُسلوب ممتاز وهو في كل حال دون منظوم ابن رشيق بمراحل ومن أجود مايعزى اليه قوله :

(والكأس كاسية القميص كأنها   لوناً وقدراً معصمٌ مخضوبُ)
(هي وردة في خده وبكأسها   تحت القناني عسجدٌ مصبوبُ)

ومما تُعاب به الرسالة ما جاء في بعض محتوياتها من فحش الكلام وبذيئه ومما

لا يغتفر اثباته في كتب الأدب ولو وكل الامر اليَّ لاستجزتُ حذفه وان أخلّ بشروط الأمانة اذ عارٌ على الأدب ان يُمزج بما يغري على سوء الأدب .

عضو في المجمع العلمي

سليم عنحوري

عدة الاديب

وضعه وشرح الفاظه اللغوية السيدان سليم الجندي ومحمد الداودي
الجزء الثالث ص٩٦ طبع في مطبعة الترقي في دمشق ١٩٢٦ — ١٣٤٥

يوالي هذان الاستاذان المحققان نشر السلسلة البديعة التي بدآ بها وفيها طرف من شعر الشعراء والكتاب محدثين ومتقدمين وشيء من تراجمهم ونحن لاعجابنا بكتاب العدة نقول للمؤلفين ما قاله الصاحب بن عباد وقد اطلع على كتاب الفاظ الكتاب المشهور الذي ألفه عبد الرحمن بن عيسى الهمذاني الكاتب : لو ادركته لامرت بقطع لسانه ويده فسئل عن سبب ذلك قال : لانه جمع شذور العربية الجزلة المعروفة في اوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين عنت الدرس والحفظ الكثير والمطالعة الدائمة اهـ . ونرجو للمؤلفين الصديقين المعونة على اتمام ما يسهل على اولادنا تناول المختار من الكلام الجزل مشروحاً منقحاً لينشأوا فصحاء بلغاء . م٠ك

مركز المرأة في قانون حمورابي

« والقانون الموسوي »

ألفه (جان أمل ربك) وعربه الاستاذ سليم العقاد . وقد طبع في المطبعة المصرية بمصر في نحو ١٢٠ صفحة بالقطع الصغير

موضوع الكتاب بحث اجتماعي عائلي يصور لك مركز المرأة والأطوار التي تقلبت فيها خلال الفي سنة اي من (٢٥٠٠) ق م الى (٥٠٠) ق م وقد كسر بحثه على ادوار اربعة :

(١) مركز المرأة في شرائع البابليين الأول اي منذ اربعة آلاف وخمسمائة سنة وقت ان كانت المرأة تحجب عن الانظار ويبيعها ابوها وفاء لدينه بالدرهم والدينار وقت ان كان الحق للرجل في ان يطلق امرأته بمجرد قوله لها انت لست امرأة لي فتطلق من دون ان يلحق الرجل ملام او تهمة من الهيأة الاجتماعية ، اما اذا طلقت المرأة زوجها قائلة (انت لست زوجاً لي) أغرقوها في النهر للحال وان أفلتت من الاغراق طردت من الهيأة الاجتماعية ذليلة طول عمرها . وقت ان كانت تبيع نفسها مرة في العمر لمن أراد ملامستها في هيكل الزهرة ميليتا (الزهرة) مقابل مبلغ من المال يعتبر مقدساً .

(٢) مركز المرأة في شرائع حمورابي اول ملك بابلي دونت شريعته ووصلت الينا وذلك سنة (٢٠٠٠) ق م تقريباً هذه الشريعة نسخت الشريعة الاولى ورفعت من قدر المرأة بالقدر الذي استعدت له حالة البشر يومئذ لكن بقي فيها بعض الخزعبلات مثل ان المرأة المتهمة بالزنا تلقى في نهر فاذا طفت على وجه الماء كانت بريئة وان رسبت كانت فاعلة والمدافعون عن شريعة حمورابي يقولون ان الكنيسة في العصور الوسطى كان لها في تحقيق التهمة مثل هذه الطريقة وكانت تسمى (حكم الله) .

(٣) مركز المرأة في شريعة إسرائيل الاولى وان مركزها في هذا العهد يشبه مركزها تقريباً في العهد الحورابي مع قليل من الاصلاح في بعض الشؤون من ذلك تغطيس الزانية المتهمة فقد استعاض الاسرائيليون عنه بتجريع (الماء المر) ذلك انهم يسقونها ماء مقدساً ممزوجاً بتراب وطئته النعال فتجرعه المسكينة فان ضرها وأفسد صحتها كانت زانية والا كانت بريئة .

(٤) مركز المرأة في شريعة موسى أثبت المؤلف ان هذه الشريعة رفعت المرأة الى المستوى الشريف اللائق بها وأقام على ذلك الأدلة والبراهين من اقوال كبار العلماء المؤرخين واللاهوتيين ثم بقي فيها شيء موضع نظر مثل مسألة تجريع الماء المر وامتحان الزانية به . وبين شيئاً من حكمته بالجملة ثم رد على من قال ان شريعة حمورابي أفضل من شريعة موسى بالنسبة الى رفع شأن المرأة بل ان المؤلف تخطى الى تفضيل شريعة موسى على شريعة (القانون المدني الافرنسي) وقابل بينهما مادة مادة بعادل على اضطلاعه وطول

باعه في التاريخ واللاهوت وضرب لذلك مثلاً مسألة حرية تصرف المرأة في ما تملك فالشريعة الحمورابية سوغت لها ذلك ضمن دائرة محدودة فجاءت الشريعة الموسوية ووسعت تلك الدائرة ، اما القانون الافرنسي فانه حجر عليها وجعلها كالقاصر بحيث لا يجوز لها التصرف مطلقاً الا بارادة زوجها .

هذه هي خلاصة موضوع الكتاب ونموذجات من المباحث التي أفاض فيها مؤلفه إفاضة ممتعة ، اما غرض المترجم الاستاذ سليم العقاد[1] من اهداء الكتاب مترجماً بلغة عربية فصيحة الينا معشر العرب فهو تنبيهنا الى ما يجب علينا اليوم من امر إصلاح شأن المرأة المسلمة فهو كأنه يقول ان على المرأة المسلمة واجبات ولا يمكن مطالبتها بها مالم نوفها حقوقها وقد قامت الهيعات في البلاد العربية حول حقوق المرأة وواجباتها وكثر اللغط والجدل حتى كاد يؤول الى ما لا تحمد عقباه فهو بهذا الكتاب كأنه يرفع بيده مشعالاً من عبر التاريخ او هو لعمري يرفع مرآة وكأنه يقول لرجال الذين انظروا فيها وتبينوا مركز المرأة المسلمة بين اخواتها منذ اربعة آلاف سنة الى اليوم . لا جرم ان المسلم ليباهي بما منحته شريعته للمرأة المسلمة مذ حماها من مثل لعنة (التغطيس في النهر) و (تجريع الماء المر) بل يفتخر وحق له ان يفتخر مذ يرى شريعته اعطت المرأة من حق التصرف بمالها كتصرف الرجال ـــ تماماً ذلك الحق الذي حرمتها اياه حتى الشريعة الافرنسية — حقاً ان هذا يملأ نفس المسلم صلفاً وعجباً ومباهاة بنبيه صلى الله عليه وسلم الذي رفع عن المرأة الاصر والأغلال التي قيدتها بها شرائع الأمم الاخرى . ولكن لا يلبث ذلك العجب والتيه ان تخمد جمرته مذ يرى علماء الاجتماع يرفعون عقيرتهم بالشكوى من لعنة الطلاق في الشرائع الاسرائيلية الاولى التي يطلق الرجل بموجبها زوجته لأهون الاسباب واتفه الدواعي ، فالمطلقة المسكينة على هذه الصورة تبقى مضغة بين الناس متسائلين ما ذا عساه يكون السبب في تطليقها حتى جاءت الشريعة الموسوية فأمرت المطلق بان يسلم زوجته (كتاب طلاق) يبرؤها من كل تهمة ووصمة تحط من قدرها . وها نحن اولاء معشر المسلمين اليوم نعامل المرأة من هذه الوجهة بما كانت تعامل به في شريعة البابليين والاسرائيليين لا يلبث الرجل ان يغضب على زوجته

(١) هو غير الاستاذ السيد محمود عباس العقاد عضو المجمع العلمي العربي .

لمالا يُعلم من الأسباب. فيطلقها و يطرحها كالشيء اللقا خارج الأبواب. فهل يتصور في العقل ان محمداً صلى الله عليه وسلم الذي اعطاها في الحياة والعلم والمال والكرامة كل حق يعرّضها لمثل هذا الامتهان لا والله. فعلى اخواننا علماء الاسلام ان ينظروا في المرآة التي رفعها لهم الفاضل العقاد فان في ذلك الحق والسداد.

المغربي

اعلام العراق

يتضمن سيرة المرحوم السيد محمود شكري الألوسي وتراجم طائفة من نوابغ أسرته. تصنيف تلميذه السيد محمد بهجة الاثري. طبع في المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٥ هـ في نحو ٢٤٠ صفحة بالقطع المتوسط

قال الاستاذ مصنف هذا الكتاب في مقدمته شارحاً الغرض من تأليفه « ولما كنت أشد الناس اتصالاً به (اي بعلامة العراق المرحوم الألوسي) ومثافنة له ومعرفة باحواله فقد بعثني باعث الواجب والوفاء له وللتاريخ معاً على ان أشرح سيرته العلمية والعملية وأخدم بها التاريخ الحديث » وكما وفى المصنف الفاضل حق استاذه بوضع هذا الكتاب أراد ان يفي به ايضاً حقاً آخر لمجمعنا العلمي رآه واجباً عليه فجعل كتابه تقدمة له ورقم ذلك بالطبع على نسخه فقال ما نصه : « الى المجمع العلمي العربي الجليل : هذه زهرة اقتطفتها من رياض الشباب وآثرت ان أقدمها اليك والهدايا على قدر مهديها » فيكون هذا المصنف اول كتاب أهدي الى المجمع على هذا النمط من الاهداء ولذلك حق على مجمعنا ان يشكر للمهدي صنيعه ويقابل ثقته هذه بالارتياح والاغتباط. افتتح المصنف الكتاب بفصول ضمّنها نشأة أسرة الألوسي في بغداد ثم اتى على تراجم بعض نوابغهم ونشر رسومهم ورسوم بعض أبنائهم. وأشهر هؤلاء النوابغ السيد محمود الألوسي صاحب التفسير الكبير (المتوفى سنة ١٢٧٠ هـ) وهو جد المرحوم محمود شكري الالوسي ومن أشهر نوابغهم ايضاً عمه السيد نعمان مؤلف كتاب (جلاء العينين في محاكمة الأحمدين) (المتوفى سنة ١٣١٧ هـ) ثم أفاض المصنف في ترجمة استاذه

فاستغرقت نحو ثلثي الكتاب : فأتى على ذكر دراسته وأساتذته وتدريسه ثم تأليفه كتاب (نيل الأرب) الذي اخذ عليه الجائزة والوسام الذهبي من (اسكار الثاني) ملك اسوج ونروج . ثم مصنفاته الاخرى . ثم حادثة نفيه الى الموصل (سنة ١٣٢٠ هـ) بسعاية اعدائه لدى والي بغداد ثم عودته الى وطنه بعد شهرين وذلك بالمساعي الجليلة التي قام بها اهل الموصل لدى السلطان عبد الحميد ثم ذكر تكليف الحكومة التركية له في اول الحرب العامة ان يسافر الى نجد ويفاوض صاحبها ابن سعود في انجاد الأتراك ثم وصف حفلات التأبين التي أقيمت له بعد وفاته ومن جملتها حفلة المجمع العلمي بدمشق ثم أسهب في وصف اخلاق استاذه واطواره ومبلغ مقاومته للحشو بين الجامدين وقد ذكر نتفاً من اقواله وآثاره الدالة على ذلك وهي من اكبر الشواهد على رسوخه في العلم وعقيدة السلف وحبه الشديد للاصلاح . كما تدل على مبلغ خسارة العالم الاسلامي بفقده رحمه الله . وكنا اثناء تصفحنا لهذا الكتاب نعجب لذكاء مؤلفه وحسن تصرفه في الثناء على استاذه . وكنا نرى علم استاذه واخلاقه وطريقته في الاصلاح وشدة وطأته على الجامدين — كل ذلك منجسماً فيه ضاربا قبابه عليه . فما أشبههما بالشيخ ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية : فكما كان هذان كوكبي إصلاح في العصور المتوسطة كذلك كان الألوسي وتلميذه الاثري في هذه العصور المتأخرة . وان كان الدهر فجعنا بالاستاذ الشيخ ، فندعو الله ان يمتع المسلمين زمناً طويلاً بالتلميذ الذي ما زال في ميعة الشباب . وغضاضة الأهاب . وهو مع كونه لم يزل ابن لبون . قد شأى المُقرمين واستطاع ان يبذ البزل المصاولين . ولم نجد في كل ما كتبه المؤلف اثراً لغلواء الشباب . اللهم الا ثلاث جمل كنا نحب ان يتنزه عنها الكتاب : كلمة في ص ٣٧ وردت في وصف ابي الثناء محمود لنساء الاستانة . وكلمة أخرى في ص ٩٩ فيها شتم لرجل قضى نحبه . وكلمة ثالثة في ص ١٣٥ فيها تحقير لرجل شهير لاشبهة في فضله ونبوغه . نعدّ على صديقنا المؤلف هذا ملقين تبعته على شبابه لا عليه وهو موضع الثقة في ان يحل نقدنا محله ويصغي اليه .

له

المرأة الحديثة وكيف نسوسها

تأليف السيد عبد الله حسين الخريج في الحقوق والعلوم السياسية · عني بنشره السيد الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية ص ٢٦٠

يدور البحث في هذا الكتاب حول الطور الجديد الذي دخلت فيه المرأة لا سيما بعد الحرب العامة وكيف أصبح للرجل أزاءها موقف غير موقفه الأول من حيث سياستها ومعاملتها ومعاشرتها فلم يعد في إمكان الرجل ان ينظر اليها كآلة لهو اوحارسة بيت بل عليه ان يعتبرها شريكاً له في هذه الحياة عوناً على تحصيل السعادة والهناء العائلي · فليجتهد إذن في تربية هذه الشريك التربية العائدة بالنفع عليهما معاً ·

وهذا ما قاله المؤلف مبيناً الغرض من تأليفه (أردنا ببحثنا ان نعلم كيف يجب ان يسوس الرجل المرأة الحديثة بعدما تطورت هذا التطور بخيره وشره ، فضائله ورذائله) ولغة المؤلف وانشاؤه ليس من الطبقة الراقية على العكس من تفكيره وتوقد بصيرته في الموضوع الذي يكتب فيه على ان الفصول الاولى التي افتتح بها الكتاب ضمنها الكلام على المرأة الانكليزية وتطورها الحديث وهي مترجمة عن الانكليزية لموسيو جلليكان من اشهر علماء الاجتماع الاوربي واحد اساتذة المؤلف · ويحتوي الكتاب على عشرين فصلاً ضمنها اهم ما تجب معرفته من علاقات الرجال بالنساء من حيث النزاع واسباب سوء التفاهم بينهما وتحديد الحقوق التي لها والواجبات التي عليها وصفات الزوجة واختيارها والزواج والطلاق والامانة الزوجية وان في الإخلال بها إخلالاً بالعائلة وإضاعة للنسل والتزوج بالاجنبية ووجوب العفاف وفوائده وانه لا يفسد الصحة كما يزعم بعضهم وغير ذلك مما يهم الجنسين معرفته · وبالجملة فان هذا الكتاب كسائر الكتب التي تصدرها المطبعة العصرية فائدة وإتقاناً · له

كتاب الاخلاق

مؤلفه صموئيل سميلز الأسكتلندي المولد اللندني النشأة (١٨١٢ — ١٩٠٤) حاز هذا الكتاب إقبالا في انكلترا واميركا ونقل من الانكليزية الى لغات عديدة .

جعل مؤلفه جل اعتماده في تقرير الأسس الأخلاقية التي تكلم عنها على خصال وأقوال لأكثر من اربعمائة من رجال ونساء اشتهروا بالدهاء والفضل من الأقدمين والمتأخرين منهم اليوناني والروماني والانكليزي والافرنسي والالماني والايطالي والروسي والصيني والهولندي والاميركي .

نقل هذا الكتاب الى العربية الاستاذ محمد الصادق حسين خريج مدرسة المعلمين العليا ومدير الادارة العربية بوزارة المواصلات بمصر بعبارة فصيحة وأسلوب حسن لا يكاد يظهر عليه اثر الترجمة ، مصدقاً عليه من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وهو مطبوع في مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٣٤٢—١٩٢٤ طبعاً معتنى به ، وان كان فيه بعض أغلاط منها مالا يصعب الاهتداء الى صحيحها ومنها ما ربما لا يتبادر الى الذهن صوابه نحو :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧١	٨	الشجرة	الهجرة
١٥٥	٢٠	للقادمين	للقادحين
١٨٥	٤	هرواته	هراوته
١٩٥	١٠	للأولاد	للبنين
	١٢	الأولاد	البنين
٢٠٣	٩	خمورهن	خمرهن
٣٤٦	١٨	الساعة	الباعة
٣٥٦	١٨	والا ذا	ولذا ، او ، ولهذا

والحق انه لجدير بمحب الاطلاع على اخلاق تلك الامم وآراء عظمائها في التربية والأخلاق ان يقرأ هذا الكتاب فانه يحصل له فكر وان في ذلك يستطيع ان يقابل به بين ماجاء عن علماء الأخلاق من العرب وما ورد عن اولئك الأعلام .

وقد وضع له الناقل ذيلاً فيه ترجمة موجزة لمن ورد لم ذكر في الكتاب ليتعرف القارئ منزلتهم في المفكرين فأحسن بذلك الصنع ، وحبذا لو يوفق الى تأليف مثله عربي الوضع ، اتماماً للنفع .

من اعضاء المجمع العلمي

محمود الكواكبي

كتاب علم الغريزة (فسيولوجيا)

لمؤلفه الحكيم احمد منيف العائذي استاذ علم الفسيولوجيا في المعهد الطبي العربي بدمشق .

هو كتاب عربي يقع في مجلدين كبيرين عدد صفحات اولها ٧٥٠ صفحة وعدد الثاني ٤٩١ . الاول موشح بمائة واربعة وعشرين رسماً والثاني بخمسة وثلاثين . يبحث الاول في فسيولوجيا الخلية والبيئة الباطنة وتركيبها وغرائزها وجهاز الدوران والتنفس والمجموع العصبي والحواس والحركات وشروط أفعالها وقد لاحظنا ان المؤلف وضع بحث المجموع العصبي في المكان الذي ذكرناه مقدماً إياه على ماسواه من الابحاث نظراً الى شدة علاقته بجهازي الدوران والتنفس .

ويبحث المجلد الثاني في الهضم وجهازه وفي ملحقات الأنبوب الهضمي وأفعالها ومفرغاتها الداخلية والغدد ذات الإفراغ الداخلي وفعل التمثيل ومضاده والأغذية وفعل الاغتذاء والراتب الغذائي ومفرغات الاعضاء كالبول والعرق وغيرهما وفعل التناسل والحرارة الحيوانية وغرائز أدوار الحياة الباقية كالطفولة والشيخوخة والمواد السامة وتأثيراتها .

وقد رأينا ان هذا المجلد استوفى البحث في الغدد ذات الافراغ الداخلي مما لم تذكر عنه المؤلفات الغربية الا النزر القليل وهذا دليل على ان المؤلف لم يكتف بترجمة المؤلفات الموضوعة ولكنه اقتبس كثيراً مما دوّنه في كتابه من المجلات والجرائد الطبية والمحاضرات التي القاها كبار الفسيولوجيين في باريس حين كان فيها كشارل ريشه وغيره . وكذلك القول عن السمية في الكيمياء الحيوية وعن الفسيولوجيا في الطفولة والشيخوخة فانه ألمّ بها وذكرها منفصلاً فجاء كلامه عنها جامعاً مفيداً .

والكتاب مبوب تبويباً حسناً متقن الطبع صقيل الورق صحيح العبارة يدل دلالة واضحة على ماعاني واضعه من الجهد في تأليفه فقد اقتبسه من مؤلفات الفسيولوجيا العديدة ومن نظريات أعاظم العلماء وأفكارهم وتجاربهم واختباراتهم من فرنسيين وألمان وانكليز واميركان وروس وغيرهم من الامم الحية ودوّن فيه اختباراته الشخصية التي قام بها حين وجوده في البلاد الغربية فجاء مؤلفه من أغزر المؤلفات مادة واليك المآخذ التي عاد اليها في تأليفه واسترشد بها في وضع كتابه :

كتاب الفسيولوجيا : لشارل ريشه استاذ الفسيولوجيا في معهد الطب في باريس .
كتاب غلاي : معلم الفسيولوجيا في مدرسة فرنسة .
كتاب ارثوس .
كتاب لئون فريدريك ونوئل الاستاذين في جامعة لياج .
كتاب مورا : الاستاذ في جامعة ليون ومعاونه دوايون .
قاموس الفسيولوجيا : لشارل ريشه وزملائه .
قاموس الفنون الطبية : لديشامبر وزملائه .
كتاب الفسيولوجيا البشرية : لبونيس معلم الفسيولوجيا في جامعة نانسي .
كتاب الكيمياء الحيوية للامبلنج استاذ في جامعة ليل .

ولعمري ان مطالعة هذه الكتب العديدة ومقابلتها وانتقاء الأصلح منها وصوغه في قالب عربي فصيح والتغلب على العقبات الجمة التي تقوم في وجه المقدمين على التأليف في لغتنا العربية الشريفة كل هذا يحملنا على تقدير العمل الشاق الذي قام به حضرة المؤلف ويدفعنا الى تهنأته ببروز كتابه البديع الى عالم العربية بحلة قشيبة جديدة .

وقد جارانا حضرة الزميل في كسع الألفاظ العربية باضافة النهايات الأجنبية اليها كالمضمين (للبپسين) والهضمون (للبپتون) والمضمون الثلاثي (للتربسين) وغير ذلك . وقد احسن باستعمال القمة (لقلة الاشتهاء) والنطفة (للحُيَيْن المنوي) والدحداح (للمسخ) وغير هذه من المصطلحات التي لم يستأثر بها وانما استعملها ريثما يقر رأي العلماء الاختصاصيين عليها او على ما هو اصلح منها .

غير ان الكتاب على الرغم من العناية به لا يخلو من الأغلاط المطبعية الكثيرة

ومن بعض الغلطات اللغوية التي كنا نتمنى لو صين عنهـا . هذا عدا مصطلحات علمية كثيرة لانجاريه في وضعها يطول بنا المقام اذا جئنا على ذكرها ومنها ترجمة الفسيولوجيا بعلم الغريزة .

فنحن نشكر باسم المجمع العلمي للمهدي هديتـه هذه الثمينة ونحض العلماء والزملاء على اقتناء كتاب نفيس كهذا اهل لان يزدان به جيد الخزائن الطبية والعلمية .

الحكيم

مرشد خاطر

عضو المجمع العلمي العربي

هدية منطقية

أهدى الى المجمع العلمي الفـاضل الارشمندريت توما الملوف رئيس دير سيدة البلمند جدولين وضعهما في علم المنطق (الاول) في أشكال القياس الاقتراني وضروبها المنتجة وغير المنتجة . و (الثاني) لضروب القيـاس الاستثنائي المنتجة والعقيمة . فالمجمع يشكر له هديته و يلفت اليها انظار الذين لا يزالون ينظرون في منطق ارسطو و يناظرون خصومهم بمقتضى اصوله .

دار الآثار العربية

جاء في تقرير الحكومة الافرنسية المرفوع الى جمعية الامم هذه السنة ما نعربه : نما متحف دمشق كثيراً هذه السنة وخاصة بفضل اجتهاد محافظه الامير جعفر حفيد عبد القـادر واحد قدماء تلاميذ مدرسة اللوفر . وقد جعل هذا المتحف في بناية من بنايات القرن الثالث عشر (المدرسة العادلية) التي رممت برمتها منذ سنة ١٩١٩ بناء على ما ارتآه رئيس المجمع العلمي العربي محمد بك كرد علي . وقد جمعت في هذه البناية الجاميع التي كانت مبعثرة في بعض معاهد دمشق وضمت اليهـا الوثائق التي اكتشفت في الحفريات ولا سيما حفريات الشيخ سعد والمشرفة وتل النبي مند وتدمر اهـ .

كتب ورسائل مختلفة

(١) التقرير السنوي للجمعية التاريخية الاميركية عن سنة ١٩٢١ — ١٩٢٣ وقع الاول في ٢٥٥ صفحة والثاني في ٢٧٥ واسمه بالانكليزية هكذا :

Annual report of the Américain historical Association (1921 et 1923)

(٢) « العيون » تأليف الفيلسوف الهندي رابندرات طاغور تعريب السيد انيس الراسي طبعتها مجلة الجالية الغراء التي تصدر في سان باولو في برازيل واهدتها لمشتركيها يوم عيد الميلاد (٣٢ص) ٠

(٣) « بلوغ المرام من احكام ذوي الأرحام » وفي ذيله « القول الصائب في تقديم ولد العاصب » هما رسالتان في بحثين من مباحث فن الميراث وضعها الشيخ محمد رحيم من علماء طرابلس الشام ٠

(٤) غريغوريوس الحجار متروبوليت عكا وحيفا والناصرة وسائر الجليل ٠ ترجمة اعماله ٠ نشرها السيد جميل البحري صاحب المكتبة الوطنية ومجلة ومطبعة الزهرة وجريدة الزهور في حيفا بمناسبة يوبيله الفضي طبع بمطبعة الزهرة في حيفا ص ٢٢

(٥) « مشاهد الحياة » نظم السيد اسكندر الخوري البيتجالي الجزء الاول طبع في القدس سنة ١٩٢٧ ص ٣٠٤ ٠

(٦) « حقائق وعبر » مقالات في موضوعات شتى نشرها السيد اسكندر الخوري البيتجالي طبع في مطبعة القبر المقدس في القدس ١٩١٣ ص ١٩٢ ٠

(٧) « الحياة بعد الموت » رواية تاريخية غرامية اجتماعية وقعت حوادثها اثناء الحرب العمومية ١٩١٣ — ١٩١٨ للسيد اسكندر الخوري البيتجالي طبعت بمطبعة الروم الارثوذكس بالقدس سنة ١٩٢٠ ص ٢١٦ ٠

(٨) « الداء والدواء » مجموعة مقالات اجتماعية للسيد اسكندر الخوري البيتجالي طبع بالقدس بمطبعة دير الروم ١٩٢١ ص ١٢٤ ٠

Bibliotheca Alexandrina
06552787